العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

بتحقيق

محمد سعيد العريان

العِقدُ الفريدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب ومؤلفه

بقلم

محمد سعيد العريان

يُعَدُّ كتاب «العقد» لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر: الجاحظ صاحب البيان والتبيين: سنة ٢٥٥ هـ ؛ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار: سنة ٢٧٦ هـ ؛ والمبرّد صاحب الكامل: سنة ٢٨٥ هـ .

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقا إلى التأليف فى هذا الباب، قد اجتمع له فى هذا الكتاب مالم يجتمع مثله فى كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن؛ فكان بذلك حقيقا بالمنزلة العليّة التى أحلّه إياها أُدباء العربية؛ إذ كان مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبى التى يُعوَّل عليها ويُستَند إليها، بحيث لا يُغنِى غَناءه كتاب فى المكتبة العربية ـ على غِناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب.

والحقُّ أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة، ويوشك مَن ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئا مما يهم الباحث فى «علم العرب» إلا عرَض له، وأعنى بـ «علم العرب» مجموعةَ المعارف العامة فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التى تتكوّن منها عناصرُ الثقافة العربية العامة لعهد مؤلّف هذا الكتاب؛ وعن الفروع التى انشعبت من علم

العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث فى «علوم الدين» ثم تميّزتْ باستقلالها — لا يَعْدَم الباحث أن يجد فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحبُ العقد فى أبواب متفرقة من كتابه، لعله لايجد لكثير منها نظائر فى كثير من الكتب الخالصة للبحث فى هذه العلوم.

وثمة فضلٌ آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب، هو أن ابن عبد ربه أندلسيٌّ من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصِّر به مغربيَّتُه عن اللحاق والسبق؛ ولعل هذا كان بعضَ دواعى ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه؛ إذ كان فى طبعه من المنافسة وحب الغَلَب مايحفزه إلى هذا المضمار، كما سنذكره بعد.

وليس بى من حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد فى تأليف كتابه؛ فقد تكفَّل هو بتبيان ذلك فى مقدِّمة الكتاب، ولكن الذى يعنينى أن أذكره هنا، هو أن ذلك النهج الذى سلكه مسبوقاً إليه وسلكه كذلك مَن بعده: كان يستند إلى قاعدة مقرَّرة فى «علم الأدب» كما عرَّفه القدماء؛ انظر إلى ابن خلدون يقول فى مقدمة تاريخه: «هذا العلم — يعنى علم الأدب — لاموضوع له يُنظَر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُه، وهى الإجادة فى فَنَّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة، من شعرٍ عالى الطبقة، وسجعٍ متساوٍ فى الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقرى منها الناظرة فى الغالب معظمَ قوانين العربية، مع ذكر بعضٍ من أيام العرب، ليفهم به مايقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة؛ والمقصود بذلك كله أن لايخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفَّحه . . . . . . ثم إنهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب [illegible] أخبارها، والأخذ من كل علم بطَرَف».

هذا الحدّ الذى ذكره ابن خلدون فى تعريف علم الأدب — [illegible] سنة ٨[illegible]، وعب[illegible] رفا لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون، [illegible]مة المختار بعد كلام فى [illegible] عبد ربه وبعده: يجمعون من أشعار العرب وأخبار[illegible] بحسنه وتمحو الأ[illegible]

ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة ، وإلى الإجادة فى فنّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ؛ وإذ كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى ، فقد كان ذلك نَهْجَه فى تصنيف كتابه والحشدِ له والتفنُّنِ فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها ، ومن أطراف كل علم وطرائفه .

ولقد وُفِّق ابن عبد ربه فيما جَمع لكتابه من فنون الأخبار ، ورعَتْهُ العنايةُ رعايةً هَيَّأتْ لكتابه الخلود والذِّكرا ؛ فان كثيراً مما اجتمع له فى هذا الكتاب قدعصفت الأيام بمصادره الأولى فدَرَسَتْ آثارُها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثارِ الكُتَّاب العرب ، وبقى العقدُ خلَفاً منها لاغَنَاء عنه ولا بديلَ منه ، يرجع إليه الأديبُ والمؤرخ واللغوى والنحوى والعروضى وصاحب الأخبار والقصص ، فيجد كلٌّ طلبتَه وغرضَه ، ولا يستغنى عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف فى باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء ، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء .

* * *

على أنّ ابن عبدربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نَظَرَ المختص ، بحيث يختار مايختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار فلا يقع منه فى باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صوابُ الرأى عند أهله ، لا ؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نَظَرَ الأديبِ الذى يروى النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأى فيها ، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأى والنظر والاختصاص ؛ انظر إليه فيما روى من حديث رسول صلى الله عليه وسلم مثلا ، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع ... له ما نقلَ من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك ، تجد منه ما تَعرِف وما تُنكر ، لم يغادر شيئاً وما تكذّبه ... ما يتناقض آخره وأوَّله ؛ ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث ... مجموعةَ المعارف العامة فى الأ... جامعُ أخبار ومؤلِّف نوادر ، جمع ماجمع وألف ما ألف ... الثقافة العربية العامة لعهد مؤلفها ... أخذ وما يدع ؛ ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين فى هذا

الفن من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة . على أن ذلك لا يَعنى أن ما جَمَع من مثل تلك الأحاديثِ وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن ، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل ، كما يقول أصحابُ المنطق .

* * *

ذلك هو موجز الرأى فى التعريف بهذا الكتاب وقيمتِه فيما عَرض له من أبواب العلم والأدب ؛ وبقى علينا أن نعرف المصادر التى استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة .

يقول ابن عبد ربه فى مقدمته : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيّرتُ جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنّ مالى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدرر كل كتاب ؛ وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . . . »

وهذا الذى يقوله المؤلف فى وصف كتابه ، يدعونا إلى السؤال : مِن أين اختار ابن عبد ربه مختاراته ؟ وماهى مصادره الأولى ؟ . . . انظر إليه تجده يروى عن الشيبانى ، والمدائنى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والعتبى ، والشعبى ، والسجستانى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرياشى ، والزيادى ، وابن سلام ، وابن الكلبى ، وغيرهم من علماء المشارقة ؛ وعن الخشنى ، وابن وضاح ، وبقىّ بن مخلد ، من علماء الأندلس ؛ فأىٌّ هؤلاء لقى ابنُ عبد ربه فأخذ عنهم شفةً إلى شفة ، وأيهم نَقل إليه من أخباره راويةٌ عن راوية ؟ . .

لم يَعرِض أحدٌ ممن ترجموا لابن عبد ربه ـ للحديث عن رحلةٍ له إلى المشرق ـ إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها فى كتاب « العقد » ولا نراها تصلح للاستدلال ؛ فلم يبقَ إلا أن صاحب العقد قد رَوَى من أخبار المشارقة ما نُقل إليه حيث هو فى مُقامه من قرطبة ؛ ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء ؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه فى الأندلس كما سنذكره بعد : الخشنى ، وبقى بن مخلد ، وابن وضاح ؛ وللأوّلَين منهم رحلة إلى المشرق ورواية .

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة متّصلةً لعهد ابن عبد ربه ،

وكان لها عند العلماء منزلة ومكان ؛ فليس ثمة مايمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أو قليلا بما كانت تضمُّ المكتبةُ العربية فى قرطبة من آثار المشارقة .

وقد قدَّمنا القولَ فى صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف فى باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرّد .

أما الجاحظ والمبرد فقد كان لهما نهج فى التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما فى الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلَّفاتهما فى المادة لا فى الطريقة وأما ابن قتيبة ؛ فان بينه وبين ابن عبد ربه مَشَابِهَ من وجوه ، حَمَلَتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان فى نهجه وفى تبويبه لاحقاً مقلِّداً ، بل قد غَلَا بعضهم فى الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة فنقلها نقلا إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير ؛ وإنه مما يقوِّى هذا الزعم ، تلك الشهرةُ العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خَلَتْ مكتبتُه من مؤلَّفاته ، ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غيرُ عيون الأخبار ، وابنُ عبد ربه غير ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميِّزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة فى الاستنتاج ، فلن يضير ذلك صاحبَ العقد شيئا ، ولن ينقص شيئا من قدر كتابه ؛ إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست مِلكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ولكنها تراث مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم .

. . . وليس معنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة ، أنه لم يأخذ عن غيرهم ؛ ولكن الذى نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهرَ دلالةً على نفسها ، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلُها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير ، إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب

* * *

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة ـ العـدد ٩٤ ـ ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : إن أمالى أبي على القالى كانت هى النواةَ الأولى التى بذرها أبو على فى بلاد الأندلس من علوم المشرق وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه . . . . . .

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » ، وأنه أول ما نُقل إلى المغاربة من علم المشرق . . .

وأرى هذا كله خطأ لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد كان مَقْدَم أبى على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهُر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبى على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه الأمالى بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموعَ محاضراته فى جامع قرطبة .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه « العقد » فى سنة ٣٢٢ على ما رجّحه ، وقدّرنا المدة التى أملى فيها أبو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يُدْفَع بأن العقد الفريد كان أسبقَ من الأمالى ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبى على ، وبأن كتابه على منهاجه .

وأما قوله إن كتاب الأمالى كان النواةَ الأولى من علم المشارقة فى الأندلس ، فينقضه ما كان معروفا قبل ذلك فى الأندلس من كتب القوم ، حتى روى ابن كثير فى تاريخه : أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن فى بيته من مؤلفات ابن قتيبة شيء (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، وكان مولد أبى على سنة ٢٨٨) ، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصرَ إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغانى لأبى الفرج فيشتريها بألف دينار . . .

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلةً لطلب

القرن الثالث ؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبى علىّ جديدا على أهل الأندلس فى أواسط القرن الرابع ، وأن يكون نواةً وقدوة ومنشِئَ مدرسةٍ يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد . . . .

* * *

ويتحدث ابن عبد ربه فى مقدمته عن « تأليف الاختيار وحسن الاختصار » فأىّ معنى لما يُذكر من حسن الاختصار ، فى هذا المقام ؟ أتُراه يعنى حسن الاختصار فى المجموع ، أو فى كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه وإنما كان يختصر فى جملة ما يروى من الأخبار بحيث لا يُثبت منها إلا ما تدعو الحاجةُ إليه ؟ أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد فى التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ . . .

أقول : هذا كتاب العقد بين أيدينا ، وقد نظرتُ فيه طويلا ، وعاودت النظر مرات فبدا لى من طول المراجعة أمرٌ لا بد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه فى تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات فى أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة فى أكثر من موضوعٍ واحد ؛ فإذا أنت حقَّقتَ النظر فى هذه الأخبار المكرَّرة فقلَّ أن تجد منها خبراً مرويًّا فى موضعين بحروفه على وجه واحد ، فثمة الحذف والزيادة والإبدال وليس هناك من سبب ـ فيما نرى ـ لهذا الاختلاف فى رواية خبر واحد فى كتاب واحد لمؤلف واحد ، إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف فى رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته ، ويؤدِّيها على الوجه البيانى الذى يراه ؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً ، وبالبسط والزيادة حيناً آخر ؛ . . . فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ « حُسن الاختصار » ؟ . . .

. . . ولقد يكون هذا الخلاف فى رواية خبر واحد نتيجةً لازمةً لاختلاف الرواة المنقول عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التى ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن لا ندرى حين يكون راوى الخبر فى الموضعين واحداً ، والكتاب المنقول عنه

واحداً كذلك ؟ . . .

أظن أنه يحق لى بازاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرةَ المتحرِّجة التى تفرض على مثله فى هذا المقام أن يلزم جانب الحرص فى المحافظة على نَصِّ ما يرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف فى رواية بعض الأخبار تصرُّفاً يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلا لانفراد ابن عبد ربه فى بعض ماورد فى كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها فى مختلف كتب الأخبار والنوادر ؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما التزمه صاحب العقد ونبَّه إليه فى مقدمته وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره .

فاذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ماقدّمنا من التعريف بمزاياه ، مرجعا لغويًّا يمكن الاستناد إليه فى شىء من التطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق والغرب .

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعُه رواةَ الكتاب نفسِه وكَتَبَتَه ونُسَّاخه ، ولكن ذلك إذا صحَّ فى قليلها لا يصح فى سائرها ؛ وقد نبَّهنا فى هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف ، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال .

* * *

بقى أن نسأل : لماذا قَصَر ابنُ عبد ربه كتابه على (أخبار المشارقة) وهو مَن هو علما وتحصيلا ومعرفة بآداب قومه ، وقُرطبةُ هى ماهى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟ . . .

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق .

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، محاولةً جريئةً لإقامة حكومة المغرب بازاء الحكومة العباسية فى بغداد ؛ ولقد حالفَ التوفيقُ عبدَ الرحمن

كثير مما أراد ، وأقام عرشا لبنى أمية فى الأندلس يتوارثه بنوه سيدا عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبةً لاتنى ؛ وكانت الوفود لاتفتأ ساعيةً بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديدٌ فى بغداد حتى يكون نَبَؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجمٌ فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغداد ؛ واتّخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علميا يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزوّد من معارفه ، وفيما كان من تطلُّع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة .

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى المشرق كلِّه ، منه نشأ وفيه نَمَا وَرَبا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجُّهم وقبلتُهم ، ولا يتمُّ تمامُ العالم منهم ـ عند الرؤساء وعند العامة ـ إلا أن يكون عليه مَشْرِقيًّا .

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا مَن يتزيَّد فى الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقصُّ من مشاهداته لديهم ومايروى من أخبارهم ـ كان هنالك فى ذلك العهد ... ...

... وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكانَ المرموق الذى تحتله مؤلفاتُهم وكتبهم ؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدَّمنا ـ كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكمَ خُطةً ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : ها أنا ذا ، وها هم أُولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ، فرحل المشرق إلى الأندلس فى كتابِ ابنِ عبد ربه ... !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلاقليلا منه ، لا أرى لذلك وجها سواه .

رحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع فى يد الصاحب بن عباد ... ملهوفا يلتمس فيه علمَ مالم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول

أسفا : « هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ! » . . . ثم دار الزمان وجدَّت الحوادثُ فى آثار العرب فأخذتهم بالسنين ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وتبعثرت المكتبة العربية فَخَلَتْ بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظلَّ محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسىّ القرطبى . . . !

هذا ، وقد كان كتاب العقد من بعدُ ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنويرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير حتى قل أن يخلو كتابٌ من كتب النوادر بعدُ إلا كان العقد مرجعه وخزانة علمه ، ولو أنى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بصيتهم وشهرتهم كل مذهب ـ لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء.

* * *

ولكن هذا الكتاب على ما قدمتُ من وصفه ومن خبره واحتفالِ العلماء به ، لم يسلم من عبث الأيام ، وعدا عليه ما عدا على كثير من تراثنا العربى فى الشرق والغرب ؛ فلم يصل إلينا إلا بعد ما تناولته أيدى العابثين بالمسخ والتشويه والحذف والزيادة ، حتى أوشك ـ بما دخل عليه ـ أن يفقد قيمته العلمية عند أهل البحث والنظر .

وكانت أولى طبعاته فى مصر سنة ١٢٩٣ هـ ، ومن هذه الطبعة كلُّ الطبعات التالية ؛ فهى صورة منها بما فيها من الغلط والتحريف والحشو والنقص ؛ ولم يحاول أحد منذ ذلك التاريخ أن ينظر فى هذه الموسوعة العربية نظر العالم المحقق فيخرجها لقراء العربية فى صورة أدنى إلى الكمال ؛ بلى ، قد حاول هذه المحاولةَ غيرُ واحد من أهل التحقيق ثم ارتدوا جميعاً على أعقابهم ، ومن هؤلاء مَن يُعَدُّ رأساً فى الآداب العربية ، منهم الأساتذة الأعلام أصحاب « مختار العقد » : المرحوم محمد الخضرى بك ، وعبد الخالق عمر بك ، وعبد العزيز خليل بك ، وعبد الحكيم محمد . انظر إليهم يقولون فى مقدمة المختار بعد كلام فى وصف العقد « . . . غير أنا رأينا فيه ثلاثة عيوب كادت تذهب بحسنه وتمحو الأثر المستفاد

الناس به : أما الأول فتحريف يكاد المعنى يضيع بسببه فى كثير من مواضعه ، حتى سمعنا من أديب كبير أن إصلاح العقد الفريد مما ليس فى مكنة إنسان ؛ ويُبَيِّنُ لك هذا أن تنظر إلى مثل هذه الجملة : «والفرح فى أهلك» ثم تعلم أنها حُرِّفت عن : والقدح فى الملك» ، وحينئذ يظهر لك صعوبة هذا الإصلاح حقيقة ... الخ» .

قلت : ولو أن الأمر اقتصر على مثل عبارة «الفرح فى أهلك ، والقدح فى الملك» لكان الأمر أهون مما قدّروا ...

وسمعتُ ممن لا أتهم أن المرحوم الأستاذ المرصفى ، شيخ أدباء الجيل ، همَّ مرة أن يقرأ العقد لتلاميذه ثم نكص ، إشفاقاً من مشقة تصحيحه ؛ فاذا كان هذا الخبر صحيحاً ، ولا أحسبه بعيداً من الصحة ، فان فيه الدلالة على مقدار ماعبثت الأيام بأصول هذا الكتاب ، وما يعترض سبيل تصحيحه من أهوال ...

* * *

قلت : إن فى النسخة التى بين أيدينا اليوم من العقد ما فيها من المسخ والتحريف والنقص والزيادة ؛ أما المسخ والتحريف فحسبي الإشارة إلى نوعهما فيما ذكرت قبلُ من قول أصحاب «مختار العقد» ؛ وأما النقص فان مواضعه ظاهرة فى هذه الطبعة بما زِيد فيها من العبارات والحروف بين العلامتين [ ] ؛ وأما الزيادة فحسب القارئَ منها مَثَلٌ واحدٌ أنبه إليه : فقد كانت وفاة ابن عبد ربه مؤلف العقد على التحقيق سنة ٣٢٨ ﻫ ؛ فمِن أين له أن يترجم فى أخبار الخلفاء وتواريخهم للراضى والمتقى ، والمستكفى ، والمطيع ، وكلهم بعد وفاة ابن عبد ربه ؟

* * *

ذلك هو العقد الفريد كما كان ، وها هو ذا اليوم بين يدى قارئه ؛ لا أزعم أنى بلغتُ به كل ما أردتُ ، ولكنى بذلتُ له كل ما أطقت ؛ وحسبي أن أجد بين يدى قراء العربية اليومَ نسخةً من هذه الموسوعة الجامعة أقربَ إلى الكمال والصحة ، لأشعر بالرضا إلى ما بذلت [illegible] وما أنفقتُ من عافية ؛ ولا أحاول أن أصف عملى بأكثر مما يصف

نفسه ؛ ولى من حُسنِ تقدير القراء فيما أحسنْتُ وواسع مغفرتهم فيما قصَّرتُ ما يمنعنى من استجداء الثناء أو تقديم المعاذير ؛ والله حسبى !

* * *

وإذ كان العقد على ماقدّمت من قيمته لكل باحث ، كان لابدَّ لتمام نفْعِه أن يكون له فهارس ترشد إلى أبوابه وتهدى إلى مسالكه ؛ فعُنِيتُ بأن أقسّم فهارسه إلى خمسة أنواع :

١ — فهرس الموضوعات ، وقد جعلته ملحقاً بكل جزء من أجزائه .

٢ — فهرَس الأعلام ، ويشمل كل ما يضم العقد بين دفتيه من الأسماء والكُنَى ، من غير التفاتٍ إلى مراتبهم العلمية .

٣ — فهرس القوافى .

٤ — فهرس القبائل والبطون والأماكن والبلدان والطوائف .

٥ — فهرس أنصاف الأبيات .

وهذه الفهارس الأربعة الأخيرة ملحقة بالجزء الأخير من الكتاب ، مرتبة على حروف الهجاء .

وأحسب أنه كان يسعنى أن أجعل للأمثال فهرساً سادساً ، لولا أنى رأيتها مجموعة فى كتاب واحد من جواهر العقد ، بحيث لايصعب على القارئ أن يهتدى منها إلى مايريد من غير احتياج إلى فهرس يَهدى إليها .

* * *

وقد ارتضيتُ أن أجعل الكتاب (فى ثمان مجلدات) إذ كان العقد ـ على أنه كتاب العالم والأديب والمؤرخ ـ مما لايستغنى عنه طالب القصص والنوادر ، ومُلتمِسُ الفكاهات والمُلَح ، ومتتبِّعُ الأخبار والطُّرَف ؛ ومثل هذا الكتاب الذى يُلتَمس للرياضة واللهو ، ينبغى أن يخفَّ محمله ، ليسهل على صاحبه فى السفر والحضر ، وفى الحديقة والمنزل .

* * *

... ويبقى أمر لابد من التنبيه إليه ، ذلك أنى آثرتُ تسمية الكتاب مالا

الذى يعرفه به أكثر قراء العربية اليوم فى مختلف أقطارها ؛ وهو « العقد الفريد » وإنما سمّاه مؤلّفه « العقد » فقط ، فاستحدث المتأخرون هذه الصفة « الفريد » . وُفّق إلى هذا الرأى المستشرقُ الألمانى بروكلمان (Brockelmann) ، وتابعه بعضُ الباحثين من كتاب العربية ويرجّح الأستاذ جبرائيل سليمان جبُّور فى كتابه (ابن عبد ربه وعقده) أن زيادة « الفريد » فى اسم الكتاب وقعتْ فيما بين سنتى ٦٥٢ ـ ٨٥٠ هـ ، وقد استند فى رأيه ذلك إلى دلائل حقيقة بالتقدير والنظر ؛ فمن شاء فليرجع إليها ثمة (ص ٢٩ ـ ٣١) فان فى ذكرها هنالك غناء وكفاية .

ترجمة المؤلف

٢٤٦ هـ — ٣٢٨ هـ

أرانى قد ذكرتُ عن الكتاب ما وسِعَنى من غير أن أعرّف بصاحبه على أنى أحسب القارئ قد يجد فى بعض ماذكرتُ ماقد يغنيه عما بقى ؛ وفى الكتابِ بعدُ مايدلُّ على صاحبه دلالة لاتحتاج إلى تعريف ؛ وليس ابن عبد ربه مجهولا لقراء العربية بحيث يلزمنى التعريف به ، وليس الحديث عن تاريخه من السهولة بحيث يُغنى فى درْسه صفحاتٌ فى مقدمة كتاب ؛ على أنى مُثبِتٌ هنا بعضَ خبره على إيجاز ، تفادياً من النقص ، وتوسطاً بين المنزلين .

نســبه :

هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القُرطُبى الأندلسى ، وكان جده سالم مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية .

نشــأته :

نشأ ابن عبد ربه بقرطبة حاضرة الأندلس لعهد بنى مروان ، وكان مولده فى العاشر من رمضان سنة ٢٤٦ هـ ، ولم تعرف عنه رحلة إلى غير بلاد الأندلس ، وعاصر من أمراء بنى مروان : محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والمنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) ، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، وعبد الرحمن الناصر بن محمد (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ومات فى إمارته ؛ وله فى هؤلاء الأمراء الأربعة مدائح ذكر بعضها فى كتابه ؛ ويظهر أنه كان مختصاً بهم محظيًّا لديهم ؛ وله فى عبد الرحمن الناصر الأرجوزة الشهيرة التى فصّل فيها مغازيه مرتّبة على السنين إلى سنة ٣٢٢ ، وقد أوردها فى كتاب العسجدة الثانية فى أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم (انظر الجزء الخامس) .

ولا يُعرف شىء من تاريخ ابن عبد ربه فيما عدا أنه كان فى شبابه لاهيا ولوعاً بالغناء ، ولكن ذلك لم يمنعه من التحصيل والدرس ، حتى عُدّ من فقهاء الأندلس ، وله شعر أيام صبوته رجع عنه فى أخريات وعارضه بقصائد فى الزهد سمّاها « الممحّصات »

شيوخه :

ويذكر المؤرّخون من شيوخ ابن عبد ربه ثلاثة : بقىّ بن مخلد بن يزيد القرطبى (توفى سنة ٢٧٦ هـ) ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى القرطبى (توفى سنة ٢٨٦ هـ) ومحمد بن وضاح وكان للأولين رحلة إلى المشرق ورواية وتصانيف مشهورة .

خُلقه وصفته :

لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من سيرة ابن عبد ربه تدل على خلقه وصفته ، إلا ماقدمنا من حديث لهوه وصبوته فى شبابه ، ثم توبته وزهده من بعد ، ويمكننا أن نستنبط من دراسة أدبه أنه كان غيوراً ، ولوعاً بالمنافسة ، معتداً بنفسه ، ميّالاً إلى المزاح والنادرة جريئا على البذاء ، يبدو ذلك من ... ومن نقداته وتعقيبه على كثير مما روى من أخبار العلماء ، وفى العقد كثير من ذلك .

أما صفته الجسدية فلا نجد مايقرّبها إلى خيالنا إلا قصة أوردها المُقرى عن حديث كان بين ابن عبد ربه وأبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، يستفاد منها أن ابن عبد ربه كان دميما ، آدَرَ ، قريبَ الخطو ، يُباعد مابين رجليه ، هُزْأة .

مؤلفاته :

لا يُعرف لابن عبد ربه كتابٌ غير العقد ، وديوانِ شعر مفقود ، وذَكَر صاحبُ كشف الظنون أن له كتابا آخر سمّاه « اللباب فى معرفة العلم والآداب » .

ولا نعرف على التحقيق متى ألف ابنُ عبد ربه كتاب « العقد » وهو قد عُمِّر اثنتين وثمانين سنة ، ولكنا نرجح أنه فرغ من تأليفه قريباً من سنة ٣٢٢ ﻫ أى قبل موته بست سنين تقريبا ، يرشدنا إلى ذلك أرجوزته فى مغازى عبد الرحمن الناصر ، وقد فصَّل فيها أخباره ووقائعه إلى ذلك التاريخ ، فلو أن ابن عبد ربه لم يكن قد فرغ من تأليف كتابه فى سنة ٣٢٢ لوجد مجالا للزيادة فى هذه الأرجوزة حتى يبلغ بها ما يشاء من تاريخ أميره ، وقد كان فى أعماله بعد هذا التاريخ ما كان حقيقا بالإشادة والتنويه .

وفاته :

وأصيب ابن عبد ربه بالفالج فى آخر سنيه ، وتوفى يوم الأحد لثنى عشرة ليلة بقين من جمادى الأولى سنة ٣٢٨ ﻫ ، ودفن يوم الاثنين فى مقبرة بنى العباس بقرطبة .

رحمه الله وأثابه !　　　　محمد سعيد العريان

شبرا فى مساء الاثنين (*) { ١١ من شوال سنة ١٣٥٩ ﻫ / ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٠ م }

(*) أثبتنا هذه المقدمة للطبعة الأولى فى هذا ... وقد رأينا أن نبقى عليها فى هذه الطبعة كما

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

* قال أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى :

الحمد لله الأوّل بِلا ٱبتداء ، الآخرِ بلا ٱنتهاء ، المنفردِ بقُدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهاتُ ، ولا تنعته الصفات ، ولا تُدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادئ بالإحسان ، العائد بالأمتنان ، الدّالّ على بقائه بفناء خَلقه ، وعلى قدرته بعجز كُلّ شيء سواه ، المغتفر إساءة المذنب بعفوه ، وجهل المسيء بحلمه ، الذى جعل معرفتَه ٱضطراراً ، وعبادتَه اختياراً ، وخلق الخَلق من بين ناطق مُعترف بوحدانيته ، وصامتٍ متخشّع لربوبيته ، لا يَخرج شيء عن قدرته ، ولا يَعزُب عن رؤيته ، الذى قَرن بالفضل رحمته وبالعدل عذابَه ، والناسُ مدينون بين فضله وعذابه[1] آذنون بالزوال ، آخذون فى الانتقال من دار بلاء إلى دار جزاء .

أحمده على حِلمه بعد عِلمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، فإنه رضِى الحمدَ شكرا[2] لجزيل نعمائه ، وجليل آلائه ، وجعله مفتاحَ رحمته ، وكِفاء نعمته ، وآخر دعوى أهلِ جنته ، بقوله عز وجل : ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وصلى الله على نبيه الكريم ، الشافع المقرَّب ، الذى بُعث آخراً واصطُفِى أوّلا ، وجَعلنا من أهل طاعته ، وعُتقاء شفاعته . وبعد :

— فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أُمة قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايتَه وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين ، وٱختيار جواهرِ ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى ٱحتاج المختصر منها إلى ٱختصار ، والمُتخيَّر إلى ٱختيار ، ثم إنى رأيت

---

(١) فى بعض الأصول « وعدله »

(٢) فى بعض الأصول « ثمنا »

آخر كل طبقة وواضعى كل حكمة ومؤلفى كل أدب أعذبَ ألفاظاً ، وأسهل بِنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة ، من الأوّل ، لأنه ناقض[١] متعقِّب ، والأول بادئ متقدم . فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حَكما عادلا قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت زكية التربة ، يانعة الثمرة . فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرثٍ من النبوة ومنهاج من الحكمة ، لا يستوحش صاحبُه ، ولا يضلُّ من تمسك به .

وقد ألفت هــذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيَّر جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهرَ الجواهرِ ولُباب اللباب وإنّ ما لى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرْش لدرر[٢] كل كتاب ، وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه / وقد قالوا : اختيار الرجلِ وافِدُ عقلِه .

وقال الشاعر :

قد عرَفناك باختيارِك إذ كا * نَ دليلاً على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : عقولُ الناس مُدَوّنة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حُسن اختيارهم . فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعانى وجواهر الحِكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم قَرنتُ كل جنس منها إلى جنسه فجعلته باباً على حِدَته ، ليستدلّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيرِه من كل باب . وقصدتُ من جملة الأخبار وفنون الآثار إلى أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ؛ وألطفها معنى ، وأجزلها لفظاً ، وأحسنِها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة ، آخِذاً بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسنَ ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

---

(١) فى بعض الأصول « ناكص » .
(٢) فى بعض النسخ « لصدر » ، وفى بعض آخر « لدور » .

وقال ابن سيرين: العلم أكثرُ من أن يُحاطَ به، فخذوا من كل شيء أحسنَه. وفيما بين ذلك سقطاتُ[1] الرأى وزلّل القول. ولكل عالم هَفوة ولكل صارم نَبوة.

وفى بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال ولم يبرأ أحدٌ من النقصان.

وقيل للعتّابى: هل تعلم أحداً لا عيبَ فيه؟ قال: إنّ الذى لا عيبَ فيه لا يموت أبدا، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة.

وقال العتّابى: مَن قرض شعراً أو وضع كتاباً فقد آستهدف للخصوم وآستشرف للألسن، إلا عند مَن نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى، وقليلٌ ما هم.

وحذفت الأسانيدَ من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقيل والتطويل، لأنها أخبار مُمتعة وحكم ونوادر، لا ينفعها الإسناد بآتصاله ولا يضرها ما حُذِف منها. وقد كان بعضُهم يَحذف إسناد الحديث من سنّة مُتّبَعةٍ وشريعةٍ مفروضة، فكيف لا يحذفه من نادرة شاردة ومَثَل سائر وخبر مستظرف.

سأل حفصُ بن غياث الأعمشَ عن إسناد حديث. فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال: هذا إسناد.

وحدّث ابن السماك بحديث، فقيل له: ما إسناده؟ قال: هو من المرسلات عُرْفا.

وحدّث الحسن البصرى بحديث، فقيل له: يا أبا سعيد، عمّن؟ قال وما تصنع بـ «عمّن» يابن أخى؟ أما أنت فنالتْك موعظته، وقامت عليك حجتُه.

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتُها غير متفرّقة فى فنون الأخبار، ولا جامعة لجل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافيا جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامّة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسُّوقة؛ وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تُجانس الأخبار فى معانيها وتوافقه فى مذاهبها، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أنّ لمغربنا على قاصيته،

(١) فى بعض الأصول «سقطة» وفى سائرها «سقط».

وبَلدِنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور . وسميته كتابَ « العقد الفريد » لما فيه من مختلِف جواهر الكلام ، مع دقة المَسلك وحسن النظام .

وجزّأته على خمسة وعشرين كتاباً كل كتاب منها جزآن ، فتلك خمسون جزءاً فى خمسة وعشرين كتابا ، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد .

فأولها كتاب اللؤلؤة فى السلطان. ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها . ثم كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد . ثم كتاب الجمانة فى الوفود . ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك . ثم كتاب الياقوتة فى العلم والأدب . ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال . ثم كتاب الزمرّدة فى المواعظ والزهد . ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى . ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب . ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم كتاب المجنّبة فى الأجوبة . ثم كتاب الواسطة فى الخطب . ثم كتاب المجنّبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة . ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم . ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة . ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم . ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشّعر ومقاطعه ومخارجه . ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعِلل القوافى . ثم كتاب الياقوتة الثانية فى عِلْم الألحان واختلاف الناس فيه . ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن . ثم كتاب الجمانة الثانية فى المتنبئين والمُمرورين والبخلاء والطفيليين . ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان . ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب . ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والمُلَح .

⑤

كِتَابُ اللُّؤلُؤَة
فِي السُّلطَانْ

فرش الكتاب

السلطان زِمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقِوام الحُدود والقطب الذى عليه مدار [الدين و[1]] الدنيـا . وهو حِمَى الله فى بلاده وظِلُّه الممدود على عباده ، به يَمتنع حريمُـهم ، ويَنتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

الحكماء

قالت الحكماء : إمام عادل ، خير من مَطر وابل . وإمام غَشوم ، خير من فِتنة تدوم . ولَمَـا يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يَزَع بالقرآن .

وقال وهب بن مُنَبِّه : فيما أنزل الله على نبيه داودَ عليه السلام : إنى أنا الله مالك الملوك ، قُلوب الملوك بيدى . فمن كان لى على طاعـة جَعلت الملوك عليهم رحمة ، ومن كان لى على مَعصية جعلت الملوك عليهم نقمة .

فحق على من قلّده الله أزِمّةَ حُكمه ، وملّكه أمورَ خَلْقه ، واختصه بإحسانه ، ومَكّن له فى سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيّته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه اللهُ من الكرامة ، وأجرَى عليه من أسباب السعادة .

قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

النبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : عدلُ ساعةٍ فى حُكومة خيرٌ من عبادةِ ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم . كُلُّكم راعٍ ، وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته .

وقال الشاعر :

فَكُلُّكُمُ رَاعٍ وَنَحْنُ رَعِيَّةٌ ٭ وكلٌّ يُلاقِي[2] رَبَّهُ فيُحاسِبُهْ

ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة ، وتَحجُّرُ العُـذر عليهم[3] ، وإلزامُ

---

(١) التكملة من نهاية الأرب .
(٢) فى بعض الأصول « سيلق » .
(٣) أى تضييق العذر عليهم .

اللائمة لهم وربّ مَلوم لاذنب له . ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة إذ كان رضى جملتها وموافقةُ جماعتها من المُعجز الذى لا يُدرَك والمُمتنع الذى لا يُملك .

ولكلٍّ حصتُه من العدل ، ومنزلتُه من الحكم . فمن حقّ الإمام على رعيته أن يقضى عليهم بالأغلب من فعله والأعمّ من حكمه ، ومن حق الرعيّة على إمامها حُسنُ القبول لظاهر طاعتها وإضرابُه صفحاً عن مكاشفتها ، كما قال زياد لما قَدِم العراق والياً عليها : أيها النـاس ، قد كانت بينى وبينكم إِحَن ، فجعلت ذلك دَبْرَ أُذنى وتحت قدمى ، فمن كان مُحسناً فليزددْ فى إحسانه ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السّل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتِك له سِتراً حتى يُبدى صفحتَه لى .

لابن عمر

وقال عبد الله بن عمر : إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان الإمام جائراً فله الوِزْرُ وعليك الصبر .

لكعب الأحبار

وقال كعب الأحبار : مَثل الإسلام والسلطان والناس : مَثل الفُسطاط والعمود والأوتاد . فالفسطاط الإسلام ، والعمود السلطان ، والأوتاد الناس . ولا يصلح بعضها إلا ببعض .

وقال الأفوه الأوديّ :

لا يَصْلُح الناسُ فوْضَى لاسَرَاة لهم ٭ ولا سَرَاة إذا جُهّالهُم سـادُوا
والبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلا له عَمَـدٌ ٭ ولا عِمـادَ إذا لم تُرْسَ أَوْتَادُ
وإنْ تَجَمَّع أوتادٌ وأعمِـدةٌ ٭ يوماً فقدْ بَلَغُوا الأمْرَ الذى كادُوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك تعالى : ﴿ يأيُّها الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُول وأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

وقال أبو هُريرة : لما نَزلت هذه الآية أُمرنا بطاعة الأئمة . وطاعتُهم من طاعة الله ، وعصيانُهم من عصيان الله .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَن فارق الجماعة أو خَلع يداً من طاعة مات مِيتةً جاهليّة .

وقال صلّى الله عليه وسلم : الدينُ النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة . قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأُولى الأَمر منكم.

فنُصْح الإمام ولزومُ طاعته فرضٌ واجب وأمرٌ لازم ، ولا يتم إيمانٌ إلاّ به ، ولا يثبت إسلام إلا عليه

مما وصى به العباس ابنه حين قدمه عمر

الشعبي عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال لى أبى : أرى هذا الرجل — يعنى عمر بن الخطاب — يَستفهمك ويقدِّمك على الأَكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وإنى مُوصيك بخلال أربع : لا تُفْشِيَنَّ له سرًّا ، ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كذباً ، ولا تَطْوِعنه نصيحة ، ولا تغتابَنَّ عنده أحدا .

قال الشعبي : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف . قال : إى والله ، ومن عشرة آلاف .

لرجل من الهند ينصح ملكا

وفى كتاب للهند[1] : أنّ رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال : أيها الملك ، إنّ نصيحتك واجبة فى الصغير الحقير والكبير الخطير ، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك ، واحتمالِك ما يَشُقُّ[2] موقعُه [من الأسماع والقلوب[3]] فى جَنْب صلاح العامة وتلافى الخاصة ، لكان خُرقاً منى أن أقول ؛ ولكنا إذا رجعنا إلى أنّ بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفُسَنا متعلقة بنفسك ، لم نجد بدًّا من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلنى ذلك ، فإنه يقال : مَن كَتم السلطانَ نصيحتَه ، والأَطباء مرضَه ، والإخوانَ بَثَّه[4] ، فقد أخلّ بنفسه ؛ وأنا أعلم أنّ كل كلام يكرهه سامعُه لا يتشجّع عليه قائلُه ، إلا أن يثق بعقل المَقُول له ؛ فإنه إذا كان عاقلا احتمل ذلك ؛ لأَنه

(١) يريد « كليلة ودمنة » وهذا ما يعنيه ابن عبد ربه فى أكثر من موضع من العقد .

(٢) فى عيون الأخبار « ما يسوء » .

(٣) التكملة من عيون الأخبار

(٤) فى بعض الأصول « نثه » والبث والنث بمعنى . وقيل : النث أن تنشر حديثاً كتمه أولى

ما كان فيه من نَفْع فهو للسامع دون القائل . وإنّك أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى وتصرُّفٍ فى العلم ، ويُشجعنى ذلك على أن أخبرك بما تكره ، واثقاً بمعرفتك[1] نصيحتى لك وإيثارى إيّاك على نفسى .

ابن عتبة ينصح الوليد

وقال عمرو بن عُتبة للوليد حين تغيّر الناسُ عليه : يا أمير المؤمنين ، إنه يُنطقنى الأُنسُ بك ، وتُسكتنى الهيبة لك[2] ، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك ، أفأسكتُ مُطيعاً أم أقولُ مشفقا ؟ قال : كلٌّ مقبول منك ، ولله فينا عِلمُ غيبٍ نحن صائرون إليه . فقُتل بعد ذلك بأيام .

لابن صفوان فى خالصة السلطان

وقال خالد بن صَفوان : مَن صحب السلطانَ بالصحّة والنصيحة أكثرُ عَدُوًّا ممن صحبه بالغش والخيانة ؛ لأنه يجتمع على الناصح عدوُّ السلطانِ وصديقُه بالعداوة والحسد ، فصديقُ السلطانِ يُنافسه فى مَرتبته ، وعدوُّه يُبغضه لنصيحته .

ما يصحب به السلطان

لابن المقفع فى خادم السلطان

قال ابن المقفع : ينبغى لمن خَدم السلطان ألا يغترّ به إذا رضى ولا يتغيّر له إذا سَخط ، ولا يَستثقل ما حمَّله ، ولا يُلحف فى مسألته . وقال أيضاً : لا تكن صُحبتُك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم . فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك ، حَذِرًا إذا قرّبوك ، أميناً إذا آئتمنوك ذليلا إذا صَرَموك ، راضياً إذا أسخطوك ، تعلّمهم وكأنك متعلّم منهم ، وتؤدّبهم وكأنك متأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر . وإلا فالبعدَ منهم كلَّ البعد ، والحذرَ منهم كل الحذر .

وقال المأمون : الملوك تتحمّل كل شىء إلا ثلاثة أشياء : القَدحَ فى الملك ، وإفشاء السر ، والتعرُّضَ للحَرم .

وقال ابن المقفع : إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له فى كل كلمة ؛ فإنّ ذلك يُوجب الوحشةَ ويُلزم الانقباض .

(١) فى بعض الأصول « بمعرفة » .
(٢) العبارة فى عيون الأخبار والوزراء والكتاب للجهشيارى مع خلاف .

وقال الأصمعي : توصلتُ بالمُلَح وأدركتُ بالغريب .

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك : إنما السلطان سوق ، فما نفق عنده حُمِل إليه .

وصاة أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر

ولما قَدِم معاوية من الشام ، وكان عمر قد استعمله عليها ، دخل على أمه هند ؛ فقالت له : يابُنَيّ ، إنه قلما ولدت حُرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه أحببتَ ذلك أم كرهتَه . ثم دخل على أبيه أبي سفيان ؛ فقال له : يا بنيّ ، إنّ هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفَعَهم سَبْقُهُم وقصّر بنا تأخُّرنا ، فصِرنا أتباعاً وصاروا قادة ؛ وقد قلّدوك جسيمًا من أمرهم ؛ فلا تخالفن أمرهم ، فإنك تجرى إلى أمدٍ لم تبلغه ، ولو قد بلغتَه لتنفَّسْت[1] فيه .

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ .

لأبرويز ينصح صاحب بيت ماله

وقال أبَرْويز لصاحب بيت المال : إني لا أعذرك في خيانة درهم ، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف ؛ لأنك إنما تَحقن بذلك دمك وتُقيم أمانتك ، فإنك إن خُنت قليلا خنت كثيرا . واحترس من خصلتين : النُّقصان فيما تأخذ ، والزيادةِ فيما تعطى ؛ واعلم أني لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والعُدّة[2] على العدوّ ، إلا وأنت عندي آمَنُ من موضعه الذي هو فيه ، وخواتمه التي هي عليه ، فحقّق ظني باختياري إياك أحقق ظنَّك في رجائك إياى ؛ ولا تتعوّض بخير شرّا ، ولا برفعة ضَعة ، ولا بسلامة ندامة ، [ولا بأمانة خيانة][3] .

ليزيد بن معاوية ينصح سلما حين ولاه خراسان

ولما ولّى يزيد بن معاوية سَلمَ بن زياد خُراسانَ قال له : إنّ أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتُك صغيرا ؛ فلا تتكلنّ على عُذر مني فقد اتكلتُ على كفاية منك . وإياك مني قبل أن أقول إياى منك ؛ فإن الظن إذا أخلف مني فيك أخلف منك فيّ ؛ وأنت في أدنَى حظك فاطلُب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا تريحن نفسك .

(١) لتنفست فيه : أي استرحت عنده .

(٢) في الأصول « القوة » وما أثبتناه رواية عيون الأخبار .

(٣) التكملة من عيون الأخبار .

لعمر بن الخطاب ومعاوية حين قدم عليه الشام

قال يزيد : حدّثنى أبى أنّ عمر بن الخطاب لما قَدِم الشام قدم على حِمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقّاهما معاوية فى موكب ثقيل ، فجاوزَ عمرَ معاوية حتى أُخبر به ، فرجع إليه . فلما قرُب منه نزل إليه ، فأعرض عنه ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلاً . فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبتَ الرجل . فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية ، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ولم ذاك ؟ قال : لأنا فى بلدٍ لا نَمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بُدّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان ؛ فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . فقال : لئن كان الذى تقول حقا فإنه رأىُ أريب ؛ وإن كان باطلا فإنها خُدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف : لَحسَنٌ ما صَدَر هذا الفتى عما أوردته فيه ! فقال : لِحسْن موارده جَشَّمناه ما جشّمناه .

الربيع الحارثى فى حضرة ابن الخطاب

وقال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنت عاملاً لأبى موسى الأشعرى على البَحْرين . فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقُدوم عليه هو وعُمّاله وأن يستخلفوا مَن هو مِن ثقاتهم حتى يرجعوا . فلما قدِمْنا أتيتُ يرفأ[1] ، فقلت : يايرفأ ، ابنُ سبيلٍ مُسترشد ، أخبرنى أىّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرى فيها عُمّاله ؟ فأومأ إلى الخشونة . فأخذت خُفَّين مطارَقين[2] ، ولبست جُبة صوف ، ولُثت رأسى بعمامة دَكْناء . ثم دخلنا على عمر ، فصفّنا بين يديه وصعّد فينا نظره وصوّب ، فلم تأخذ عينُه أحداً غيرى ، فدعانى ؛ فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثى . قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين . قال : فكم تُرزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم . قال : كثير ! فما تصنع بها ؟ قلت : أتقوّت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لى ، فما فَضَل منها فعَلى فقراء المسلمين . فقال : لابأس ، ارجع إلى موضعك ؛ فرجعت إلى موضعى من الصف . ثم صعّد فينا وصوّب ،

(١) يرفأ : غلام عمر بن الخطاب .

(٢) مطارقين : قد أطبق نعل على نعل ثم خرزتا .

فلم تقع عينه إلا عليّ ، فدعاني ؛ فقال : كم سِنُوك ؟ فقلت : ثلاث وأربعون سنة . قال : الآن حين استحكمْت . ثم دعا بالطعام ، وأصحابي حديثُو عهد بليّن العيش وقد تجوعت له ، فأُتيَ بخبز يابس وأكسار بعير[1] ، فجعل أصحابي يعافون ذلك ، وجعلت آكل فأُجيد الأكل . فنظرتُ فإذا بِهِ يلحظني من بينهم ، ثم سبقتْ مني كلمة تمنيت أني سُخْت في الأرض ولم ألفِظ بها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمدتَ إلى طعام هو ألْيَنُ من هذا . فزجرني وقال : كيف قلتَ ؟ قلت : أقول : لو نظرتَ يا أمير المؤمنين إلى قُرتِك من الطحين فيُخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ، ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتُؤتى بالخبز ليّنا وباللحم غريضا . فسكَّن من غَربه وقال : هذا قصدتَ ؟ قلت : نعم . قال : ياربيع ، إنا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صلائق وسبائك وصِناب ، ولكني رأيت الله تعالى نَعى على قوم شهواتِهم فقال : ﴿أذْهَبْتمْ طَيِّباتِكُمْ في حَياتِكُمُ الدُّنْيا واسْتَمْتَعْتم بِها﴾ ثم أمر أبا موسى أن يُقِرّني وأن يَستبدل بأصحابي !

ابن عبد ربه يفسر غريب الخبر

قوله « لثها على رأسي » . يقال : رجل ألوث ، إذا كان شديدا ، وذلك من اللّوث ؛ ورجل ألوث ، إذا كان أهوج ، مأخوذ من اللُّوثة . يقال : (لثت عمامة على رأسي) يقول : أدرتها بعضها على بعض على غير استواء .

وقوله « صلائق » هي شيء يعمل من اللحم ، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى ، يقال : صلقت اللحم ، إذا طبخته ، وصلقته إذا شويته .

وقوله « غريضا » يقول طريا . يقال : لحم غريض ، تراد به الطراوة قال العتابي :

إذا ما فاتني لحم غـريض * ضربت ذراع بكري فاشتويتُ

و « سبائك » يريد الحُوّارى من الخبز ، وذلك أنه يُسبك فيؤخذ خالصه ، والعرب تسمى الرقاق : السبائك .

(١) في بعض الأصول « وأكسار بغير إدام » .

و «الصناب» طعام يؤخذ من الزبيب والخردل ، ومنه قيل للفرس : صِنابِى إذا كان فى لونه حمرة . قال جرير :

تُكَلِّفُنِى مَعايِشَ آلِ زَيْدٍ ٭ ومَنْ لِى بِالْمُرَقَّقِ والصِّنابِ

وقوله : «أكسار بعير» فالكِسْر والقصْل والجِزْل : العظم يفصل ما عليه من اللحم . وقوله «نعى على قوم شهواتهم» أى عابهم بها ووبّخهم .

زياد أول من استن ترك السلام على قادم عند السلطان

وبما يُصحب به السلطان : ألا يُسَلَّم على قادم بين يديه ، وإنما استَنّ ذلك زياد ابن أبيه ؛ وذلك أن عبد الله بن عباس قَدِم على معاوية وعنده زياد ؛ فرحّب به معاوية وألطفه وقرّب مجلسَه ولم يكلّمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال : ما حالك أبا المُغيرة ! كأنك أردتَ أن تُحدث بيننا وبينك هجرا . قال : لا ، ولكنه لا يُسَلّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين . فقال له ابن عباس : ماترك الناسُ التحية بينهم بين يدى أمرائهم . فقال له معاوية : كُفّ عنه يابن عباس ، فإنك لا تشاء أن تغلِب إلا غَلَبْت .

ترك أبي مسلم السلام على المنصور بحضرة السفاح

دخل أبو مسلم على أبى العباس وعنده المنصور . فسلم على أبى العباس . فقال له : ياأبامسلم ؛ هذا أبو جعفر ! فقال له : ياأمير المؤمنين . هذا موضع لا يُقضَى فيه إلا حقك !

معاوية وابن العاص بين يدى عمر حين مقدمهما من الشام ومصر

أبو حاتم عن العتبى قال : قَدِم معاوية من الشام ، وعمرُو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ؛ فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما ، إلى أن اعترض عمرٌو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية : أَعَمَلِى تَعيب وإلىّ تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأُخبره عن عملك ! قال عمرو : فعلمتُ أنه بعملى أبصر منى بعمله ، وأنّ عمر لا يدع أولَ هذا الحديث حتى يصير إلى آخره ؛ فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعتُ يدى فلطمتُ معاوية . فقال عمر : تالله ما رأيت رجلا أسفهَ منك ! قُم يا معاوية فاقتصّ منه . قال معاوية : إن أبى أمرنى ألاّ أقضى أمراً دونه . فأرسل عمر إلى أبى سفيان . فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية . فقال : لهذا بعثت إلىّ ؟ أخوه وابن عمه ؛

وقد أتى غيرَ كبير ، وقد وهبتُ ذلك له .

لبعضهم فى تلمس الحيلة لنصيحة السلطان

وقالوا : ينبغى لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحةً وإن آستثقلها ، وليكن كلامه له كلامَ رِفق لا كلام خُرق ، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يُواجهه بذلك ولـكن يضرب له الأمثال ، ويُخبره بعيب غيره ليعرف عيبَ نفسه .

وقالوا : من تعرّض للسلطان آزدراه ، ومن تطامن له تخطّاه . فشبهوا السلطانَ فى ذلك بالريح الشديدة التى لا تَضُر بما لانَ وتمـايلَ معها من الحشيش والشجر ، وما آستهدف لهـا قصمتْه . قال الشاعر :

إنّ الرّياح إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ ۝ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يَعْبَأْنَ بالرَّتَمِ (١)

وقالوا إذا زادك السلطان إكراماً فزِده إعظاما ، وإذا جعلك عبداً فآجعله ربًّا .

لشبيب فى مسايرة السلطان

وقال شبيب بن شيبة : ينبغى لمن سـاير خليفة أن يكون بالموضع الذى إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شىء لم يحتج إلى أن يلتفت ، ويكون من ناحيـة إذا التفت لم تستقبله الشمس .

وزير الهند بين الملك والملكة

وقرأت فى كتاب للهند أنه أهدى لملك ثياب وحَلى ، فدعا بامرأتين له ، وخير أحظاهما عنده بين اللباس والحلى . وكان وزيره حاضراً فنظرت المرأة كالمشيرة له ، فغمزها باللباس تغضينا بعينه ، فلحظه الملك . فاختارت الحِلْية لئلا يفطن للغمزة وصار اللباس للأخرى . فأقام الوزير أربعين سنة كاسرا عينه لئلا تَقَرّ فى نفس الملك ، وليظن أنها عادة وخِلْقة .

اختيار السلطان لأهل عمله

لابن هبيرة يوصى مسلم بن سعيد حين وجهه إلى خراسان

لمـا وجّه عُمر بن هُبيرة مُسلم بن سعيد إلى خُراسان قال له : أوصيك بثلاثة : حاجبِك ، فإنه وجهك الذى به تلقى الناس : إن أحسن فأنت المحسن ، وإن أساء فأنت المسىء ؛ وصاحب شرطتك ، فإنه سوطُك وسيفك : حيث وضعتَهما فأنت

(١) الرتم : نبت من دق الشجر يشبه لدقته بالرتم ، وهى الخيوط .

وضعتَهما ؛ وعُمّال القَدْر[1] قال : وما عمال القدر ؟ قال : أن تختار من كل كورة رجالا لعملك ، فإن أصابوا فهو الذى أردت ، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب .

اختيار ابن أرطاة بين إياس والقاسم

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة : أن آجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشنى[2] فوَلِّ القضاء أنفذهما ؛ فجمع بينهما ، فقال له إياس : أيها الرجل ، سَلْ عنى وعن القاسم فقيهَى البصرة : الحسنَ وابن سيرين — وكان القاسم يأتى الحسنَ وابنَ سيرين وكان إياس لا يأتيهما — فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقهُ منى وأعلم بالقضاء ؛ فإن كنت كاذبا فما ينبغى أن توليني ، وإن كنتُ صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى . فقال له إياس : إنك جئتَ برجل فوقفته على شفير جهنم فنجّى نفسَه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال له عدى : أما إذ فهمتَها فأنت لها . فآستقضاه .

بين عدى وإياس فى القراء

وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية : دُلّنى على قوم من القُرّاء أوَلّهم . فقال له : القرّاء ضربان : فضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك ، وضرب يعملون للدنيا . فما ظنك بهم إذا أمكنتَهم منها ؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يَسْتَحْيُون لأحسابهم فوَلِّهم .

أبو قلابة والقضاء

أيوب السِّخْتِيانى ، قال : طُلب أبو قِلاَبة لقضاء البصرة ، فهرب إلى الشام فأقام حينا ثم رجع . قال أيوب : فقلت له : لو أنك وَليتَ القضاء وعدلت كان لك أجران . قال : يا أيوب ، إذا وقع السابح فى البحر فكم عسى أن يسبح .

تولية عبد الملك الشعبى على قضاء البصرة

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه : دلّونى على رجل أستعمله . فقال له رَوْح ابن زِنْباع : أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم ، وإن تركتموه

---

(١) عمال القدر : ذوو الشرف والحسب . وفى محاضرات الأدباء « عليك بأهل القدر الذين إن عدلوا فذلك مارجوت فيهم » .

(٢) فى الأصول « الجرشى » ، وهو تصحيف .

لم يأتكم، ليس بالمُلحف طلباً، ولا بالمُمعِن هربا: عامر الشَّعبي؛ فولاه قضاء البصرة.

عمر بن عبد العزيز يسأل أبا مجلز عمن يوليه خراسان

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مِجْلَز[1] عن رجل يولّيه خراسان. فقال له: ما تقول فى فلان؟ قال: مَصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، يحسد أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافئ الأكفاء ويعادى الأعداء ويفعل ما يشاء. قال: ما فى واحد من هؤلاء خير.

عمر ورجل طلب عملا

وأراد عمر بن الخطّاب أن يستعمل رجلا، فبدر الرجل يطلب منه العمل فقال عمر: والله لقد أردتك لذلك، ولكن مَن طلبَ هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

وطلب رجلٌ من النبى صلى الله عليه وسلم أن يستعمله. فقال: إنا لا نستعمل على عملنا من يريده.

وطلب العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم إلى النبى ولاية. فقال: يا عم، نفسٌ تحييها خير من ولاية لا تحصيها.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد: فِرّ من الشرف يَتْبعك الشرف؛ واحرص على الموت تُوهبْ لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يُختار للجَثْلقة[2] إلا زاهداً فيها غيرَ طالب لها.

تولية ابن هبيرة لإياس

وقال إياس بن معاوية: أرسل إلىَّ ابنُ هبيرة فأتيتُه، فساكتَنى[3] فسكتّ، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئا؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئا؟ قلت: أنا بها أعرَف. قال: إنى أريد أن أستعين بك على عملى. قلت: إن فِىّ خلالا ثلاثاً لا أصلح معها للعمل. قال: ما هى؟ قلت: أنا دَميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عَيىّ. قال:

---

(١) فى الأصول «أبا مخلد» والتصويب من الطبرى.

(٢) الجثلقة: رياسة للنصارى دينية.

(٣) كذا فى عيون الأخبار؛ وفى الأصول «فسألنى».

أما دَمامتك فإنى لا أُريد أن أُحاسن الناس بك ، وأما العىّ فإنى أراك تُعرِب عن نفسك ، وأما الحدّة فإن السوط يقوّمك . [قُم قد ولّيتُك][1] قال : فولّانى وأعطانى مائة درهم[2] ، فهى أوّل مال تموّلتُه .

وقال الأصمعى : ولِىَ سليمان بن حَبيب المحاربى قضاء دمشق لعبد الملك والوليد وسليمانَ وعمرَ بن عبد العزيز ويزيدَ وهشام .

وأراد عمرُ بن عبد العزيز مكحولاً على القضاء فأبى عليه . قال له : وما يمنعك قال مكحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَقْضِى بين الناس إلا ذو شرف فى قومه ، وأنا مولى .

تولية ابن الخطاب للمغيرة مكان ابن أبى وقاص على الكوفة

ولما قَدِم رجالُ الكوفة على عمرَ بن الخطاب يشكون سعدَ بن أبى وقّاص ، قال : مَن يَعذِرنى من أهل الكوفة ، إن وليتُ عليهم التقىّ ضعّفوه ، وإن وليت عليهم القوىّ فجّروه ؟ فقال له المغيرة : يا أمير المؤمنين ، إن التقىّ الضعيف له تقواه وعليك ضعفُه ، والقوى الفاجر لك قوّتُه وعليه فجورُه . قال : صدقت ، فأنت القوىُّ الفاجر فاْخرج إليهم . فلم يزل عليهم أيامَ عمرَ وصدراً من أيام عثمان وأيام معاوية ، حتى مات المغيرة[3] .

حسن السياسة وإقامة المملكة

للحجاج يصف سيرته للوليد

كتب الوليدُ بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته ، فكتب إليه : إنى أيقظتُ رأيى وأنمتُ هواى ، فأدنيت السيّدَ المُطاع فى قومه ، ووليت المجرَّبَ[4] الحازمَ فى أمره ، وقلدت الخراجَ الموفّر لأمانته ، وقَسمت لكل خَصمٍ من نفسى قسمًا أُعطيه حظًّا من لطيف عنايتى ونظرى ؛

(١) التكملة من عيون الأخبار .
(٢) فى عيون الأخبار « ألفى درهم » .
(٣) الخبر فى شرح نهج البلاغة ، ومحاضرات الأدباء .
(٤) فى عيون الأخبار « الحرب » بفتح فكسر - وهو الشديد الغضب .

وصرفتُ السيفَ إلى النَّطِف[1] المسيء ، والثوابَ إلى المحسن البريء ؛ فخاف المريبُ صولةَ العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

لأردشير يوصى ابنه

وقال أردشير لابنه : يا بنى ، إنّ المُلك والعَدل أخَوان لا غِنَى بأحدهما عن صاحبه فالمُلك أُسٌّ والعدل حارس ، وما لم يكن له أُسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع . يا بُنىّ اجعل حديثَك مع أهل المراتب ، وعطيتَك لأهل الجهاد ، وبِشْرَك لأهل الدين ، وسرَّك لمن عَنَاه ما عناك من ذوى العقول[2] .

الحكماء فى واجب السلطان

وقالت الحكماء : مما يجب على السلطان العدلُ فى ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه ، وفى باطن ضميره لإقامة أمر دينه : فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان . ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف ، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما ، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها . وينبغى لمن كان سلطاناً أن يُقيم على نفسه حُجة الرعية . ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان . وليكن حكمه على غيره بمثل حكمه على نفسه ؛ فإنما يعرف حقوقَ الأشياء من عَرف مبلغ حدودها ومواقعَ أقدارها . ولا يكون أحد سلطانا حتى يكون قبلَ ذلك رعيّة .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : كلكم يترشح لهذا الأمر ، ولا يصلُح له منكم إلا من كان له سيف مَسلول ، ومال مبذول ، وعدل تطمئن إليه القلوب .

لبعض الملوك يصف سياسته

ووصف بعض الملوك سياسته فقال : لم أهزل فى وعد ولا وعيد ، ولا أمرٍ ولا نهى ولا عاقبت للغضب . واستكفيت[3] ، وأثبتُ على الغَنَاء لا للهوى . وأودعت القلوب هيبة لم يَشُبْها مقت ، ووِدًّا لم تَشُبْه جرأة . وعممت بالقُوت ، ومنعتُ الفضول .

(١) النطف : المتهم المريب .

(٢) انظر عيون الأخبار (١ : ٣٠١) ومحاضرات الأدباء (١ : ١٠٤) فبين الخبر هنا وهناك خلاف فى بعض الألفاظ .

(٣) استكفيت : وليت الأكفاء

لأعرابي في وصف أمير

وذكر أعرابي أميراً فقال : كان إذا وَلِي لم يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم ؛ فالمحسن راج والمسيء خائف .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يصلُح لهذا الأمر إلا اللَّيِّنُ في غير ضَعف ، القويُّ في غير عُنف .

بين الوليد بن عبد الملك وأبيه في السياسة

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ياأبت ، ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودّتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

لأرسطوطاليس يوصي الإسكندر

وكتب أرسطوطاليس إلى الإسكندر : أملك الرعية بالإحسان إليها تظفرْ بالمحبة منها ، فإنّ طَلَبَك ذلك منها بإحسانك أدومُ بقاءً منه باعتسافك . واعلم أنك إنما تملك الأبدانَ فأجمع لها القلوب بالمحبة ؛ واعلم أن الرعية إذا قَدَرت أن تقول قدَرتْ أن تفعل ؛ فاجهد ألاّ تقولَ تسلم من أن تفعل .

وقال أردشير لأصحابه : إني إنما أملك الأجساد لا النيّات ، وأحكم بالعدل لا بالرضى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر .

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية : اتقوا أدَمَ[1] قريش وابنَ كريمها ، من يضحك في الغَضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته[2] .

لمعاوية في سياسته

وقال معاوية : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو أنّ بيني وبين الناس شعرةً ما انقطعت . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدّوها أرخيتُها ، وإذا أرخوها مددتها .

لعمرو بن العاص في معاوية وسياسته

وقال عمرو بن العاص : رأيتُ معاوية في بعض أيامنا بصفّين خرج في عُدّة لم أره خرج في مثلها ، فوقف في قَلْب عسكره فجعل يَلْحظ مَيمنتَه فيرى الخَلل ، فيبدُر إليه من يَسُدّه . ثم يفعل ذلك بميسرته ، فتُغنيه اللحظة عن الإشارة . فدخله زَهْوٌ مما رأى ، فقال : يابن العاص ، كيف ترى هؤلاء وماهم عليه ؟ فقلت : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ من يسوس الناسَ بالدين والدنيا فما رأيت أحداً أُوتي

---

(١) الأدم : الأسوة أو السيد ؛ وفي بعض الأصول « أكرم » .

(٢) يصف حسن تأتيه للأمر وقدرته على الصعاب مع يسر .

له من طاعة رعيّته ما أُوتى لك من هؤلاء . فقال : أفتدرى متى يَفسُد هذا وفى كم ينتقض جميعه ؟ قلت : لا . قال : فى يوم واحد . قال : فأكثرتُ التعجب . قال : إى والله وفى بعض يوم . قلت : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كَذَبوا فى الوعد والوعيد ، وأعطوا على الهوى لا على الغَناء : فسدَ جميعُ ما ترى .

لابن عباس يوصى الحسن

وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن على إذ ولاه الناس أمْرهم بعد على رضى الله عنه : أنْ شمِّرْ للحرب ، وجاهد عدوك ، وآشتر من الظِّنين دينه بما لا يثْلِم دينك ، ووَلِّ أهل البيوتات تستصلحْ به عشائرهم .

للحكماء فى السياسة

وقالت الحكماء : أسْوَسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبَها بخواطرها . وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

لأبرويز يوصى ابنه شيرويه

وقال أَبرويز لابنه شِيرَوَيْه : لا توسّعن على جُندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيّقن عليهم ضِيقا يضجون به منك : ولكن أعطهم عطاء قَصْداً ، وآمنعهم منعاً جميلا ، وابسُط لهم فى الرجاء ، ولا تبسط لهم فى العطاء .

بين المنصور وقواده

ونحو هذا قولُ المنصور لبعض قُواده . صَدَق الذى قال : أَجِعْ كلبَك يَتْبعْك ، وسَمِّنْه يأكلك . فقال له أبو العباس الطُّوسىّ : يا أمير المؤمنين ، أما تخشى إن أجعته أن يُلوّح له غيرُك برغيف فيتبعَه ويدعَك .

لأبرويز ينصح ابنه شيرويه

وكتب أبرويز إلى ابنه شِيرويه من الحَبس : آعلم أنّ كلمةً منك تَسفك دماء وأخرى تَحقن دماء ، وأنّ سخطكَ سيفٌ مسلول على من سَخِطْتَ عليه ، وأن رضاك بَركةٌ مُستفيضة على مَن رَضِيت عنه ، وأنّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يُخطئ . ومن لونك أن يتغيّر ، ومن جَسدك أن يَخِفّ ؛ فإن الملوك تُعاقب حَزْماً وتعفو حِلْما . وآعلم أنك تَجلّ عن الغضب ، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك ، فقدِّر لسُخطك من العقاب كما تُقدر لرضاك من الثواب[1]

من خطبة لسعيد ابن سويد

وخطب سعيد بن سُويد بحمص ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناسُ إنّ للإسلام حائطا مَنيعا ، وبابا وثيقاً . فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ،

(١) الخبر فى عيون الاخبار على اختلاف وزيادة .

ولا يزال الإسلام مَنيعاً ما اشتدّ السلطان ، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل .

لابن الحكم في الحاقد على السلطان

وقال عبد الله بن الحكم إنه قد يَضْطغن على السلطان رجلان : رجل أحسن فى مُحْسِنينَ فأُثيبوا وحُرِمَ ، ورجلٌ أساء فى مسيئين فعُوقب وعُفِيَ عنهم ؛ فينبغى للسلطان أن يحترس منهما .

لأبرويز يوصى ابنه شيرويه

وفى التاج : كتب أبرويز لابنه شِيرويه يُوصيه : ليكن مَن تختاره لولايتك آمرءا كان فى ضَعة فرفعته ، أو ذا شرف كان مهمَلا فاصطنعته . ولا تجعله امرءا أصبتَه بعقوبة فاتضع لها ، ولا آمرءا أطاعك بعد ما أذللته[1] . ولا أحداً من يقع بقلبك[2] أن إزالة سُلطانك أحبُّ إليه من ثبوته ؛ وإياك أن تستعمله ضَرَعًا غَمراً[3] كثيرا إعجابُهُ بنفسه ، قليلاً تجربتُه فى غيره . ولا كبيراً مُدْبِرا قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذت السنُّ من جسمه .

بسط المعدلة وردّ المظالم

نصاف المأمون أمة من ابنه

الشّيبانى قال : حدّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمى عن قحطبة ابن حُميد قال : إنى لواقفٌ على رأس المأمون يوما وقد جلس للمظالم ، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ آمرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقالت السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمى فى حاجتك . فقالت :

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَهُ الرَّشَدُ ، ويا إمامًا به قدْ أشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكُو إليكَ عَمِيدَ القَوْمِ أرْمَلَةٌ ، عُدِى عَليها فلَمْ يُتْرَكْ لَها سَبَدُ

(١) زيادة عن عيون الأخبار ونهاية الأرب .
(٢) فى نهاية الأرب وعيون الأخبار « فى خلدك » .
(٣) الضرع : الضعيف . والغمر : من لا تجربة له .

وابْتُزَّ مِنى ضِيَاعِى بَعْدَ مَنْعَتِها * ظُلْماً وفُرِّقَ مِنِى الأَهْلُ والوَلَدُ .

فأطرق المأمون حينا ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دُونِ ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والْجَلَدُ * عنِّى وأُقْرِحَ مِنِّى القَلْبُ والكبد
هٰذَا أَذَانُ صَلاةِ العَصْرِ فانْصَرِفى * وأَحْضِرِى الخَصْمَ فى اليَوْمِ الَّذِى أَعِدُ
والمَجْلِسُ السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الجُلُوسُ لَنَا * نُنْصِفْكِ مِنْهُ وإلَّا المَجْلِسُ الأَحَدُ

قال : فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته . فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت : الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومأتْ إلى العباس ابنه . فقال : يا أحمد بن أبى خالد ، خُذ بيده فأجلسه معها مجلسَ الخصوم . فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها ، وظلم العباس بظلمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذى ببلدها أن يُوغِر لها ضيعتها[1] ويُحسن معاونتها ، وأمر لها بنفقة[2] .

الحكم على هشام فى خصومة بينه وبين إبراهيم ابن محمد

العتبى قال : إنى لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد ابن طلحة وصاحب حَرَس هشام ، حتى قعدا بين يديه ، فقال : إن أمير المؤمنين جرّانى[3] فى خُصومة بينه وبين إبراهيم . فقال القاضى : شاهدَيك على الجراية . قال أتُرانى قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل ، وليس بينى وبينه إلا هذه السُّترة ؟ قال : بلى ، ولكنه لا يثبُت الحق لك ولا عليك إلا ببينة . قال : فقام الحرسىّ فدخل إلى هشام فأخبره ، فلم نلبث أن قعقعت الأبواب وخرج الحرسى فقال : هذا أمير المؤمنين . وخرج هشام ، فلما نظر إليه القاضى قام ، فأشار إليه وبسط

(١) الإيغار : إسقاط الخراج .
(٢) انظر نهاية الأرب (٦ : ٢٧٦) .
(٣) جرانى جراية ، بالفتح والكسر : وكلنى .

له مُصلى ، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه ، وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنا بعضه . قال : فتكلما وأحضرا البيّنة . فقضى القاضى على هشام . فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق ، فقال : الحمد لله الذى أبان للناس ظلمك . فقال له هشام : لقد هممتُ أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك . قال : أمَا والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريبِ القرابة واجبِ الحق . فقال هشام : آسترها علىّ ! قال : لا سَتر الله علىَّ إذاً ذنبى يوم القيامة إن سترتُها . قال : فإنى مُعطيك عليها مائة ألف . قال إبراهيم : فسترتُها عليه حياتَه ثمناً لما أخذتُ منه ، وأذعتها بعد مماته تزييناً له .

الحجاج وسليك ابن سلكة

قال : وورد على الحجاج بن يوسف سُليكُ بن سُلَكة[1] فقال : أصلح الله الأمير ، أَرْعِنى سمعَك ، واغضُض عنى بصرك ، واكفُف عنى غربك ؛ فإن سمعتَ خطأً أو زللا فدونك والعقوبة . قال : قل . فقال : عصى عاص من عُرض العشيرة ؛ فَحُلِّق على اسمى[2] وهُدِم منزلى ، وحُرِمْتُ عطائى . قال : هيهات ! أوَ ما سمعت قول الشاعر :

جانِيكَ مَنْ يَجْنِى عَلَيْـــكَ وقَدْ ٭ تُعْدِى الصِّحاحَ مَبَـــارِكُ الجُرْبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بِذَنْبِ عَشِـــيرِهِ ٭ ونَجا المُقَـــارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قال : أصلح الله الأمير ، إنى سمعت الله عز وجل قال غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال : قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها العَزِيزُ إنّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِن المُحْسِنِينَ ٭ قَالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلاّ مَنْ وجَدْنَا مَتاعَنا عِنْدَهُ إنّا إذًا لَظَالِمُونَ ﴾ . فقال الحجاج : علىّ بيزيد بن أبى مسلم . فمثل بين يديه ، فقال : افكُكْ لهذا عن اسمه ، واصكُكْ له بعطائه ، وآبن له منزلَه ، ومُرْ مناديا ينادى : صدق الله وكذب الشاعر .

---

(١) لعله فرعون بن عبد الرحمن المعروف بابن سلكة الذى عاصر الحجاج ؛ إذ سليك ابن سلكة جاهلى

(٢) حلق على اسمى ، أى ضرب عليه بحلقة من المداد وذلك إذا أريد حبس العطاء عن صاحبه

وقال معاوية : إنى لأستحي أن أظلم من لايجد علىّ ناصرا إلا الله .

لعمر ابن عبدالعزيز يوصى عاملا

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعضُ عماله يستأذنه فى تحصين مدينته . فكتب إليه : حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَها من الظلم .

للمهدى يوصى ابن أبى الجهم

وقال المهدى للربيع بن أبى الجهم ـ وهو والى أرض فارس : ياربيع ، آثِر الحق ، والزم القصد ، وابسط العدل ، وارفُق بالرعية ، وآعلم أن أعدل الناس من أنصَفَ من نفسه ، وأجْوَرَهم من ظلم الناس لغيره .

بين ابن عامر وابن أصبغ

وقال ابنُ أبى الزناد : عن هشام بن عُروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن أصبغ علىَ الأهواز ، فلما عزله قال له : ماجئتَ به ؟ قال له مامعى إلا مائة درهم وأثواب . قال : كيف ذلك؟ قال : أرسلتنى إلى بلدٍ أهلُه رجلان : رجل مُسلم له مالى وعليه ما علىّ ، ورجل له ذمةُ الله ورسوله ، فوالله مادريتُ أين أضع يدى . قال : فأعطاه عشرين ألفاً . وقال جعفر بن يحيي : الخراج عمود الملك ، وما استُغْزِر بمثل العدل ، ولا استُنْزِرَ بمثل الظلم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الظلمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامَةِ » .

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قال الحكماء : الناس تَبَعٌ لإمامهم فى الخير والشر .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سُوق ، فما نَفَقَ عنده جُلِبَ إليه .

عمر بن الخطاب وتاج كسرى وسواريه

ولما أُتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسِوَارَيْه . قال : إن الذى أدى هذا لأمين . قال له رجل : ياأمير المؤمنين ، أنت أمين الله ، يُؤَدُّون إليك ما أديتَ إلى الله تعالى ، فإن رتعت رتعوا .

ومن أمثالهم فى هذا قولهم : إذا صلحت العَيْن صلحت سواقيها .

الأصمعى قال : يقال : صنفان إذا صلحا صلح الناس : الأمراء والفقهاء .

بين مروان ووكيله

اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغُوطة ، فأنكر منها شيئا ، فقال لوكيله : ويحك ! إنى لأظنك تَخونني . قال : أتظن ذلك ولا تستيقنه . قال : وتفعله ؟

قال : نعم والله ، إنى لأخونك ، وإنك لتخون أمير المؤمنين ، وإن أمير المؤمنين ليخون الله ؛ فَلَعَن الله شر الثلاثة .

قولهم فى الملك وجلسائه ووزرائه

للحكماء فى الملك والوزراء

قالت الحكماء : لاينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودّة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأى والعفاف . ثم على الملوك بعدُ ألاّ يتركوا مُحسناً ولا مسيئاً َمادون جزاء : فإنهم إذا تركوا ذلك ، تهاون المحسن ، واجترأ المسىء ، وفسد الأمر ، وبطل العمل .

للأحنف فى فساد البطانة

وقال الأحنف بن قيس : من فسدت بطانتُه كان كمن غَصّ بالماء ، ومن غص بالماء فلا مَساغ له ، ومن خانه ثِقاته فقد أُتِى من مأمنه .

لابن الأحنف

وقال العباس بن الأحنف :

قلْبِي إلى ما ضَرّنِي داعِي * يُكْثِرُ أَحْزَانِي وأَوْجَاعِي
كَيْفَ احتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّى إذا * كانَ عَدُوِّى بَينَ أضلاعى

وقال آخر :

كنتُ من كُرْبَتِي أَفِرُّ إليْهِمْ * فهُمُ كُرْبتِي فأَيْنَ الفِرار

لعدى بن زيد

وأول من سبق إلى هذا المعنى عدىّ بن زيد فى قوله للنعمان بن المنذر :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاء حَلْقِي شَرِقٌ * كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصارِى[1]

وقال آخر :

إلَى الماء يَسْعَى مَنْ يَغَصُّ بِرِيقِهِ * فقُلْ أَيْنَ يسعَى مَنْ يَغَصُّ بِمَاء

لابن العاص فى العدل

وقال عمرو بن العاص : لا سُلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وقالوا : إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه .

---

(١) الاعتصار أن يترشف الماء قليلا قليلا .

قالوا : ليس شىء أضر بالسلطان من صاحب يُحسِنُ القول ولا يحسن الفعل ولاخير فى القول إلا مع الفعل ، ولا فى المال إلا مع الجود ، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء ، ولا فى الفقه إلا مع الورع ، ولا فى الصدقة إلا مع حُسن النية ، ولا فى الحياة إلا مع الصحة .

قالوا : إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سَوْء امتنع خيره من الناس ولم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة . وشبهوا ذلك بالماء الصافى يكون فيه التمساح ، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجا إليه .

صفة الإمام العادل

كتاب الحسن البصرى إلى عمر ابن عبد العزيز فى وصف الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولِىَ الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جَعَلَ الإمامَ العادلَ قِوامَ كلِّ مائل ، وقَصْدَ كل جائر ، وصلاحَ كل فاسد ، وقُوةَ كل ضعيف ، ونَصَفَةَ كل مظلوم ، ومَفْزَعَ كل ملهوف . والإمامُ العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيبَ المرعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويكُنُّها من أذى الحرّ والقُرّ . والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالأُمّ الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كُرها ووضعته كرها ، وربّته طفلا ، تَسهر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتَفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، وصىُّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّى صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوارح : تصلح الجوارحُ بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسْمَعُ كلامَ الله ويُسْمِعُهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ، وينقاد إلى الله ويقُودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعيالَه ، فبدد

المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يَقتَصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده ، وقلةَ أشياعِك عنده وأنصارِك عليه ؛ فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثَواؤك ، ويفارقك أحِبّاؤك ، يُسلمونك فى قعره فريداً وحيداً . فتَزَوَّدْ له ما يَصْحَبُك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وأُمِّهِ وأَبِيهِ ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ ﴾

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ ﴾ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ .

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت فى مَهَل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقُبون فى مؤمن إلًّا ولا ذِمّة ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ معَ أوزارِك ، وتحمل أثقالَكَ وأثقالا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . ولا تنظرنّ إلى قدرتك[1] اليوم ، ولكن انظر إلى قُدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدَى الله تعالى فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد ﴿ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّوم ﴾ .

إنى يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظَتى ما بلغه أُولُو النُّهى من قبلى ، فلم آلك شفقةً ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يَرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1]

هيبة الإمام فى تواضعه

لابن السماك • قال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضُعُك فى شرفك أكبر من شرفك !

(١) انظر نهاية الأرب (٦ : ٣٧)

لعبد الملك

وقال عبد الملك بن مروان : أفضل الرجال من تواضَعَ عن رفعة ، وزَهِد عن قُدرة ، وأنصف عن قُوّة .

النجاشى وقد ولد له ولد

ذَكر عن النجاشى أمير الحبشة أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه ، فأَعْظَم ذلك أساقِفتُه ؛ فقال لهم : إنى وجدتُ فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام ، يقول له : إذا أنعمتُ على عبدى نعمةً فتواضع إلىَّ أتممتُها عليه ، وإنى وُلِدَ لى الليلةَ غلام ، فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى .

لبعض الشعراء فى التواضع

وقال ابن قتيبة : لم يُقلْ بيتٌ أبدعُ من قول الشاعر فى بعض خلفاء بنى أمية :

يُغضِى حياءً ويُغْضَى من مهابتِهِ * فلاَ يُكلَّمُ إلاّ حـــين يَبْتسمُ (١)

وأحسن منه عندى قول الآخر :

فَتًى زادهُ عِزُّ المهـــابَةِ ذِلَّة * فَكلُّ عَزيزٍ عِنْدهُ مُتَوَاضِع

وقال أبو العتاهية :

يا مَنْ تَشرّف بالدُّنيا وزينتِها (٢) * ليس التّشرُّف رَفْعَ الطِّين بالطينِ
إذا أردت شَريفَ النّاس كلِّهم * فانظُرْ إلى مَلِك فى زِىّ مِسْكين
ذَاكَ الّذى عَظُمت والله نِعْمتُه * وذاك يَصْلُحُ للدُّنيـــا وللدِّين

وقال الحسن ابن هانئ فى هيبة السلطان مع محبة الرعية :

إمامٌ عليـــه هَيبَةٌ ومَحَبـــةٌ * ألا بأَبِى ذاك الحَبيبُ الُمحَبَّبُ

وقال آخر فى الهيبة وإن لم تكن فى طريق السلطان :

بنَفْسى من لَوْ مَرّ بَرْدُ بَنانه * على كَبِدِى كانتْ شفاءً أنامِلُهْ
ومَنْ هابَنِى فى كُلِّ شَىْء وهِبْتُهُ * فلَا هو يُعْطِينِى ولا أنا سائِلُهْ

ولابن هرمة فى المنصور :

له لحظاتٌ عن حِفافَىْ سريره * إذا كَرَّها فيهـــا عقابٌ ونائل

---

(١) البيت للفرزدق فى زين العابدين على بن الحسين .

(٢) فى الديوان « وطينتها » .

كريمٌ له وجهان وجهٌ لدى الرضى ❊ أسيلٌ ووجه فى الكريهة باسل
فأم الذى آمنتَ آمنــــةُ الرَّدى ❊ وأم الذى أوعدت بالثُّكل ثاكل
وليس بمُعطى العفو من غير قدرة ❊ ويعفو إذا ما مكَّنته المقـــاتل

وقال آخر فى الهيبة :

أهـاشمُ يافتًى دينٍ ودُنيـــا ❊ ومن هو فى اللُّباب مِن اللُّباب
أهابُك أن أبُوح بذات نفْسى ❊ وتَرْكى لِلعِتـــاب مِنَ العتاب

وقال أشجع بن عمرو فى هيبة السلطان :

منعتْ مهابتُك النُّفوسَ حَديثَها ❊ بالشَّىْءِ تَكرهه وإنْ لم تَعلم
ومن الولاةِ مُفَخَّم لا يُتَّقَى ❊ والسَّيْفُ تقطرُ شفرتاهُ منَ الدَّم

وقال أيضا لهرون الرشيد :

وعلى عــــدُوِّكَ يابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ❊ رَصَدانِ : ضَوءُ الصُّبْح والإظْلام
فإذا تَنبَّه رُعْتَــــه ، وإذا غفا ❊ سَلَّتْ عليه سُيوفَك الأحلامُ

وقال الحسن بن هانئ فى الهيبة فأفرط :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فى القُلوب مِثالُه ❊ فكأنّه لَمْ يَخْــلُ منــه مكان
ما تَنْطَوِى عنه القلوب بفَجرة[1] ❊ إلّا يُكلمه بهـــا اللّحظانُ[2]
حتى الّذى فى الرِّحْم لم يك صُورَةً ❊ لفُؤاده من خَوْفه خَفقَانُ

فمجاز هذا البيت فى إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئا أو أحبّه أحبه بسمعه وبصره وشَعره وبَشَره ولحمه ودمه وجميع أعضائه ، فالنُّطَف التى فى الأصلاب داخلة فى هذه الجملة .

قال الشاعر :

ألا تَرْثِى لِمُكْتَئِبٍ ❊ يُحِبُّك لَحْمُهُ وَدَمُهْ

(١) فى الأصول : « بعجرة » وما أثبتنا من الديوان . والفجرة : المرة من الفجر ، وهو الانبعاث فى المعاصى .
(٢) اللحظان : النظر بمؤخر العين .

وقال المكفوف فى آل محمد :

أُحِبُّكُمُ حُبًّا على اللهِ أجْرُهُ ﴿ تَضَمّنه الأحْشاء واللحم والدمُ

ومثل هذا قول الحسن بن هانئ :

وأخَفْتَ أهْلَ الشركِ حتى إنه ﴿ لَتَخافُكَ النُّطَفُ التى لمْ تُخْلَق

فإذا خافه أهل الشرك خافته النطف التى فى أصلابهم، على المجاز الذى ذكرناه.

ومجاز آخر : أنّ النطف التى أخذ الله ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هى لابد فاعلةٌ من قبل أن تفعله ، كما جاء فى الأثر : إن الله عز وجل عَرَضَ على آدم ذريتَه فقال : هؤلاء أهل الجنة وبعملِ أهلِ الجنة يعملون ، وهؤلاء أهلُ النار وبعملِ أهل النار يعملون.

شعر المؤلف فى الهيبة

وهاأنا أقول فى الهيبة[1] :

يا من يُجَرِّدُ مِنْ بَصيرته ﴿ تحت الحوادث صارِمَ العَزْمِ
رُعْتَ العدُوّ فما مَثَلْتَ له ﴿ إلا تَفَزَّعَ منك فى الحُلْمِ
أضْحَى لك التَّدبيرُ مُطَّردا ﴿ مثْل اطِّراد الفِعْلِ للإسْمِ
رَفَع الحسودُ إليكَ ناظِرَهُ ﴿ فرآكَ مُطَّلِعًا مع النّجمِ

الأخطل فى معاوية

أبو حاتم سهل بن محمد قال : أنشدنى العتبى للأخطل فى معاوية :

تَسْمو العيونُ إلى إمامٍ عادِلٍ ﴿ مُعْطَى المَهابَةِ نافِعٍ ضَرّارِ
وترى عليه إذا العيونُ لَمَحْنَهُ ﴿ سِيما الحليمِ وهَيْبَةَ الجبّارِ

تم الجزء الأول من كتاب اللؤلؤة فى السلطان بعون الله ومنه . من قسمة خمسة وعشرين قسما من تجزئة المؤلف . يتلوه الجزء الثانى من القسم ، وهو باقى كتاب اللؤلؤة فى السلطان من كتاب العقد . ولله الحمد والمنة . والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) فى بعض الأصول «ومن قولنا فى الهيبة».

حسن السيرة والرفق بالرعية

مما جاء فى الكتاب والسنة فى معنى هذا العنوان

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أوصاه به من الرفق بالرعية : ﴿ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لٱنفَضُّوا مِن حوْلِكَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ أُعْطِيَ حَظه مِنَ الرِّفْقِ فقد أُعْطِيَ حَظّه مِنَ الخير كله ، ومن حُرِمَ حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير كله .

مشورة سالم وابن كعب على عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة

ولما ٱستُخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب . فقال لهما : أشيرا عليّ . فقال له سالم : اجعل الناسَ أباً وأخاً وابناً ، فبَرَّ أباك ، وٱحفظ أخاك ، وارحم ابنك . وقال محمد بن كعب : أَحِبّ للناس ما تحب لنفسكَ واكره لهم ما تكره لنفسك ، واعلم أنك أولُ خليفة يموت .

بين عمر بن عبد العزيز وابنه فى الرفق

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت ، مالك لا تَنْفُذُ فى الأمور ، فوالله لا أُبالى فى الحق لو غَلَت بى وبك القُدور . قال له عمر : لا تعجل يا بُنى ، فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرّمها فى الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكونَ فتنة .

من عمر إلى ابن أرطاة فى الرفق

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدِيّ بن أَرْطَأَة : أما بعد ، فإن أمكنتك القُدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، وٱعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعية عندك .

مما وصى المنصور به ابنه

وقال المنصور لولده عبد الله المهدى : لا تُبْرِم أمرا حتى تفكر فيه ؛ فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناتِه وسيآته ؛ واعلم أن الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى ، والسلطانَ لا تصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأَوْلى الناسِ بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنْقَصَ الناس عقلا من ظَلَمَ مَن هو دونه .

وصية خالد القسرى لبلال

وقال خالدُ بن عبد الله القسريّ لبلال بن أبى بُردة : لا يَحملنَّك فضلُ المقدرة على شدّة السطوَة ، ولا تطلُب من رعيّتك إلا ما تبذُله لها ؛ فـ(إنّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُون) .

وقال أبو عبد الله كاتبُ المهدىّ : ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى

قرين[١] يحجُزه ، وحياء يكفّه ، وعقل يعقله ، وإلى تجربة طويلة ، وعين حفيظة ، وأعراق تسرى إليه ، وأخلاق تُسَهِّل الأمور عليه ؛ وإلى جليس شفيق ، وصاحب رفيق ، وإلى عين تُبصر العواقب ، وقلبٍ يخاف الغيَر . ومن لم يعرف لؤم[٢] الكِبْر لم يَسلم من فَلَتات اللسان ، ولم يتعاظم ذنباً وإن عظم ، ولا ثناء وإن سمج .

وكتب أردشير إلى رعيّته : من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء ، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساوِرَة الذين هم حفظة البَيْضة ، والكتّاب الذين هم زينة المملكة ، وذوى الحرْث الذين هم عماد البلاد : السلام عليكم ، فإنا بحمد الله إليكم سالمون ؛ فقد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتَها الموضوعة عليها ، ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها : لاتستشعروا الحِقدَ فيدهمكم العدو ، ولا تحتكروا فيشملكم القحط ؛ وتزوّجوا فى الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب ، ولا تَعُدُّوا هذه الدنيا شيئاً ؛ فإنها لا تُبقِي على أحد ، ولاترفضوها فإن الآخرة لا تُدْرَك إلا بها[٣] .

وصية مروان ابن الحكم لعبد العزيز ابنه حين ولاه مصر

ولما انصرف مروانُ بن الحكم من مصر إلى الشام ٱستعمل عبد العزيز ابنَه على مصر ، وقال له حين ودّعه : أرسل حكيما ولا تُوصِه . أى بُنىّ ، انظر إلى عُمّالك ، فإن كان لهم عندك حقٌّ غُدْوَةً فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر جلساءك وأهل العلم ؛ فإن لم يَستَبِنْ لك فاكتب إلىّ يأتِك رأيى فيه إن شاء الله تعالى . وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلاتؤاخِذْه به عند سَوْرَة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يَسكن غضبُك ثم يكون منك مايكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة ، فإن أولَ مَنْ جَعَل السجنَ كان

(١) فى بعض الأصول « دين » .

(٢) فى بعض الأصول « ذم »

(٣) انظر عيون الأخبار (١ : ٧)

حليما ذا أناة . ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ؛ ثم ارفع[١] منازلهم منك على غيرهم ، على غير آسترسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك .

من معاوية إلى زياد فى رجل

أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبى ، قال : قال زياد : ما غلبنى أميرُ المؤمنين معاوية فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة ، استعملت رجلاً فكسر خراجه ، فخشى أن أعاقبه ففرّ إليه وآستجار به فأمنه ؛ فكتبت إليه : إن هذا أدب سوءٍ منْ قِبلى . فكتب إلىّ : إنه لا ينبغى أن نسوس الناس سياسة واحدة ، لا نلنْ جميعاً فتمرح الناس فى المعصية ، ولا نشتد جميعا فنحمل الناس على المهالك . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة[٢] .

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

للحكماء

قالت الحكماء : أحزم الملوك من قهر جدُّه هزلَه : وغلب رأيُه هواه ، وجعل له الفكر صاحبا يُحسِّنُ له العواقب ، وأعرب عن ضميره فعلُه ، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبُه عن كيده .

وصية عبد الملك لولى عهده الوليد

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولى عَهْده : يا بُنىّ ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان : حزمٌ وتوان .

لبعضهم فى اليسير من الزلل

وقالوا : ينبغى للعاقل ألاّ يستصغر شيئاً من الخطأ والزلل ، فإنه متى ماآستصغر الصغير يوشك أن يقع فى الكبير ؛ فقد رأينا الملك يُؤْتَى من العدوّ المحتقَر ، ورأينا الصحة تُؤْتَى من الدواء اليسير ، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار .

فى الذم يكون من الرعية

وقالوا : لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لأحد ثلاثة : كريم قُصِّر به عن قدره فاحتمل لذلك ضِغْنا ، أو لئيم بُلِغَ به ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا ، أو رجل مُنِعَ حظَّه من الإنصاف فشكا تفريطا .

---

(١) فى بعض الأصول « اعرف » .
(٢) الخبر فى لباب الآداب .

من كلام للهند في الملوك

وفى كتاب الهند : خير الملوك من أشبه النسر حوله الجِيَف لا من أشبه الجيف حولها النسور .

لملك سلب ملكه

وقيل لملك سُلِب مُلكه : ما الذى سلبك ملكك ؟ قال : دَفْعُ شغلِ اليوم إلى غد ، والتماسُ عُدَّةٍ بتضييع عُدَد ، واستكفاء كلِّ مخدوع عن عقله . والمخدوعُ عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه ، وأُثيبَ ثوابا لا يستوجبه .

لابن أبى طالب فى الفرص

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : انتهزوا هذه الفرَص فإنها تمرّ مرّ السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عَيْن .

شىء عن عمر ولعائشة فيه

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحزمَ الخلفاء ، وكانت عائشة رضى الله عنها إذا ذُكر عُمر تقول : كان والله أحْوَزيّا[1] نسيجَ وَحْده ، قد أعدّ للأمور أقرانَها .

للمغيرة فيه

وقال المُغيرة بن شُعبة : مارأيتُ أحداً هو أحزَم من عمر : كان والله له فضل يمنعه أن يَخدع ، وعقل يمنعه أن يُخدع .

لعمر فى نفسه

وقال عمر : لست بِخَبٍّ والخَبُّ لايَخدعنى .

هو وعامل البحرين

ومرّ عمر ببنيان يُبنى ، بآجر وجَصّ ، فقال : لمن هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين . فقال : أبَتِ الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها ، فأرسل إليه فشاطره ماله .

هو وابن أبى وقاص

وكان سعد بن أبى وقاص يقال له المُستجاب ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : اتقوا دعوة سعد . فلما شاطره عمر ماله ، قال له سعد : لقد هممتُ . قال له عمر : بأن تدعو علىّ . قال : نعم . قال إذاً لا تجِدُنى بدعاء ربى شقيا .

ابن أبى وقاص وشاعر هجاه

وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبى وقّاص يوم القادسية ، فقال :

ألم تَرَ أنّ اللهَ أظهر دِينَه ٭ وسَعْدٌ بباب القادسيّة مُعْصِمُ
فأُبنا وقدْ آمَتْ نِساءٌ كثيرةٌ ٭ ونسوةُ سَعْدٍ ليس فيهنّ أَيّمُ

فقال سعد : اللهم اكفنى يده ولسانه . فقطعت يده وبُكِم لسانه .

عمر وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة والحارث

ولما عَزَلَ عمرُ أباموسى الأشعرىّ عن البصرة وشاطره ماله وعزل أباهُريرة عن البحرين وشاطره ماله ، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله ، دعا

---

(١) الأحوزى : الحسن السياق للأمور وفيه بعض النفار

أبا موسى فقال له : ماجاريتان بلغنى أنهما عندك ، إحداهما تُدعَى عقيلة والأخرى من بنات الملوك ؟ قال : أما عقيلة فجارية بينى وبين الناس ، وأما التى هى من بنات الملوك فإنى أردتُ بها غَلاء الفِداء . قال : فما جَفنتان تعملان عندك ؟ قال : رزقى شاةٌ فى كل يوم ، فيُعمل نِصفُها غُدوة ونصفها عشية . قال : فما مِكيالان بلغنى أنهما عندك ؟ قال: أما أحدهما فأوفِّى أهلى به ودَيْنى ، وأما الآخر فيتعامل الناس به . قال : ادفع لنا عقيلة ، والله إنك لمؤمن لا تغُلّ أو فاجرٌ مُبِلّ[1] ؛ ارجع إلى عملك عاقصاً بقَرْنك مُكْتَسِعاً بذَنَبك[2] ؛ والله إن بلغنى عنك أمرٌ لم أُعِدْك .

ثم دعا أبا هريرة فقال له : هل علمت من حين أنى استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغنى أنك ابتعتَ أفراساً بألف دينار وستمائة دينار ؟ قال : كانت لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت . قال قد حَسَبتُ لك رزقَك ومؤونتك وهذا فضلٌ فأدِّه . قال : ليس لك ذلك . قال : بلى والله وأُوجع ظهرَك ! ثم قام إليه بالدِّرّة فضربه حتى أدماه ، ثم قال : إيت بها . قال : احتسبتها عند الله . قال : ذلك لو أخذتَها من حلال وأديتها طائعا ، أجئت من أقصى حَجْر بالبحرين بجَبْي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أُمَيْمَةُ إلا لِرِعيَةِ الحُمُر . وأميمة أم أبى هريرة .

وفى حديث أبى هريرة قال : لما عزلنى عمر عن البحرين قال لى : ياعدوّ الله وعدوّ كتابه ، سرقتَ مال الله ؟ قال : فقلت : ما أنا عدوّ الله ولا عدوّ كتابه ، ولكنى عدوّ مَن عاداهما[3] ، وما سرقتُ مال الله . قال : فمن أين اجتمعت لك عشر آلاف ؟ قلت : خيلٌ تناتجت ، وعطايا تلاحقت ، وسهام تتابعت . قال : فقبضها منى ، فلما صليتُ الصبح استغفرت لأمير المؤمنين . فقال لى بعد ذلك : ألا تعمل ؟ قلت لا . قال : قد عمل من هو خير منك يوسف صلواتُ الله عليه .

---

(١) لا تغل : لا تخون . والمبلّ : الخبيث الداهية ، أو الغالب بحجته .

(٢) القرن : من الشعر . وعقصه : عقده وليه . والاكتساع بالذنب : إدخاله بين الأرجل . أراد بالعبارتين : الذلة والمهانة .

(٣) فى الأصول « عاداك » ، وما أثبتنا رواية عيون الأخبار .

قلت : يوسف نبيّ وأنا ابن أميمة ، أخشى أن يُشْتَم عِرضى ، ويُضْرَبَ ظهرى ، ويُنْزَعَ مالى .

قال : ثم دعا عمرُ الحارثَ بن وهب ، فقال : مافِلاصٌ وأعْبُدٌ بِعتَها بمائتى دينار ؟ قال : خرجتُ بنفقةٍ معى فتَجِرْتُ فيها . فقال : أما والله ما بعثناكم لِتَتَّجروا فى أموال المسلمين ، أَدِّها . فقال : أما والله لا عَمِلْتُ عملا بعدها ! قال : انتظر حتى أستعملك !

بين عمر بن الخطاب وابن العاص.

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . وكان عاملَه على مصر : من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلامٌ عليك ، أما بعد . فإنه بلغنى أنه فَشت لك فاشيةٌ من خَيل وإبل وغنم وبقر وعَبيد ، وعهدى بك قبل ذلك أنْ لا مَالَ لك . فاكتب إلىّ من أين أصْلُ هذا المال ولا تكتمه .

فكتب إليه : من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فَشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك لا مال لى . وإنى أُعلِمُ أمير المؤمنين أنى بأرضٍ السِّعْر فيه رخيص ، وأنى أعالج من الحِرفة والزراعة ما يُعالج أهلَه ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعة . والله لو رأيت خيانَتك حلالًا ماخنتك ؛ فأقصِر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هى خيرٌ من العمل لك ، إن رجعنا إليها عِشْنا بها . ولعمرى إن عندك من لا يُذَمّ معيشته ولا تُذم له [وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خيرٌ منى [(1)]] فأنّى كان ذلك ولم يُفْتَحْ قُفلُك ولم نَشْرَكْكَ فى عملك ؟

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنى والله ماأنا من أساطيرك التى تُسطِّر ونَسقك الكلام فى غير مَرجع ، وما يغنى عنك أن تزكّى نفسَك . وقد بعثت إليك محمد ابن مَسلمة فشاطِرْه مالَك ؛ فإنكم أيها الرَّهط الأُمراء جلستم على عيون المال ،

(1) التكملة من شرح نهج البلاغة (١ : ٥٨) .

لم يُعوزكم عُذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهّدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العارَ وتورّثون النار . والسلام .

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيرا . فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئا . فقال له عمرو : أتحرمون طعامَنا ؟ فقال : لو قَدّمت إلىّ طعامَ الضيف أكلتُه ، ولكنك قدمت إلىّ طعاماً هو تَقْدِمة شر . والله لا أشرب عندك ماء . فاكتبْ لى كل شيء هو لك ولا تكتمْه . فشاطرَه ماله بأجمعه ، حتى بقيت نعلاه ، فأخذ إحداهما وترك الأخرى ! فغضب عمرو بن العاص فقال : يامحمد بن مسلمة ، قَبّح اللهُ زماناً عمرو بنُ العاص لعمرَ بن الخطاب فيه عامل . والله إنى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحطب وعلى ابنه مثلُها ، وما منهما إلا فى نَمِرَةٍ [(١)] لا تبلغ رُسْغَيْه ؛ والله ما كان العاص بن وائل يَرضى أن يلبس الديباج مزوراً [(٢)] بالذهب .

قال له محمد : اسكت ، والله إن عمر لخيرٌ منك ، وأما أبوك وأبوه ففى النار ، والله لولا الزمان الذى سبقك به لألفيت مُقْتعد شاة يسرك غَزْرُها [(٣)] ويسوءك بَكْؤُها [(٤)] . فقال عمرو : هى عندك بأمانة الله . فلم يخبر بها عمر

وأبوسفيان فى مال وأدم

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال : بعث معاويةُ إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمالٍ وأدهم ، وكتب إلى أبيه أبى سُفيان أن يدفع ذلك إلى عمر ـ يعنى بالأدهم القيد ـ وكتب إلى عمر يقول : إنى وجدت فى حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد ـ أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ـ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد . قال جرير : « ... ... أو لجدل الأداهم [(٥)]

(١) النمرة : بردة من صوف تلبسها الأعراب .
(٢) مزورا : مزينا .
(٣) غزرها : درّها .
(٤) بكؤها : قلة لبنها .
(٥) البيت :

هو القين وابن القين لا قين مثله   لبطح المساحى أو لجدل الأداهم

فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدم . قال : فذهب أبو سفيان بالأدم والكتاب إلى عمر واحتبس المال لنفسه . فلما قرأ عمر الكتاب ، قال : فأين المال يا أبا سفيان ؟ قال : كان علينا دَين ومَعونة ، ولنا في بيت المال حق ، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به . فقال عمر : اطرحوه في الأدم حتى يأتي بالمال . قال : فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال . فأمر عمر بإطلاقه من الأدم . قال : فلما قدم الرسول على معاوية قال له : رأيتَ أمير المؤمنين أُعجِبَ بالأدم ؟ قال : نعم ، وطَرح فيه أباك . قال : ولِمَ ؟ قال : جاءه بالأدم وحَبَس المال ؛ قال : إي والله ، والخطّاب لوكان لطرحه فيه !

عمر وأبو سفيان في مال حاول إخفاءه

زار أبو سفيان معاوية بالشام ، فلما رجع من عنده دخل على عمر فقال : أجِزْنا أبا سفيان . قال : ما أصَبْنا شيئا فنُجيزك به . فأخذ عمر خاتَمه فبعث به إلى هِند ، وقال للرسول : قل لها : يقول لك أبو سفيان : انظرى إلى الخُرْجَيْن اللذين جئتُ بهما فأحضريهما . فما لبث عمر أن أُتِيَ بخرجين فيهما عشرةُ آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال . فلما ولِيَ عثمان ردّهما عليه . فقال أبو سفيان : ما كنت لآخذ مالاً عابَه عليّ عمر .

عمر وعتبة في مال وجده معه

ولما ولّى عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان الطائفَ وصدقاتِها ثم عزله ، تلقّاه في بعض الطريق ، فوجد معه ثلاثين ألفا ، فقال : أنى لك هذا ؟ قال : والله ما هو لك ولا للمسلمين ، ولكنه مال خرجتُ به لضيعةٍ أشتريها . فقال عمر : عاملُنا وجدنا معه مالا ، ما سبيلُه إلا بيت المال . ورفعه ؛ فلما ولِيَ عثمان قال لعتبة : هل لك في هذا المال ، فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجها ؟ قال : والله إن بنا إليه لحاجة ، ولكن لا تَرُدَّ على من قبلَك فيَرُدَّ عليك مَن بعدك .

عمر وأبو سفيان في رجل دعا بدعاء الجاهلية

القَحْذَميّ[1] قال ضَرب عمر رجلاً بالدرّة ، فنادى : يا لَقُصيّ ! فقال أبو سفيان : يابن أخي ، لو قبل اليوم تنادى قصيًّا لأتتك منها الغطاريف . فقال له عمر : اسكت لا أبا لك . قال أبو سفيان : ها ، ووضع سبّابته على فيه .

---

(١) هو الوليد بن هشام القحذمى .

كتاب يزيد إلى مروان يأمره بالبيعة

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكؤٌ فى بيعته - : أما بعد، فإنى أراك تقدّم رجلا وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأتته بيعته.

أبو غسان وأهل مرو حين منعوا الماء

ولما منع أهلُ مَرو أبا غسان الماء وزجّته إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان: إلى بنى الأستاه من أهل مرو؛ ليُمسينى الماء أو لتُصبِّحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال: الصدق يُنبئ عنك لا الوعيد.

كتاب ابن طاهر إلى الحسن التغلبى

وكتب عبد الله بن طاهر الخراسانىّ إلى الحسن بن عمر التغلِبىّ: أما بعد، فقد بلغنى ما كان مِن قَطْع الفَسَقَة الطريق ما بلغ، فلا الطريقَ تَحمِى، ولا اللصوص تَكفِى، ولا الرعيةَ تُرضِى، وتطمع بعد هذا فى الزيادة! إنك لَمنفسح الأمل. وأيم الله لتكفينى مَن قِبَلك أو لأوجّهن إليك رجالا لاتعرف مُرّةَ من جَهم[1] ولا عَدىَّ من رُهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب الحجاج إلى قتيبة فى أمر وكيع

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيعَ بن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصا بسِجِسْتانُ، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابى هذا: فاهدم بناءه، واحْلُلْ لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله. وولى الضّبىَّ عمَّ مسعود بن الخطاب.

كتاب الحجاج إلى قوم يفسدون فى الأرض

وبلغ الحجاجَ أن قوما من الأعراب يُفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد: فإنكم قد استخفّتكم الفتنة، فلا عن حق تُقاتلون. ولا عن منكر تَنْهَوْن، وإنى أَهُم أن ترِدَ عليكم منى خيلٌ تَنسِف الطارفَ والتالد، وتدَعُ النساء أيامَى والأبناء يتامى والديار خرابا! فلما أتاهم كتابه كفّوا عن الطريق.

التعرّض للسلطان والردّ عليه

للحكماء

قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تخطاه. وشبهوه

(١) فى نهاية الأرب «جشم».

فى ذلك بالريح العاصفة التى لا تضر بما لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش . وما استهدف لها من الدوح العظام قصفته . قال الشاعر :

إنّ الرياح إذا ما أعصفتْ قصفتْ ٭ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يعْبأن بالرَّتمِ [1]

لحبيب

وقال حبيب بن أوس ، وهو أحسن ما قيل فى السلطان :

هو السَّيْل إن واجهْتَه انْقدتَ طَوْعَه ٭ وتَقتاده مِن جانبَيه فيَتْبَعُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

هو السَّيف إن لاينْته لان مَتْنُه ٭ وحَدَّاهُ إن خاشنْتَهُ خَشِنان

بين معاوية وأبى الجهم

وقال معاوية لأبى الجهم العدوىّ : أنا أكبر أم أنت ؟ فقال : لقد أكلتُ فى عُرسِ أمِّك يا أمير المؤمنين . قال : عند أىِّ أزواجها ؟ قال : عند حفص بن المُغيرة . قال : يا أبا الجهم ، إيّاك والسلطان ، فإنه يغضب غضب الصبىّ ويأخذ أخْذَ الأسد .

وأبو الجهم هو القائل فى معاوية :

ونُغضِبه لنَخْبُرَ حالتَيه ٭ فنخبُر منهما كرماً ولِينَا

نَميلُ على جَوانبه كأنَّا ٭ نَميلُ إذا نَميل على أبِينا

معاوية وعقيبة الأسدى

وقدم عُقَيبة الأسدى على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات :

مُعَاوِىَ إننا بشر فأسْجِحْ ٭ فلسنا بالجبال ولا الحديدِ

أكلْتُم أرضَنا فجرَدْتموها ٭ فهل مِن قائمٍ أو من حصيدِ

أتَطْمَع بالخُلود إذا هلكنا ٭ وليس لنا ولا لك من خُلُودِ

فهَبْنا أُمّةً هلكت ضَياعًا ٭ يَزِيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

فدعا به معاوية فقال : ما جرّأك علىّ ؟ قال : نَصَحْتُك إذ غَشوك ، وصدّقتك إذ كذَبوك . فقال : ما أظنك إلا صادقا ، وقضى حوائجه .

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال : خطب أبو جعفر المنصور ،

---

(١) سبقت هذه العبارة فى ص ١٣ مع تغيير يسير .

فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، اتقوا الله . فقام إليه رجل من عُرض النـاس فقال : أذكّرك الله الذى ذكّرتنا به يا أمير المؤمنين . فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا رويّة : سمعا وطاعة لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أُذكَّر به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم ﴿لقد ضَللتُ إذاً وما أنا من المهتدين﴾ . وأمّا أنت ، فوالله ما الله أردتَ بهـا ، ولكن ليقال : قال فعوقبَ فصبر ! وأهوِنْ بهـا لو كانت ، وأنا أحذّرُكم أيها الناس أختها ؛ فإن الموعظة علينا نزلت ، ومنا أُخِذَت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

الرشيد ومعترض عليه فى خطبته

وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة ، فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عندَ الله أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُون ﴾ فأمر به فضُرِب مائة سوط ، فكان يئنّ الليل كله ويقول : الموت ! الموت . فأُخبر هارون أنه رجل صالح ، فأرسل إليه فاستحلّه ، فأحلّه .

الوليد ومعترض عليه فى خطبته

المدائنى قال : جلس الوليد بن عبد الملك على المِنبر يومَ الجمعة حتى اصفرّت الشمس ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوقت لا ينتظرك ، وإنّ الرب لا يَعذِرُك . قال : صدقت ، ومَن قال مثلَ مقالتك فلا ينبغى له أن يقوم مثل مَقامك . من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضربُ عنقَه ؟

مخاطر بين معاوية وزياد

الرياشىّ عن الأصمعى قال : خاطر رجل رجلا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يدَه على كَفَله ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما أشبه عَجِيزتَك بعجيزةِ أُمّك هند ! ففعل ذلك . فلـما انفتل معاوية عن صلاته قال :

يابن أخى ، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أَمْيَل ؛ فخذْ ما جعلوا لك . فأخذه .

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو فى الخطبة فيقول له : أيهـا الأمير ، من أبوك ؟ ففعل . فقال له زياد : هذا يُخبرك ـ وأشار إلى صاحب الشُّرْطة ـ فقدمه فضَرَب عُنقَه . فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيرى ، ولو أدبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانية .

ابن العاص ومخاطر سأله عن أمه

وخاطر رجلٌ أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيقول : أيها الأمير ، من أمّك ؟ ففعل . فقال له : النابغةُ بنتُ عبد الله ، أصابتها رماحُ العرب فبيعتْ

بعُكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدْعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ؛ فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه .

بين معاوية وخريم

دخل خُرَيم الناعم على معاوية بن أبي سفيان ، فنظر معاوية إلى ساقيه فقال : أيّ ساقين ! لو أنهما على جارية ! فقال له خريم : في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين ! قال : واحدة بأخرى والبادئ أظلم .

تحلّم السلطان

على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

أبو جعفر مع مالك وابن طاوس

زياد عن مالك بن أنس قال : بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاوس ؛ فأتيناه فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِّدت ، وبين يديه أنطاع قد بُسِطت ، وجلاوزة[1] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن آجلسا ، فجلسنا . فأطرق عنا طويلا[2] ، ثم رفع رأسه والتفت إلى آبن طاوس فقال له : حدّثني عن أبيك . قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشرَكَه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْرَ في عدله » . فأمسك ساعة ؛ قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عِظْني يابن طاوس قال : نعم يا أمير المؤمنين ، [إنّ] الله تعالى يقول ﴿ ألم ترَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العِمادِ ﴿ التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البِلادِ ﴿ وثَمودَ الذينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ ﴿ وفِرْعَونَ ذِي الأوْتادِ ﴿ الذين طَغَوْا في البِلادِ ﴿ فأَكْثَرُوا فيها الفَسَادَ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَاب ﴿ إنّ رَبَّكَ لَبالمِرْصَادِ ﴾ قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . فأمسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس ناولني هذه الدواة . فأمسك عنه . ثم قال : ناولني هذه الدواة .

(١) الجلاوزة : الشرطة .
(٢) في بعض الأصول « قليلا » .

فأمسك عنه ؛ فقال : ما يمنعك أن تناوِلَنيها ؟ قال : أخشى أن تكتُب بها معصية لله فأكونَ شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال : قُوما عني . قال ابن طاوس : ذلك ماكنا نبغى منذ اليوم .

قال مالك : فما زلتُ أعرفُ لابن طاوس فضلَه .

أبو هريرة ومروان حين أبطأ بالجمعة

أبو بكر بن أبى شيبة قال : قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له : أتظلّ عند ابنة فلان تُرَوِّحُك بالمَرَاوح وتَسقيك الماء البارد ، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحرّ ؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل ، ثم قال : اسمعوا من أميركم .

بين أبى جعفر وأبى ذئب

فرج بن سلام عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : حدّثنى رجل من أهل المدينة كان ينزل بشق بنى زُرَيْق ، قال : سمعت محمد بن إبراهيم يحدّث قال : سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش ؛ فقالوا لأبى جعفر : اجعل بيننا وبينه ابن أبى ذئب . فقال أبو جعفر لابن أبى ذئب : ما تقول فى بنى فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيتٍ أشرار . قالوا : اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد . وكان عامله على المدينة . قال : ما تقول فى الحسن بن زيد ؟ قال : يأخذ بالإحنة ويقضى بالهوى . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشرّ ، قال : ما تقول فىّ ؟ قال : أعْفِنى . قال : لا بدّ أن تقول . قال : لا تعدلُ فى الرعية ، ولا تقسم بالسويّة . قال : فتغير وجهُ أبى جعفر . فقال إبراهيم بن يحيى ابن محمد بن على صاحب الموصل : ذَرْنى بدمه يا أمير المؤمنين . قال : اقعد يا بنىّ ، فليس فى دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله ذَهور . قال : ثم تدارك ابن أبى ذئب الكلامَ فقال : ياأمير المؤمنين ، دعنا مما نحن فيه ؛ بلغنى أنّ لك ابناً صالحاً بالعراق ، يعنى المهدى قال : أما إنك قلت ذلك ، إنه الصوّام القوّام البعيد ما بين الطرفين[1] قال : ثم قام ابنُ أبى ذئب فخرج ، فقال أبو جعفر : أما والله ماهو بمَوثوق العقل ، ولقد قال بذات نفسه.

(١) بعد الطرفين : كناية عن شرف النسب .

قال الأصمعى : ابن أبى ذئب ، من بنى عامر بن لؤى ، من أنفُسهم .

المأمون والحارث بن مسكين

قال : ودخل الحارثُ بن مِسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد ، وذكر قوله فلم يُعجب المأمون . فقال : لقد تَيَّست فيها وتَيَّس مالك . قال الحارثُ بن مسكين : فالسامعُ يا أمير المؤمنين من التَّيسين أَتْيَس ؛ فتغيَّر وجه المأمون . وقام الحارثُ بن مسكين فخرج وتندَّم على ما كان من قوله ، فلم يستقرّ فى منزله حتى أتاه رسولُ المأمون ، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه ؛ ثم أقبل حتى دخل عليه ، فقرّبه المأمونُ من نفسه ، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له : ياهذا ، إن الله قد أمر مَن هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شرٌّ منى ، فقال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون : ﴿ فقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ قال : يا أمير المؤمنين ، أبوء بالذَّنب ، وأستغفرُ الرب . قال : عفا الله عنك ، انصرِف إذا شئتَ .

المنصور وأبو سفيان الثورى

وأرسل أبو جعفر إلى سُفيان الثّوريّ ، فلما دخل عليه قال : عِظنى أبا عبد الله . قال : وما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فأَعظَكَ فيما جهلْتَ ؟ فما وجد له المنصور جوابا .

أبو النضر وعامل للخليفة

ودخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبد الله على عامل للخليفة ، فقال له أبا النضر ، إنّا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد بدًّا من إنفاذها ، فما ترى ؟ قال له أبو النضر : قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة ؛ فأيُّهما اتبعتَ كنتَ من أهله .

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشَّعبيّ . أنّ زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغِفاريّ ، وكان على الصائفة [1] : إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له الصفراء والبيضاء ، فلا تَقسم بين الناس ذهباً ولا فضة [واقسم ما سوى ذلك [2]] فكتب إليه : « إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين .

(١) الصائفة : الغزاة فى الصيف .
(٢) التكملة من البيان والتبيين .

والله لو أن السموات والأرض كانتا رَتقاً على عبد فاتّقى الله لجعل له منها مخرجا ، ثم نادى فى الناس فقسّم فيهم ما اجتمع له من الفىء .

ابن هبيرة والحسن البصرى والشعبي

ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابنُ هبيرة وإلى الشعبي فقال له : ما ترى أبا سعيد فى كُتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعضُ مافيها ، فإن أنفذتها وافقتُ سخط الله ، وإن لم أنفذها خشيت على دمى ؟ فقال له الحسن : هذا عندك الشعبيّ فقيه الحجاز . فسأله فرقّق له الشعبيّ وقال له : قارب وسدّد ، فإنما أنت عبد مأمور ، ثم التفت ابنُ هبيرة إلى الحسن وقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال الحسن : يابن هُبيرة ، خَفِ الله فى يزيدَ ولا تخف يزيد فى الله . يابن هبيرة ، إن الله مانِعُكَ من يزيد وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله . يابن هبيرة ، لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فانظر ما كتبَ إليك فيه يزيدُ فأعرضه على كتابِ الله تعالى ، فما وافق كتابَ الله تعالى فأنفذه ، وما خالف كتابَ الله فلا تُنفذه ؛ فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه . فضرب ابن هبيرة يده على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صَدَقنى وربّ الكعبة . وأمر للحسن بأربعة آلاف ، وللشعبي بألفين ؛ فقال الشعبي : رقّقنا فرقق لنا . فأما الحسن فأرسل إلى المساكين ، فلما اجتمعوا فرّقها ، وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها .

معاوية والأحنف فى استخلاف يزيد

ونظير هذا : قولُ الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره فى استخلاف يزيد . فسكت عنه ، فقال : مالك لاتقول ؟ فقال : إن صدّقناك أسخطناك ، وإن كذّبناك أسخطنا الله ، فسُخْطُ أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله ! فقال له : صدقت .

كتاب أبى الدرداء إلى معاوية

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أما بعد . فإنه مَن يلتمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومَن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس .

كتاب عائشة إلى معاوية

وكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية : أما بعد فإنه من يعمل بمساخط الله يصرْ حامدُه من الناس ذامًّا له . والسلام .

هشام وناصح نصحه بأربع

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزُّهري يوماً من عند هشام بأربع، قيل له: وما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك واستقامة رعيتك. فقال: هاتهن. فقال: لا تَعِدَنّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال لا يَغُرَّنّك المرتقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنحَدَرُ وعْرا. قال: هات الثالثة. قال: واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب. قال: هات الرابعة. قال: واعلم أن الأمور بَغَتاتٌ فكن على حذر.

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم! فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستَوْصِ به خيرا.

عبد الملك والحارث في ابن الزبير

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذّاب في كذا وكذا؟ ـ يعني ابن الزبير ـ؛ فقال: ما كان كذابا. فقال له يحيى بن الحكم: من أُمك يا حار؟ قال: هي التي تعلم. قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أُمك.

الوليد ابن عبدالملك والزهري

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديثٌ يحدّثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم على الله أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال بل نبيّ خليفة. قال: فإن الله يقول لنبيه داود: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة؛ فما ظنك بخليفة غير نبيّ؟ قال: إن الناس ليُغْرونَنا عن ديننا.

بين ابن يسار وعبد الملك

الأصمعي عن إسحاق بن يحيى عن عطاء بن يسار قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: «وددتُ أني خرجت من هذا الأمر كفافا لا عليّ ولا لي».

فقال : كذبت . فقلت : أوَ كُذِّبْتُ ! فما أفلتُّ منه إلا بجُرَيْعَةِ الذَّقن[1]

المشورة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما ندم من استشار ، ولا شقى من استخار .

من كلام الله تعالى

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه فى الرأى ، فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ؛ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ .

عثمان وثقيف لما همت بالارتداد

ولما هَمَّتْ ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمانَ بن أبي العاصى ، وكان مطاعا فيهم ؛ فقال لهم لا تكونوا آخرَ العرب إسلاما وأولهم ارتداداً ؛ فنفعهم الله برأيه .

لبعض الحكماء فيما ينفع ويضر

وسئل بعضُ الحكماء : أىُّ الأمور أشد تأييداً للفتى[2] وأيها أشد إضراراً به ؟ فقال : أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء : مُشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحُسن التثبُّت . وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء : الاستبداد ، والتهاون ، والعجلة .

بين حكيم وحكيم

وأشار حكيم على حكيم برأى فقبله منه . فقال له : لقد قلتَ بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حُلوَ كلامه بمرِّه ، وسهله بوَعْره ، ويحرّك الإشفاقُ منه ما هو ساكنٌ من غيره ، وقد وعيتُ النصح وقبلتُه ؛ إذ كان مصدره من عند مَن لا يُشَكُّ فى مودته وصفاء غيبه ونُصْح حبيبه . ومازلتَ بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحا ، ومناراً بيِّنا .

للراسبي فى الرأى الفطير

وكان عبد الله بن وهب الراسبيّ يقول : إياكم والرأىَ الفطيرَ . وكان يستعيذ بالله من الرأى الدَّبَرِىّ[3] الخمير .

لعلى فى رأى الشيخ

وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه يقول : رأىُ الشيخ أحسن من مشهد[4] الغلام .

---

(١) مثل يضرب لمن نجا من التلف وقد أشرف .

(٢) فى نهاية الأرب (٦ : ٧٠) : « للعقل » .

(٣) الرأى الدبرى : الذى يسنح بعد فوات الفرصة .

(٤) كذا فى بعض الأصول وعيون الأخبار والذى فى سائر الأصول ونهاية الأرب « جلد »

لابن هبيرة يوصى ابنه

وأوصى ابنُ هُبيرة ولده فقال : لا تكن أول مُشير ، وإياك والهوى والرأى الفطير . ولا تشيرَنّ على مستبد [ولا على وغد ولا على مسكون ولا على لجوج ، وخف الله فى موافقة هوى المستشير][1] ، فإن التماس موافقته لؤم ، والاستماع منه خيانة .

لعامر بن الظرب

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأى يغِبّ حتى يختمر ، وإياكم والرأى الفطير . يريد الأناة فى الرأى والتثبّت فيه .

من أمثالهم

ومن أمثالهم فى هذا قولهم : لا رأى لمن لا يُطاع .

للمهلب فى الرأى

وكان المهلّب يقول : إن من البليّة أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يُبصره .

لعبس فى الحزم

العتبى قال : قيل لرجل من عَبس : ما أكثرَ صوابَكم ؟ قال : نحن ألف رجل وفينا حازمٌ واحد ، فنحن نشاوره ، فكأنّا ألفُ حازم .

لبعض الشعراء

قال الشاعر :

الرأى كالليل مُسودٌّ جوانبُه ✽ والليل لا يَنْجَلِى إلا بإصباح
فاضمُمْ مصابيحَ آراء الرجال إلى ✽ مصباح رأيك تَزْدَدْ ضوء مِصْباح

عبد الله بن عبد الأعلى بعد سخط الخليفة عليه

العتبى قال : أخبرنى من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخلٍ على الخليفة وآخرُ خارج من عنده . قال : ثم رأيته وإنه ليُتّقَى كما يُتّقَى البعيرُ الأجربُ ، فقال لى : يا أخا العراق ، اتّهمنا القومُ فى سريرتنا ، ولم يقبلوا منا علانيَتنا ، ومِن ورائهم وورائنا حكَمٌ عَدْل .

لسبيع فى أهل اليمامة

ومن أحسن ما قيل فيمن أُشير عليه فلم يقبل ، قولُ سُبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بهم : يابَنى حَنيفة ، بُعْداً لكم كما بَعِدَتْ عاد وثمود . أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه ، كأنى أسمع جَرْسَه وأُبصر غَيْبَهُ ، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة . وإنى لما رأيتكم تتهمون النَّصيح وتُسَفِّهون الحليم ، استشعرتُ

(١) التكملة من البيان والتبيين .

منكم اليأس وخِفتُ عليكم البلاء . والله ما منعكم الله التوبة ولا أخذكم على غِرّة ، ولقد أمهلكم حتى مَلّ الواعظُ ووهن الموعوظ ، وكنتم كأنما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم ، فأصبحتم وفى أيديكم من تكذيبي التصديق ، ومن نصيحتى الندامة ؛ وأصبح فى يدى من هلاككم البكاء ، ومن ذُلّكم الجزع . وأصبح ما فات غيرَ مردود ، وما بقى غيرَ مأمون .

للقطامى — وقال القُطامىّ فى هذا المعنى :

ومَعْصيةُ الشّفيق عليك ممّا * يزيدك مرّة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلتَ منه * وليس بأن تَتَبّعه اتّباعا
كذاك وما رأيت الناسَ إلا * إلى ما جرّ غاويهم سراعا
تراهم يغمزون من استركُّوا * ويجتنبون من صدق المِصَاعا[1]

وكان يقال : لا تستشر معلما ولا حائكا ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء .

وأنشد فى المعلمين :

وكيف يُرجّى العقلُ والرأىعند من * يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل

وكان يقال : لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها .

وكان يقال : لارأى لحاقن ولا حازق : وهو الذى ضغطه الخف . ولا لحاقب وهو الذى يجد رِزًّا فى بطنه .

وينشد فى الرأى بعد فوته :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته * حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرا

شعر المؤلف — ومن قولنا فى هذا المعنى :

فلَئِنْ سَمِعتَ نصيحتى وعَصيتَها * مَاكُنتُ أولَ نَاصِحٍ مَعْصِىّ

لحبيب — وقال حبيب فى بنى تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم :

لمْ يألُكم مالكٌ صَفحًا ومَغْفِرةً * لوْكانَ يَنْفخ قَيْنُ الحَىّ فى فَحم

---

(١) المصاع : المقاتلة والمجالدة بالسيف .

حفظ الأسرار

للحكماء

قالت الحكماء : صدرُك أوْسَعُ لسرّك من صدر غيرك .

وقالوا : سرّك من دمك . يعنون أنه ربمـا كان فى إفشائه سَفْكُ دَمك .

من عبد الملك إلى الحجاج

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف :

ولا تُفْشِ سِرَّك إلا إليـك ... فإنَّ لكُل نَصِيحٍ نَصِيحَا
وإنى رَأَيْتُ غُـــواةَ الرجا ... لِ لا يَتْرُكونَ أَدِيماً صَحِيحَا

للحكماء

وقالت الحكماء : ماكنتَ كاتِمَه من عَدُوِّكَ فلا تُطلع عليه صديقك .

لعمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص : ما استودعتُ رجلا سرًّا فأفشاه فلُمْتُه ؛ لأنى كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعتُه إياه حين أفشاه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذى يُسْتودع السر أضيق

لبعض الأعراب

قيل لأعرابى : كيف كتمانك للسر ؟ قال : أجحد المُخْبِر وأحلف للمستخبِر .

وقيل لآخر : كيف كتمانك للسر ؟ قال : ماقلبى له إلا قبر .

للمأمون

وقال المـأمون : الملوك تحتمل كل شىء إلا ثلاثة أشياء : القدْح فى الملوك ، وإفشاء السر ، والتعرّض للحُرَم .

وقال الوليد بن عُتبة لأبيـه : إن أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثا ، أفلا أُحدثك به ؟ قال لا ، يابنى ، إنه من كتم سره كان الخيار له ، [ومن أفشاه كان الخيار عليه (١)] فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا .

ملك من ملوك العجم استشار وزيريه

وفى التاج أنّ بعض ملوك العَجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : لا ينبغى للملك أن يَستشير منّا أحداً إلا خالياً به ؛ فإنه أَمْوَتُ للسر ، وأحزم للرأى ، وأجدر بالسلامة ، وأعفَى لبعضنا من غائلة بعض ؛ فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحدٍ أَوْثقُ من إفشائه إلى اثنين ، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ؛ لأن

(١) التكملة من عيون الأخبار .

الواحد رَهنٌ بما أُفشِيَ إليه ، والثانى مطلِقٌ عنه ذلك الرهنَ . والثالث عِلاوة فيه . فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يُظهره رغبة ورهبة ، وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة ، واتسعت على الرجلين المَعاريض . فإن عاقَبهما عاقَبَ اثنين بذنبٍ واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرِم ، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخَرِ ولا حُجة معه [1]

لبعض الشعراء

ومن أحسن ماقالت الشعراء فى السر قولُ عمر بن أبى ربيعة :

فقالَتْ وأرْخَتْ جانِبَ السِّتْر : إنما * معى فتَحدَّثْ غَيْرَ ذِى رِقْبَةٍ أَهْلِى
فقُلْتُ لها : مابى لهم من تَرَقُّبٍ * ولكِنَّ سِرِّى ليس يَحْمِله مِثْلِى

وقال أبو مِحْجن الثقفى :

لاتسألى الناسَ عن مالى وكَثْرته * وسائِلى الناسَ عن بَأْسِى وعن خُلُقِى
قَدْ أَطْعَن الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ * وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

وقال الحطيئة يهجو :

أَغِرْبَالًا إذَا اسْتُودِعْت سِرًّا * وكانُونًا على المُتحدِّثِينَا

الإذن

يزيد زياد وحاجبه

قال زيادٌ لحاجبه عَجْلان : كيف تأذنُ للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأسنان ، ثم على الآداب . قال : فمن تُوَخِّر ؟ قال : مَن لا يَعْبَأُ اللهُ بهم . قال : ومَن هم ؟ قال : الذين يلبَسون كُسوةَ الشتاء فى الصيف وكسوةَ الصيف فى الشتاء .

لسعيد بن عتبة فى بعده عن الآذن

وكان سعيد بن عُتبة بن حُصين إذا حضر باب أحدٍ من السلاطين جلس جانباً ؛ فقيل له : إنك لتَتَباعد من الآذِن جُهْدَك ؛ قال : لَأَنْ أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب . ثم قال [2] :

(١) انظر عيون الأخبار ونهاية الأرب والوزراء والكتاب للجهشيارى .
(٢) الشعر للبعيث بن حريث (انظر الحماسة) .

وإنّ مَسيرى فى البِلاد ومَنْزِلى ... هو المنزلُ الأقصى إذا لم أُقرَّبِ
ولست وإن أُدنيتُ يوماً بِبائعٍ ... خَلاقى ولا دينى ابْتغاء التَّحبُّبِ
وقد عــدّهُ قومٌ تجارةَ رابح ... ويمنعنى من ذاك دِينى ومَنْصِبى

لبعض الشعراء

وقال آخر :

رأيتُ أُناساً يُسرعون تَبادراً ... إذا فتح البوابُ بابك إصْــبَعَا
ونحن جلوسٌ ساكنون رزانةً ... وحِلماً إلى أنْ يُفتحَ البابُ أجمعا [١]

بين معاوية وابن الأشعث فى الدخول على الملوك

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأَذِن للأحنف ، ثم أذن لآبن الأشعث ، فأسرع فى مِشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله . فلما رآه معاويه غَمّه ذلك وأحْنَقَه ، فالتفت إليه فقال : والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنا كما نلى أمورَكم نلى آدابَكم ، ولا يزيدُ مُتَزَيّدٌ فى خطوه إلا لنقصٍ يجده من نفسه .

وقال همام الرقاشى [٢] :

أَبْلِغْ أبا مِسمَعٍ عنى مغلغلة ... وفى العتاب حَيــاةٌ بين أقوامِ
قدمْت قَبلى رجالا ما يكون لهم ... فى الحقّ أنْ يَلِجُوا الأبواب قدامى
لَوْ عُدّ قبر وقبر كنت أقربَهم ... قُربى وأبعدَهمْ مِن مَنزل الذّامِ
حتى جَعلتُ إذا ماحاجةٌ عَرَضتْ ... بِبابِ قصْرِكَ أدْلُوها بِأَقوامِ [٣]

لمعاوية فى آذنه

قيل لمعاوية : إن آذِنَك يقدم معارفه فى الإذن على وجوه الناس . قال : وما عليه ؟ إنّ المعرفة لتنفع فى الكلب العقور والجمل الصَّؤول ؛ فكيف فى رجل حَسيبٍ ذى كرم ودين ؟

للحكماء فى الوصول إلى المراد

وقالت الحكماء : لا يُواظب أحد على باب السلطان فيُلقِى عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته .

---

(١) الشعر للحصين بن المنذر (انظر البيان والتبيين) .
(٢) فى نسبة هذه الأبيات خلاف كبير بين ابن قتيبة والجاحظ وصاحب تاج العروس
(٣) أدلوها بأقوام : أستشفع بهم .

وقالوا : من أدمن قَرْع الباب يوشك أن يُفتَحَ له .

وقال الشاعر(١) :

كم من فتًى قصَّرت فى الرزق خُطوته * أصبتُه بسهام الرزق قد فَلَجَا
إن الأمور إذا انسدّت مسالكها * فالصبر يفتق منهـــا كل ما ارتتجا
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبةٌ * إذا استعنت بصـــبر أن ترى فرجا
أخْلِقْ بذى الصبْرِ أنْ يحظى بحاجَته * ومُدْمن القَرْع للأبواب أن يَلِجا

بين رجل وروح

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم واقفاً فى الشمس عند باب المنصور ؛ فقال له : لقد طال وقوفك فى الشمس . فقال : ذلك ليطولَ جلوسى(٢) فى الظل .

بين رجل والحسن بن عبد الحميد

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يُزاحم الناسَ على باب محمد بن سليمان ، فقال : أمثلك يَرضى بهذا ! فقال :

أُهِينُ لهم نفسى لأُكْرِمها بهم * ولا يُكرم النفسَ الّذى لا يُهينُها

من كلام للهند

وفى كتاب للهند : إن السلطان لا يقرِّب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبُعدهم ، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم ، فيُقرِّب البعيد لنفعه ، ويُبعد القريبَ لضُرِّه . وشَبَّهوا ذلك بالجُرَذِ الذى هو فى البيت مجاور ، فمن أجل ضرِّه نُفى ، والبازى الذى هو وحشىّ ، فمن أجل نفعِه اقْتُنى .

بين النبى صلى الله عليه وسلم ومستأذن

استأذن رجل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال : أألج ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرُج إلى هذا فَعَلِّمه الاستئذان وقل له يقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاث ، فإن أُذِن لك وإلا فارْجع .

لعلى كرم الله وجهه

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . الأولى إذْن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزمة ، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع .

(١) ينسب هذا الشعر لبشار بن برد ، ولمحمد بن بشير ، على خلاف فى ذلك .
(٢) كذا فى نهاية الأرب وفى الأصل : ليطول وقوفى ، والذى اخترناه أجود

الحجّاب

زياد وحاجبه

قال زياد لحاجبه : يا عجلان ، إنى وليتك حِجَابتى وعزلتك عن أربع : هـذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح ، لاتحجبه عنى فلا سُلطان لك عليه ، وطارق الليل لاتحجبْه ، فشر ماجاء به ولو كان خيرا ما جاء به تلك الساعة ؛ ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عملَ سنة ، فأَدْخِلْه علىّ وإن كنتُ فى لحافى ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينُه فَسَد .

أبو سفيان بباب عثمان

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين لحجبه ؛ فقال له رجل وأراد أن يُغْرِيه : يا أبا سـفيان ماكنت أرى أن تقف بباب مُضَريّ فيحجُبَك ، فقال أبو سفيان : لاعدِمتُ مِن قومى من أقف ببابه فيحجبنى .

أبو الدرداء ببابه معاوية

استـأذن أبو الدرداء على معاوية لحجبه ؛ فقال : من يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعد ، ومن يجد باباً مُغلقا يجد إلى جانبه بابا مفتوحا ، إن دَعَا أُجِيبَ وإن سأل أُعْطِى .

للوراق

قال محمود الوراق :

شـاد الملوك قصورهم فتحصنوا * من كل طالب حاجة أو راغب
غالَوْا بأبْواب الحـديد لِعزِّها * وتنوَّقوا فى قُبْح وجه الحَاجِب
فإذا تَلطَّف للدُّخول عليهم * راج تَلقَّوْه بوعـد كاذِبِ
فاطْلُب إلى ملك الملوك ولا تكن * بَادِى الضراعَة طالبا مِنْ طالبِ

بين سعيد بن مسلم وأبى هفان فى الحجاب

سعيد بن مسلم ، قال : كنت والياً بإرمينية ، فغبر أبو هفان أياما ببابى . فلما وصل إلىّ مَثَل قائما بين السماطين وقال : والله إنى لأعرف أقواما لو علموا أن سَفّ التراب يُقيم من أَوَدِ أصلابهم لجعلوه مُسْكَةً لأرماقهم إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشى . أما والله إنى لبعيد الوثبة ، بطىء العطفة . إنه والله لا يثنينى عنك إلا ما يصرفك عنى ، ولأَنْ أكون مُقِلاً مُقرَّباً أَحَبُّ إلىّ من أن أكون

مُكْثِراً مبعداً ؛ والله ما نسأل عملا لا نضبطه ، ولا مالا إلا ونحن أكثرُ منه ؛ وهذا الأمر الذى قد صار إليك وفى يديك قد كان فى يدى غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إنْ خيراً فخير وإن شرا فشر . فتحبّبْ إلى عباد الله بحسن البِشر ولينِ الجانب وتسهيلِ الحجاب ، فإن حُبّ عِبادِ الله موصولٌ بحب الله ، وبُغضَهم موصولٌ ببغضه ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورقباؤه على من اعوَجّ عن سبيله .

بين أبى مسهر وابن عبدكان

أبو مسهر قال : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان فحجبنى ، فكتبت إليه :

إنى أتيتك للتّسليمِ أمسِ فلم ٭ تأذَنْ عليكَ لِى الأسْتار والحُجُب
وقد علمتَ بأنى لم أردّ ولا ٭ واللهِ ما رُدّ إلا العِلْمُ والأدبُ

فأجابنى ابن عبدكان ، فقال :

لو كنت كافأتَ بالحُسنى لقلت كما ٭ قال ابنُ أوْسٍ[1] وفيما قاله أدب
« ليس الحِجابُ بِمُقص عنك لى أمَلا ٭ إنّ السماء تُرجَّى حِين تحْتَجبُ »

ابن منصور ورجل من خاصته حجب عنه

وقف بباب محمد بن منصور رجلٌ من خاصته فحُجب عنه ؛ فكتب إليه :

علىَ أى باب أطْلب الإذنَ بعدما ٭ حُجبت عَن الباب الذى أنا حاجبُهْ

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن ، فقيل له : تكون لك عودة ، فقال :

لئنْ عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ ٭ سأصْرفُ وجهى حَيثُ تُبغى المكارِمُ
متى يَظفر الغادِى إليك بحاجة ٭ ونِصفُك محجوب ونصفك نائم ؟

للعتابى

ونظير هذا المعنى للعتابى حيث يقول :

قدْ أتيْناك للسّلام مرارًا ٭ غيرَ منّ منّا بذاك المزارِ
فإذا أنت فى استِتارك بالّليـ ٭ ـلِ على مثل حالنا بالنهارِ

أبو دلف ورجل حجب عنه

وقف رجل بباب أبى دُلَف ، فقام به حينا لا يصل إليه ، فتلطّف فى رقعة وأوصلها إليه ،

(١) هو أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائى .

وكتب فيها :

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ❊ فما فضل الكريم على اللئيمِ ؟

فأجابه :

إذا كان الكريمُ قليلَ مال ❊ ولم يعْـــذر تعلّل بالحجاب
وأبوابُ الملوكِ مُحجبـــاتٌ ❊ فلا تَسْتعْظمن حُجّابَ بابى

لحبيب

وقال حبيب الطائى فى الحجّاب :

سأترُك هـذا الباب ما دامَ إذنهُ ❊ على ما أرى ، حتى يلين قليـــلا
فمـا خاب من لم يأته متعمدًا ❊ ولا فاز مَن قدْ نالَ منـه وصولا
ولا جُعلتْ أرزاقنا بيـــد امرئ ❊ حمى بابَه من أن يُنال دُخولَا
إذا لم نجد للإذنِ عنـــدك مَوْضعًا ❊ وَجــدنا إلى ترك المجيء سبيلا

لأبى بكر العطار

وأنشد أبو بكر العطار :

مالك قد حُلت عن وَفائكَ واســـتبدلْتَ ياعمرُو شيمةً كدِرَهْ
لسْتُم ترجّون للحسابِ ولا ❊ يومَ تكونُ السماءُ منْفطرهْ
قد كان وجهى لديك معرفةً ❊ فاليوم أضحى باباً من النّكِرَهْ

لبعض الشعراء

وقال غيره :

أتيتـــكَ للتسليم ؛ لا أننى امرؤٌ ❊ أرَدْتُ بإتيانيـكَ أسبابَ نائِلكْ
فألفيت بوابًا يـابكَ مُغْـــرَما ❊ بهدمِ الذى وطّدتهُ من فضائلِكْ
وقد قال قومٌ : حاجبُ المرء عاملٌ ❊ على عرضهِ ؛ فاحذَرْ خيانةَ عاملِكْ

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

أيهـا الرّاكب المُغِذُّ إلى الفضـــلِ ترفقْ فدونَ فضلٍ حِجابُ
ونَعمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضْـــلِ فهل فى يديكَ إلا التّرابُ !

لمحمود البغدادى

وقال آخر ــ وهو محمود البغدادى :

حِجابكَ من مَهابَته عسيرٌ ❊ وخيرك فى اليدين غَدا يسيرًا

خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلّا * تُرَابا صارَ فى خُفَّى كثيرَا

للعتابى

وقال العتابى :

حِجابُكَ ليس يشبهه حِجابُ * وخيرك دون مَطلبِه السَّحابُ

ونومكَ نومُ من ورد المنايا * فليس له إلى الدنيا إيابُ

وقال غيره :

أنا بالباب واقف منذ أصبحـ * ـتُ على السَّرْج مُمسِكا بعنانى

وبعينِ البَوّاب كلُّ الذى بى * ويرانى كأنَّهُ لايرانِى

وقال غيره :

إذا ما أتيناهُ فى حاجةٍ * رَفعنا الرقاع له بالقَصبْ

لَهُ حاجبٌ دُونهُ حاجب * وحاجبُ حاجبه مُحتَجِبْ[1]

بين أبى بشير وبعض كتاب العسكر

قال أبو بشير[2] : حجبنى بعض كتاب العسكر ، فكتبت إليه : إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجابُ ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة ، وأرغب بك عن هذه الخليقة . وكل من قام فى منزلك ، عظم قدرهُ أو صَغُر . وحاولَ حِجَابَ الخليفة ، أمْكَنه ؛ فتأمَّلْ هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها فى أقبح صورة وأدنى منزلة .

لابن عبد ربه

وقد قلت فى ذلك :

إذا كنت تأتى المرء تعظم حقَّه * ويَجهل منك الحقّ فالهَجر أوسع

وفى النّاس أبدال وفى الهجر راحةٌ * وفى النّاس عمن لا يُواتيك مقنع

وإنّ امْرءا يَرضى الهوان لِنفسه * حَرِىٌّ بجدع الأنف والأنف أشنعُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

يا أبا مُوسَى وأنْت فتًى * ماجِـدٌ حُلْوٌ ضَرَائبُهُ[3]

---

(١) كذا فى نهاية الأرب ، والبيت هناك منسوب للعتابى وفى الأصل : « يحتجب » .

(٢) هو أبو بشير رازم مولى خالد بن عبدالله القسرى، وفى الأصول «أبو اليسير» وهو تحريف .

(٣) ضرائبه : سجاياه .

كن على منهاج معرفة ٭ إنّ وجه المرء حاجبهُ
فبه تبدو محاسنه ٭ وبه تبدو معايبه

لحسين الجمل

وأنشد حُسين الجمل ، وبَكَر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سَعْوة[1] وحَمْدَوِيه :

ولعمرى لئنْ حُجبْنا عن الشَّيْـــخ فلا عن وجهٍ هناك وجيهِ
لا ولا عن طعامه التافهِ النَّزْ ٭ رِ الذى حولهُ لطام بَنيه
بل حُجبنا به عن الخسف والمســـخِ وذاكَ التَّبْريق والتَّمويهِ
يَجْزى اللهُ حاجباً لك فظًّا ٭ كل خيْرٍ عنا إذا يَجْزيهِ
فلقد سَرّنى دخولُ أبى سَعْــوَةَ دونى وبعده حَمْدَويهِ
إنّ ذَنْبى نَذالة قد تأتّى ٭ مِنْ صباحى بقُبح تلك الوُجُوهِ

للبغدادى فى ابن وهب

وقال أحمد بن محمد البغدادى فى الحسن بن وهب الكاتب :

ومُسْتنبٍ عن الحسن بن وهب ٭ وعمّا فيه مِنْ كرمٍ وخيرِ
أتانى كىْ أخبّره بعلْمى ٭ فقلتُ له سقطتَ على خبيرِ
هوَ الرّجلُ المهذبُ غير أنى ٭ أراهُ كثيرَ إرْخاء السُّتُورِ
وأكْثرُ ما يُغَنيهِ فتاهُ ٭ حُسَيْن حينَ يَخلو بالسُّرُورِ
« ولولا الريحُ أُسمع أهلُ حَجْر ٭ صليلَ البيْضِ تُقرع بالذُّكورِ »

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

ما بالُ بابكَ محروســاً ببوّاب ٭ يَحْميه مِنْ طارقٍ يأْتى ومُنتابِ
لايحتجب وجهكَ الممقوتُ عَنْ أحد ٭ فالمقتُ يَحْجُبُه من غير حُجّابِ
فاعْزِلْ عنِ البابِ مَن قد ظلّ يحجبه ٭ فإنّ وجهكَ طِلّسْمٌ على البابِ

لحبيب

وقف حبيب الطائى بباب مالك بن طوق فحجب عنه ؛ فكتب إليه يقول :

قل لابن طَوْق رَحَى سَعدٍ إذا خَبطت ٭ نَوائبُ الدّهْر أعْلاها وأسْفلها

(١) فى بعض الأصول « شعوة » .

أصْبحت حاتِمها جُودًا ، وأحْنَفها ، حِلْماً ، وكَيِّسَها عِلْماً ، ودَغْفَلَها[1]

مَالِى أرَى القُبــةَ البَيضاء مُقْفلة ، دُونى وقد طال ما اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلها

أظُنُّها جَنَّـــةَ الفِرْدوْس مُعْرِضةً ، وليس لى عمـــلٌ زَاكٍ فأدْخُلها

باب الوفاء والغدر

بين مروان وعبد الحميد الكاتب

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال مُلكه : قد احتجتَ إلى أن تصير مع عدوى وتُظهر الغدرَ بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعتَ أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرمتى بعد مماتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أمرتَ به أنفعُ الأشياء لك وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشأ يقول :

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظهر غــدرةً ، فمن لى بعذرٍ يُوسع الناسَ ظاهرُهْ

عبد الملك بعد قتله ابن سعيد

أبو الحسن المدائنى قال : لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أماناً وأشهد شهوداً . قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويُصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : ما رأيك فى الذى كان منى ؟ قال : أمرٌ قد فات دَرْكه ! قال : لتقولنّ ! قال حَزْمٌ لو قتلتَه وحَييت . قال : أولستُ بحىّ ؟ فقال : ليس بحىّ مَن أوقفَ نفسه موقفاً لا يُوثَق له بعهد ولا بعقْد . قال عبد الملك : كلام لو سَبَقَ سماعُه فِعْلى لأمسكت .

أبو جعفر وابن هبيرة

المدائنى قال : لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوما[2] ركب فى رجال معه حتى دخل على المنصور ، فقال : إن دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنّبوهم مرارتها ، لتسرعَ محبتُكم إلى قلوبهم

---

(١) يعنى : حاتماً الطائى ، والأحنف بن قيس ، والكيس بن أبى الكيس المحدث ـ أو زيد ابن الكيس النمرى النسابة ـ ودغفل بن حنظلة الشيبانى النسابة .

(٢) لما هم أبو جعفر أن يكتب الأمان لابن هبيرة ، مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رضيه ابن هبيرة (الطبرى) .

ويَعْذُب ذكرُكم على ألسنتهم ، ومازلتُ منتظرا لهذه الدعوة . فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى آطمأنّ قلبه . فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً من كل من يأمرني بقتل مثل هذا ! ثم قتله بعد ذلك غدرًا .

أبو جعفر وسلم في قتل أبي مسلم

وقال أبو جعفر لسَلْم بن قُتيبة : ما ترى في قتل أبي مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، قال : حسبك الله أبا أمية .

قال أبو عمرو بن العلاء : كانت بنو سعد بن تميم أغدرَ العرب ، وكانوا يُسمون الغَدر في الجاهلية كَيسان ، فقال فيهم الشاعر :

إذا كنتَ في سَعد وخالُك منهمُ ٭ غريباً ، فلا يَغررْك خالك مِنْ سعْد

إذا مادعوْا كَيْسانَ كانت كهولُهم ٭ إلى الغَدر أدْنَى من شبابهم المُرْدِ

الولاية والعزل

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ؛ فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة .

لابن شعبة في في حب الولاية وكراهيتها

وقال المغيرة بن شعبة : أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث : أُحبها لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء واسترخاص الأشياء . وأكرهها لروعة البريد ، ومَوْت العزل[1] ، وشماتة العدو .

بين ابن شبرمة وأبيه في موكب طارق

وقال وَلَدُ ابن شُبرُمة القاضي : كنت جالساً مع أبي قبل أن يلي القضاء . فمرّ به طارقُ بن أبي زياد[2] في موكب نبيل ، وهو والى البصرة ، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال :

أراها وإنْ كانت تحَبُّ كأنها ٭ سَحابُ صَيف عنْ قريب تقَشَّعُ

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها « خوف العزل » .

(٢) في الأصول : « مولى ابن زياد » ، وهو خطأ ؛ وقد كان طارق بن أبي زياد عاملا على شرطة الكوفة لخالد القسرى .

ثم قال : اللهم لى دينى ولهم دنياهم : فلما ابتُلى بالقضاء قلت له : يا أبت ، أتذكر يوم طارق ؟ قال : يابنىّ ، إنهم يجدون خلفاً من أبيك ، وإن أباك لا يجد خلفاً منهم : إن أباك حَط فى أهوائهم ، وأكل من حلوائهم !

لابن الحسن فى رجل غيرته الولاية

قيل لعبد الله بن الحسن : إنّ فلاناً غيّرته الولاية . قال : من وَلِىَ ولاية يراها أكبرَ منه تغيّر لها ، ومن ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها .

بين عمر والمغيرة حين عزله

ولما عَزل عمرُ بن الخطاب المُغيرة بن شعبةَ عن كتابة أبى موسى ، قال له : أعَنْ عجز أم خيانة يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : لاعن واحدة منهما ، ولكنى أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة .

دعوة ابن عمر على زياد

وكتب زياد إلى معاوية : قد أخذتُ العراق بيمينى وبقيت شمالى فارغة ـ يُعرّض له بالحجاز ـ فبلغ ذلك عبدَ الله بن عمر ، فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم اكفنا شِمالَ زياد . فخرجت فى شماله قرحة فقتلته .

بين ابن الخطاب وأبى هريرة

ولقى عمر بن الخطاب أبا هريرة ، فقال له : ألا تعمل ؟ قال : لاأريد العمل . قال : قد طلب العملَ مَن هو خير منك : يوسف عليه الصلاة والسلام ، قال : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم [1] ﴾ .

خالد القسرى وتوليته بلالا

المدائنى قال : كان بلال بن أبى بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القَسرىّ ، فكان لايركب خالد إلا رآه فى موكبه ، فبرم به ، فقال لرجل من الشرط : إيت ذلك الرجلَ صاحبَ العمامة السوداء فقل له : يقول لك الأمير : مالزومُك بابى وموكبى ؟ لا أُولّيك ولايةً أبدا . فأتاه الرسول فأبلغه . فقال له بلال : هل أنت مُبلغ عنى الأمير كما بلّغتنى عنه ؟ قال : نعم . قال : قل له : والله لئن ولّيتنى لاعزلتنى . فأبلغه ذلك . فقال خالد : ماله قاتله الله ! إنه ليَعِدُ من نفسه بكفاية . فدعاه فولّاه .

بين عمر وطالب عمل

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا ، فبادر الرجل فطلب منه العمل ، فقال له عمر : والله لقد كنتُ أردتُك لذلك ، ولكن مَنْ طلب هذا الأمر لم يُعَنْ عليه .

---

(١) تقدم هذا الخبر على وجه آخر .

بين النبي صلى الله عليه وسلم والعباس

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من النبي ولاية ، فقال له : ياعم ، نفسٌ تحييها ، خيرٌ من ولاية لا تحصيها .

بين النبي صلى الله عليه وسلم ورجل طلب عملا

وطلب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عملا ، فقال له : إنا لا نستعين على عملنا بمن يريده .

وتقول النصارى : لا نختار للجثلقة إلا زاهداً فيها غير طالب لها .

لزياد في أغبط الناس عيشاً

وقال زياد لأصحابه : من أغْبَطُ النـاس عيشا ؟ قالوا : الأميرُ وأصحابه ! قال : كلا ، إنّ لِأعواد المِنبر لهيبة ، ولِقَرع لجام البريد لفَزْعة ؛ ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يَجرى عليه كِراؤها ، وزوجةٌ قد وافقته فى كَفاف من عيشه ، لا يعرفنا ولا نعرفه ؛ فإن عَرفنا وعرفناه أفسدْنا عليه آخرته ودنياه .

بين معاوية والمغيرة حين كبر

وكتب المُغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يُستبدل به :

أما بعد ، فقد كبرتْ سنّى ، ورقّ عظمى ، واقترب أجلى ، وسفّهنى سفهاء قريش ، فرأىُ أمير المؤمنين فى عمله مُوَفَّق .

فكتب إليه معاوية : أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك ، فأنت أكلتَ شبابك ؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك ، فإنى لو أستطيع دفعَ المنية لدفعتها عن آل أبى سفيان ؛ وأما ماذكرت من سفهاء قريش ، فحلماؤها أحلُّوك ذلك المحل ؛ وأما ماذكرت من العمل ، فـ « ضَحِّ رُوَيْدًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلٌ [(١)] » وهذا مثل ، وقد وقع تفسيره فى كتاب الأمثال .

فلما انتهى الكتابُ إلى المُغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأَذن له فخرج وخرجنا معه ، فلما دخل عليه قال له : يامُغيرة ، كَبِرت سنُّك ورقّ عظمك ولم يبق منك شىء ، ولا أرانى إلا مستبدلا بك . قال المحدِّث عنه : فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرَنا بمـا كان من أمره . قلنا له : فما تُريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك . فأتى معاويةَ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ

---

(١) حمل : هو حمل بن بدر من فرسان العرب ؛ والمثل فى النهى عن العجلة . والأصل فيه النهى عن العجلة فى الذبح ، ثم استعمل فى النهى عن العجلة عامة .

الأنفس ليُغدَى عليها ويُراح، ولستَ فى زمن أبى بكر ولا عمر، فلو نصبتَ لنا عَلَماً من بعدك نصير إليه! فإنى قد كنت دعوتُ أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورُمْ هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا نركُض على النُّجب، فالتفت فقال: والله لقد وضعتُ رجلَه فى ركاب طويل أُلْقِى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

باب من أحكام القضاة

لعمر بن عبد العزيز

قال عمرُ بن عبد العزيز: إذا كان فى القاضى خمسُ خصال فقد كَمُل: عِلْمٌ بما كان قبله، ونزاهةٌ عن الطمع، وحِلْمٌ عن الخَصم، واقتداءٌ بالأئمة، ومشاورةُ أهل العلم والرأى.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فُقِئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتىَ خصمُه؛ فلعله قد فُقئت عيناه جميعاً.

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى القضاء

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى القضاء كتاباً يقول فيه: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدناءِ الضعيف حتى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانه؛ وتعاهَد الغريب! فإنك إن لم تتعاهده سقط حقُّه ورجع إلى أهله؛ وإنما ضيّع حقَّه من لم يَرْفُق به: وآسِ بين الناس فى لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

العُتبى قال: تنازع إبراهيمُ بن المهدىّ هو وبُختَيْشوع الطبيب بين يدى أحمد ابن أبى دُواد القاضى فى مجلس الحُكْم فى عَقار بناحية السَّواد؛ فزَرَى عليه ابن المهدى وأغلظ له بين يدى أحمد بن أبى دُواد، فأحفظه ذلك، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت أحداً فى مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت إليه بيدٍ، وليكن قصدك أمَماً، وطريقُك نهجاً، وريحُك ساكنة؛ ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها مع التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب؛ فإن ذلك أَشْبَهُ بك، وأشكل لمذهبك فى مَحْتِدِك وعِظَم خَطرِك؛ ولا تعجل؛ فرُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً. والله

يعصمك من الزلل ، وخَطلِ القولِ والعمل ، ويُتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم . قال إبراهيم : أصلحك الله ، أمرتَ بسَداد ، وحَضضْتَ على رشاد . ولستُ بعائدٍ إلى ما يثلم مروءتى عنـدك ، ويُسقطنى من عينك ، ويُخرجنى عن مقدار الواجب إلى الاعتذار ؛ فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقرٍّ بذنبه ، باخِع بجُرْمه ، فإنّ الغضب لا يزال يستفزنى بمواده فيردُّنى مثلُك بحلمه ؛ وتلك عادةُ اللهِ عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد وهبتُ حقى من هذا العَقار لبُخْتَيشوع ! فليت ذلك يقوم بأرْش[1] الجناية ؛ ولن يَتلَفَ مالٌ أفاد موعظة ، وبالله التوفيق[2]

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، رواها ابن عُيينة : أما بعد فإنّ القضاء فريضةٌ مُحكمة ، وسُنّة متّبعة ؛ فافهم إذا أدْلى إليك الخصم ؛ فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذ له ، آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك ؛ حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ولا يخاف ضعيفٌ من جَوْرك . البينةُ على من آدّعى واليمينُ على من أنكر والصلح جائز بين المُسلمين إلا صلحاً أَحلَّ حراماً أو حَرَّمَ حلالا . ولا يمنعْك قضاءٌ قضيت به بالأمس ثم راجعتَ فيه نفسك وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه ؛ فإن الحق قديم والرجوع إليـه خير من التمـادى على الباطل . الْفَهْمَ الفهم فيما يتلجلج فى صدرك ممـا لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . واعرفْ الأمثال والأشباه ، وقِسِ الأمورَ عند ذلك ثم اعمد إلى أَحَبِّهـا عند الله ورسوله وأشبهها بالحق ؛ واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليـه ، فإن أحضر بينته أخذتَ له بحقه وإلا وجّهت عليه القضاء ؛ فإن ذلك أجلى للعَمَى وأَبْلَغُ فى العُذر . والمسلمون عُدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حَدّ ، أو مُجَرَّباً عليه شهادةُ زور ، أو ظنيناً فى وَلاء أو قَرابة أو نَسب ؛ فإنّ الله تَولَّى منكم السرائر ، ودَرَأ عنكم بالبينات والأيمـان ؛ ثم إياك والتأذِّىَ بالناس والتنـكر للخصوم فى

(١) الأرش : الدية .
(٢) انظر زهر الآداب للحصرى (١ : ٢٣٢) .

مواطن الحقوق التى يُوجب اللهُ بها الأجر ويُحسن بها الذخر ، فإنه من تَخلُصُ نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين النـاس ، ومن تَزَيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خِلافَه منه هَتَك اللهُ (١) ستره .

وله أيضاً يوصيه

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنـه إلى أبى موسى الأشعرى : أما بعد ؛ فإنّ للناس نُفرةً عن سلطانهم ؛ فاحذر أن تدركنى وإيّاك عَمياء مجهولة ، وضغائنُ محمولة ، وأهواء مُتَّبعة ، ودُنيا مُؤْثَرة . أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار وأخِف الفُسّاق واجعلهم يداً يداً ورِجْلا رِجْلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة فنادوا يا لَفُلان ! فإنمـا تلك نجوى من الشيطان ، فاضْرِبْهم بالسيف حتى يَفيئوا إلى أمر الله وتـكونَ دَعواُهم إلى الله والإسلام وَاستدِم النعمةَ بالشكر ، والطاعة بالتألُّف ، والمقدرةَ بالعفو والنُّصرةَ بالتواضع والمحبـةِ للناس . وبلغنى أن ضبَّةَ تنادى : يا لَضَبّة . والله ما علمتُ أن ضبة ساق الله بهـا خيراً قط ولا صرف بها شرّا . فإذا جاءك كتابى هذا فأنهِكهم عقوبة حتى يَفْرَقُوا إن لم يفقهوا ، وألصق بغَيلان بن خَرشة مَن بينهم . وعُدْ مَرْضَى المسلمين ، وآشهد جنائزهم ، وباشرْ أمورهم ، وافتح بابك لهم ؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلَهم حملا وقد بلـغ أميرَ المؤمنين أنه فَشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومَركبك ليس للسلمين مثلُها ؛ فإيّاك ياعبد الله أن تـكون كالبهيمة : هَمُّها فى السِّمَن والسِّمَنُ حَتفُها . وآعلم أنّ العامل إذا زاغ زاغت رعيتُه ، وأشقى الناس من يشقى به الناس . والسلام (٢) .

ابن الخطاب وابن العاص والغزو فى البحر

أراد عمر بن الخطاب أن يغزو قوماً فى البحر ، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عاملُه على مصر : يا أمير المومنين ، إنّ البحر خلق عظيم ، يركبه خلق صغير ، دُودٌ على عود . فقال عمر : لا يسألنى الله عن أحد أحمله فيه .

للشعبي قال : كنت جالساً عند شُريح إذ دخلت عليه آمرأة تشتكى زوجها

(١) انظر نهاية الأرب ، وعيون الأخبار ، وجمع الأعشى ، والبيان والتبيين .
(٢) انظر شرح نهج البلاغة والبيان والتبيين (٢ : ١٥٥) .

وهو غائب وتبكى بكاء شديداً ، فقلت : أصلحك الله ، ما أراها إلا مظلومة . قال : وما علمك ؟ قلت : لبكائها . قال : لا تفعل ؛ فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عِشاء يَبْكونَ ، وهم له ظالمون .

الحسن ورجل رد إياس شهادته

وكان الحسن بن أبى الحسن ، لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرحه المشهودُ عليه : فأقبل إليه رجل فقال : يا أبا سعيد ، إنّ إياساً ردّ شهادتى . فقام معه الحسن إليه فقال : يا أبا واثلة ، لِمَ رَددتَ شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى صلاتَنا واستقبل قِبلتنا فهو المسلم : له مالنا وعليه ما علينا ؟ فقال : يا أبا سعيد ، إن الله يقول : ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وهذا لا يُرْضَى .

من عدل شريح القاضى

ودخل الأشعث بن قيس على شُرَيح القاضى فى مجلس الحكومة ، فقال : مرحباً وأهلا بشيخنا وسيدنا ، وأجلسه معه . فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث . فقال له شُريح : قُم فاجلس مجلس الخصم وكلِّم صاحبك . قال بل أكلّمه من مجلسى . فقال له : لتَقُومَنّ أو لآمُرَنّ من يُقيمُك . فقال له الأشعث : لشدّ ما ارتفعت ؟ قال : فهل رأيتَ ذلك ضَرَّك ؟ قال : لا . قال : فأراك تعرفُ نعمةَ الله على غيرك وتجهلُها على نفسك .

إياس ورده لشهادة ابن أبى سود

وأقبل وكيع بن أبى سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة ، فقال : مرحبا وأهلا بأبى مُطَرِّف وأجلسه معه ، ثم قال له ما جاء بك ؟ قال لأشهد لفلان . فقال : مالك وللشهادة ! إنما يَشْهَدُ الموالى والتجار والسُّوقة . قال صدقت ، وانصرف من عنده فقيل له : خدَعَك ، إنه لا يَقبل شهادتَك . قال : لو علمتُ ذلك لعلوتُه بالقضيب .

عدى بن أرطاة وشريح

دخل عدىّ بن أرطأة على شريح فقال : أين أنتَ أصلحَك الله ؟ قال : بينك وبين الجدار . قال : إنى رجل من أهل الشام . قال : نائى المحلِّ سحيقُ الدار [1] . قال : قد تزوجتُ عندكم . قال : بالرفاء والبنين . قال : ووُلِد لى غلام . قال : لِيَهْنِك الفارس . قال : وأردتُ أن أُرحِّلها . قال : الرجل أحق بأهله . قال : وشرطتُ لها دارها ، قال : الشرطُ أَمْلَك . قال : فاحكم الآن بيننا . قال : قد فعلت . قال : على من قضيتَ ؟ قال : على آبن أمك . قال : بشهادةِ مَنْ ؟ قال : بشهادة آبن

(١) فى بعض الأصول « نائى الدار سحيق المزار » .

أختِ خالتِك ؛ يريد إقراره على نفسه .

شريح ورجل يخاصم فى سنور

سفيان الثورى قال : جاء رجل يُخاصم إلى شُريح فى سِنَّوْر ، قال : بينَتَك . قال : ما أجد بينة فى سنور وُلِدَتْ عندنا . قال شُريح : فاذهبوا بها إلى أمها فأرسِلوها ، فإن استقرت واستمرت ودرّت فهى سنورك ، وإن هى اقشعرت وازْبأرّتْ(١) فليست بسنورك

سفيان الثورى قال : جاء رجل إلى شُريح فقال : ما تقول فى شاة تأكل الدّبى(٢) ؟ فقال : لبنٌ طيّب وعَلَف مجّان .

لشريح وقد سئل حكما

وقيل لشريح : أيهما أطيب الجوزينق أو اللّازينق ؟ قال : لست أحكم على غائب .

الشعبى فى الفصل بين رجل وامرأته

ودخل رجل على الشّعبى فى مجلس القضاء ومعه امرأة ، وهى من أجمل النساء فاختصما إليه ؛ فأدلت المرأة بحُجتها وقرّبت بينتها . فقال للزوج : هل عندكَ من مَدْفع ؟ فأنشأ يقول :

فتِن الشّعبى لمّا ۞ رَفع الطّرف إليها
فَتَنتــه بِدلال ۞ وبخَطّىْ حاجِبيها
قال للجلواذِ قرِّبْها وأحْضِرْ شاهِدَيْها
فقضى جوْراً على الخَصْم ولمْ يَقْضِ عليها

قال الشعبى : فدخلت على عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلىَّ تبسم وقال :

فُتِنَ الشّعْبى لمّا ۞ رَفعَ الطّرْف إليها

ثم قال : ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات ؟ قلت : أوجعْتُه ضرباً يا أمير المؤمنين؛ بما انتهك من حُرمتى فى مجلس الحكومة وبما افترى به علىّ ! قال : أحسنت .

تم الجزء الثانى من كتاب اللؤلؤة فى السلطان . ولله المنة

يتلوه إن شاء الله تعالى « كتاب الفريدة فى الحروب » وهو الجزء الثالث من قسمة خمسة وعشرين من قسمة المؤلف والحمد لله أولا وآخرا . وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) ازبأرت : انتفشت وتهيأت للشر .
(٢) الدبى : الجراد ، وقيل صغاره .

كتاب الفريدة
فى الحروب ومدار أمرها

فرش كتاب الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه :

قد مضى قولنا فى السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل فى رعيته والرفق بأهل مملكته . ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الحروب ومدار أمرها ، وقَوْد الجيوش وتَدبيرها ، وما على المُدبّر لها من أعمال الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغِرّة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات . هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفته ، وطول تجربته لها ، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش ، وعلمه أن لا دِرْعَ كالصبر ، ولا حِصْن كاليقين . ثم نذكر كرمَ الإقدام[1] ومحمودَ عاقبته ، ولؤمَ الفرار ومذمومَ مَغَبّتِه ، والله المُعين .

صفة الحروب

الحرب : رحى ، ثِفالُها[2] الصبر ؛ وقُطْبُها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثِقافُها الأناة[3] ، وزمامها الحذر . ولكل شىء من هذه ثمرة : فثمرة المكر الظفَر ، وثمرة الصبر التأييد ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليُمْن ، وثمرة الحذَر السلامة ؛ ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سِجال ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب : صف لنا الحرب . قال : مُرّةٌ

---

(١) فى بعض الأصول « كرم اليقين » .
(٢) الثفال : مايبسط تحت الرحى ليكون عليه الدقيق .
(٣) الثقاف : ماتسوّى به الرماح .

المَذاق ، إذا كشفت عن ساق ؛ من صَبر فيها عُرِف ، ومن نكل عنها تَلِف ، ثم أنشأ يقول :

الحربُ أوّلَ ما تكون فُتَيّةٌ ٭ تَسْعى بزِينتها لكُلّ جَهولِ
حتى إذا حَمِيتْ وشَبَّ ضرامُها ٭ عادتْ عجوزاً غير ذات خَليل
شَمْطاءَ جَزّتْ رأسها وتنكَّرتْ ٭ مَكروهةً للشَّمّ والتقبيلِ

عنترة الفوارس — وقيل لعنترة الفوارس : صف لنا الحرب . فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

الكميت — وقال الكميت :

والناسُ فى الحرب شتى وهْى مُقبلة ٭ ويستوون إذا ما أدبر القُبُلُ
كلٌّ بأمْسِيِّها طَبٌّ مُوَلّيةً ٭ والعالمون بذى غُدْوِيِّها قُلُلُ

لنصر بن سيار — وقال نصر بن سيار صاحب خُراسان يصف الحرب ومبتدأ أمرها :

أرى خَلَلَ الرَّمادِ ومِيضَ نار ٭ ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإنّ النّار بالعُودَيْن تُذْكَى ٭ وإنّ الحربَ أولها الكلامُ

من حكمة لسليمان — وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : الشر حلوٌ أوله ، مُرٌّ آخره .

العرب — والعرب تقول : الحرب غشوم ؛ لأنها تَنال غيرَ الجانى .

لحبيب — وقال حبيب :

والحرب تَرْكب رأسَها فى مشْهَدٍ ٭ عُدِلَ السّفيهُ به بألْفِ حليمِ
فى ساعةٍ لو أنّ لُقماناً بها ٭ وهو الحكيمُ لكانَ غير حكيمِ

لأكثم — وقال أكثمُ بن صيفىّ حكيمُ العرب : لا حلم لمن لا سفيه له .

للأحنف — ونحو هذا قول الأحنفِ بن قيس : ما قَلّ سفهاء قومٍ قَطُّ إلا ذَلُّوا .

وقال : لأنْ يطيعنى سفهاء قومى أحَبُّ إلىّ مِن أن يُطيعنى حلماؤهم .

وقال : أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النارَ والعار .

وقال النابغة الجعدى :

النابغة الجعدى ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم له

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكن له * بَوادِرُ تَحْمِى صَفْوَه أن يُكدَّرَا

وأنشد هذا الشعر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى إلى هذا البيت . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَفْضُضِ اللهُ فاك . فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنيّة .

وقال النابغة الذُّبيانى يصف الحرب :

النابغة الذبيانى يصف الحرب

تَبدو كواكبه والشمسُ طالِعةٌ * لا النُّورُ نُورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله : « تبدو كواكبه والشمس طالعة » شدةَ الهول والكرب ، كما تقول العامة : أريْتُه النجومَ وسط النهار . قال الفرزدق :

* أُرِيكَ نجومَ الليلِ والشمسُ حيَّة *

وقال طرفة بن العبد :

* وتريكَ النَّجمَ يَجْرِى بالظُّهر *

وإليه ذهب جرير فى قوله :

والشمسُ طالِعةٌ ليست بكاسِفَةٍ * تبكى عليك نجومَ الليلِ والقَمَرَا

يقول : إن الشمس طالعة وليست بكاسفةٍ نجومَ الليل ، لشدة الغم والكرب الذى فيه الناس .

ومن قولنا فى صفة الحرب :

لابن عبد ربه

ومُغْبَرّ السماء إذا تَجلَّى * يُغادِرُ أرْضَه كالأُرْجُوانِ

كأنّ نهاره ظَلْماء ليلٍ * كَوَاكِبه مِنَ السُّمر اللِّدانِ

سَمَوْتُ لهُ سُمُوَّ النَّقْعِ فيهِ * بِكلِّ مُزَلَّقٍ سَلِبِ السِّنَانِ

وكل مُشطَّب المتنين صافٍ * كلون الملح منصلتٌ يمانِ

وفى صفة المعترك :

ومُعْتَرك تَهُزُّ به المنايا * ذُكُورَ الهندِ فى أيْدِى ذُكُورِ

لوَامِعُ يُبْصِر الأعْمَى سَناها * ويَعمَى دونها طَرْفُ البَصِيرِ
وخافِقةِ الذَّوائبِ قد أَنافَتْ * على خَمراء ذات شَبًا طَرِيرِ (١)
يُحَوِّم حولَها عِقبانُ مَوتٍ * تَخطَّفَتِ القُلُوبَ منَ الصُّدُورِ
بِيَوْمٍ رَاحَ فى سِرْبَالِ ليلٍ * فما عُرِفَ الأصِيلُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنُو فى قَتامٍ * رُنُوَّ البِكْرِ من بين السُّتُورِ
فكم قَصَّرت مِنْ عُمْرٍ طَوِيلٍ * بِهِ ، وأطَلْتَ مِنْ عُمُرٍ قصِيرِ

العمل فى الحروب

لأكثم بن صيفى

قيل لأكثم بن صَيفىّ : صف لنا العمل فى الحرب . قال أقِلّوا الخلاف على أمرائكم ، فلا جماعةَ لمن اختُلف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ؛ فتثبَّتوا ؛ فإن أحزَمَ الفريقين الرَّكِين . ورُبَّ عجلةٍ تُعقِبُ رَيْثًا . وادَّرِعوا اللَّيْلَ فإنه أخْفَى للوَيل ، وتحَفَّظوا من البيات .

لشبيب الحرورى فى الليل

وقال شَبيب الحَرورىّ : الليل يكفيك الجبان ونصفَ الشجاع . وكان إذا أمسى يقول لأصحابه : أتاكم المدد .

لعائشة يوم الجمل

وقالت عائشةُ رضى الله تعالى عنها يوم الجمل ، وسمعتْ منازعةَ أصحابها وكثرةَ صياحهم : المُنازعة فى الحرب خَوَر ، والصياحُ فيها فَشَل ، وما بِرأيى خَرَجْتُ مع هؤلاء .

لعتبة يوم بدر

وقال عُتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَا تَرَوْنهم خُرْسًا لا يتكلَّمون ، يتلَمَّظُونَ تلمُّظَ الحيات .

لابن أبى طالب فى العواقب

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : مَن أكثَرَ النظرَ فى العواقب لم يَشْجُع .

لابن مقرن عند اللقاء

وقال النعمان بن مُقَرِّن لأصحابه عند لقاء العدو : إنى هازٌّ لكم الراية ، فليُصلِح كلُّ رجل منكم من شأنه ولْيَشُدَّ على نفسه وفرسه ؛ ثم إنى هازُّها لكم الثانية . فلينظر كل رجل منكم موقعَ سهمه وموضعَ عدوِّه ومكان فرصته ؛ ثم إنى هازُّها

(١) المراد بالخمراء : القناة . والشبا : جمع شباة ، وهى الحد . والطرير : المحدد .

لكم الثالثة وحامل ، فاحملوا على اسم الله .

لعمر بن الخطاب في ابن مقرن

وللنعمان بن مقرّن هـذا ؛ يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ تكاملت [الخيل] وتطلع الصحابة إلى التقدم عليهـا : لأُقلّدنّ أعنّتَها رجلا يكون غداً لأول أسنّةٍ يلقاها ، فقلدها النعمان بن مقرن .

لعلى فى الفرصة

وقال على رضى الله عنه : انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب ، ولا تطلبوا أثرا بعد عين .

ولبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : انتهز الفرصة فإنها خلْسه وثِب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذَنَبه ؛ وإياك والعجزَ فإنه أذَلُّ مَرْكب ، والشفيعَ المهين فإنه أضعف وسيلة .

لابن مسلم فى ابن أبى سود

وخرجتْ خارجةٌ بخراسانَ على قُتيبة بن مسلم فأهمه ذلك ، فقيل له : مايهمُّك منهم ؟ وجّه إليهم وكيع بن أبى سُود فإنه يكفيكهم . فقال : لا ، إن وكيعا رجل به كِبْرٌ يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم ، فيجد عدوُّه غِرّةً منه .

لبعض الملوك فى الحزم

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم فى القتال فقال : مخاتلة العدو عن الريف وإعداد العيون على الرّصد ، وإعطاء المُبلّغين على الصدق ، ومعاقبة المتوصّلين بالكذب ، وألّا تخرج هاربا إلى قتال ؛ ولا تُضيّق أمانا على مستأمن ، ولا تشدهنّك الغنيمة عن المحاذرة[1] .

للعجم فى أشد الأمور تدريباً

وفى بعض كتب العجم : إن حكيما سُئل عن أشدّ الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لهـا . فقال : تَعوُّدُ القتال ، وكثرةُ الظّفر ، وأن يكون لهـا موادُّ من ورائها[1] .

بين معاوية وعمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال معاوية :

شُجَاعٌ إذا ما أمْكنتْنى فُرْصَة ٭ وإن لم تَكنْ لى فُرْصةٌ فَجَبانُ

وقال الأحنف بن قيس : إن رأيت الشر يتركك إن تركته ، فاتركه .

---

(١) انظر عيون الأخبار .

لهدبة العذرى

قال هُدبة العذرى :

ولا أتمنى الشرَّ والشرُّ تارِكى ، ولكنْ متى أُحمَلْ على الشرِّ أركَبِ
ولستُ بمِفراحٍ إذا الدهرُ سرَّنى ، ولا جازِعٍ من صَرْفِهِ المتقلّبِ

الصبر والإقدام فى الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب فى آيتين من كتابه فقال تعالى : ﴿ يأَيُّها الذين آمنُوا إذا لقِيتم فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرا لعَلّكُمْ تُفلِحُون . وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فتَفشَلوا وتذْهَبَ رِيحُكم واصْبِرُوا إنّ اللهَ مَعَ الصّابِرِين ﴾ .

العرب فى الشجاعة

وتقول العرب : الشجاعة وقاية والجبن مَقْتلة . واعتبر من ذلك أن من يُقتَلُ مدبِراً أكثرُ ممن يُقتل مُقبلا .

لأبى بكر يوصى خالداً

ولذلك قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه لخالد بن الوليد : احرص على الموت توهَبْ لك الحياة .

العرب

والعرب تقول : الشجاع موقّى والجبان مُلَقّى .

لبعض الأعراب

وقال أعرابى : الله مُخْلف ما أتلف الناس . والدهرُ متلف ما جمعوا ، وكم من مُنية عِلّتها طلب الحياة ، وحياةٍ سببها التعرض للموت .

لخالد فى الصبر

وكان خالد بن الوليد يسير فى الصفوف يُذمّرُ[1] الناس ويقول : يا أهل الإسلام : إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر .

لأنوشروان

وكتب أنو شروان إلى مرازبته : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حُسْنِ الظنّ بالله .

للحكماء

وقالت الحكماء : استقبال الموت خير من استدباره .

لحسان

وقال حسان بن ثابت :

ولسْنا على الأعْقابِ تَدْمَى كُلُومُنا ، ولكن على أعْقابنا تَقْطُرُ الدّما[2]

---

(١) يذمرهم : يحضهم على القتال .

(٢) روى هذا البيت فى الحماسة للحصين بن الحمام المرّى ، من شعراء الجاهلية .

وقال العلوى فى هذا المعنى :

مُحَرَّمَةٌ أكفالُ خَيلِى على القَنا ٭ ودامِيَــــةٌ لَبَّـــاتها ونحورُها

حرام على أرْماحنا طَعنُ مُدْبِرٍ ٭ وتَنْدَقُّ منها فى الصدورِ صُدورُها

وكانوا يتمادحون بالموت قَعْصاً [١] ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون فيه : مات فلانٌ حَتْفَ أنفِه . وأول من قال ذلك النبىُّ عليه الصلاة والسلام .

لعبد الله بن الزبير فى مقتل أخيه مصعب

وخطب عبد الله بن الزُّبير الناسَ لما بلغه قتلُ مصعب أخيه ، فقال : إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصا بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ؛ وإن يُقتل مُعصب فإن فى آل الزبير خلفاً منه .

للسموءل

وقال السموءل بن عادياء :

وما مات منا سيِّد حتْفَ أنْفِه ٭ ولا طُلّ منا حيثُ كان قَتيلُ

تَسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ٭ وليس على غير السُّيُوفِ تَسِيلُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وإنا لتَسْتَحْلِى المنـايا نُفوسُنا ٭ ونَتْرُكُ أُخرى مُرَّها فنذوقُها

للشنفرى

وقال الشَّنْفرى :

فلا تدفِنونى ، إنّ دَفْنِى مُحَرَّمٌ ٭ عليكم ولكنْ خامِرِى أُمَّ عامِرِ

إذا حُمِلَتْ رأسى وفى الرأس أكثرِى ٭ وغُودِرَ عند المُلتقَى ثَم سائرِى

هنالك لا أبْغِى حَياةً تَسُرُّنى ٭ سَجِيسَ اللَّيالى مُبْسَلاً بالجرائرِ [٢]

قوله « خامِرِى أُمَّ عامر » : هى الضبع . يعنى : إذا قتلتمونى فلا تدفنونى ولكن ألقونى إلى التى يقال لها : خامرى أمّ عامر ، وهى الضبع . وهذا اللفظ بعيد من المعنى .

لعلى بن أبى طالب

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ـ وقيل له : أتقتل أهل

(١) يقولون : مات قعصا : أى أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٢) سجيسْ الليالى : أى أبدا . ومبسلا : أى مسلما .

الشام بالغداة وتظهر بالعشيّ فى إزار ورداء ؟ فقال : أبالموت تخوّفونى ؟ فوالله ما أبالى أسقطتُ على الموت أم سقط علىّ .

وقال لابنه الحسن عليهما السلام : لا تدعُوَنّ أحدا إلى المبارزة ، وإن دُعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : بقية السيف أنْمَى عدداً ، وأطيَبُ ولداً . يريد أن السيف إذا أسرع فى أهل بيت كثر عددُهم ونما ولدُهم .

ومما يستدلّ به على صدق قوله : ما عَمِل السيفُ فى آل الزبير وآلِ أبى طالب وما أكْثَرَ مِن عددِهم .

لأبى دلف العجلى

وقال أبو دلف العِجْلىّ :

سَيْفِى بلَيْلى قَبَسى ٭ وفى نَهارى أنسى
إنّى فتًى عَوَّدَنى ٭ مُهْرى رُكُوبَ الغَلَس
يَحْمَدُنى سيفِى كما ٭ يَحْمَدُ كَرِّى فرسى

لابن طاهر

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان :

لَسْتُ لِرَيْحَانٍ ولا رَاحِ ٭ ولا على الجارِ بنَفّاحِ
فإنْ أَرَدْتَ الآنَ لى موْقِفاً ٭ فبَيْن أَسْيافٍ وأرْماحِ
تَرَى فتى تَحْت ظلال القَنا ٭ يَقْبِض أرْوَاحًا بأَرْوَاحِ

لابن رميلة

وقال أشهب بن رميلة :

أُسُودُ شرًى لاقت أُسُودَ خَفِيّةٍ ٭ تلاقوا على جُرْدٍ بماءِ الأساود

للمهلب فى أعجب ما رأى فى حرب الأزارقة

وقيل للمُهلب بن أبى صُفرة : ما أعجبُ ما رأيتَ فى حرب الأزارقة ؟ قال : فتى كان يخرج إلينا منهم فى كل غداة فيقف فيقول :

وسائِلَةٍ بالغَيْبِ عنى ولو دَرَتْ ٭ مُقَارَعَتى الأبْطَالَ طال نَحِيبُها
إذا ما التَقَينا كنتُ أولَ فارِسٍ ٭ يَجُود بنَفْسٍ أثْقَلَتها ذُنُوبُها

ثم يحمل فلا يقوم له شىء إلا أقعده ، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك .

بين هشام وأخيه مسلمة فى الذعر

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة : يا أبا سعد ، هل دخلك ذعرٌ قط لحرب أو عدوّ ؟ قال : ما سلمت فى ذلك من ذعر يُنبِّه على حيلة ، ولم يَغشَنى ذعرٌ قطّ سلبنى رأيى . قال هشام : صدقت هذه والله البسالة .

لعنترة يوم الفروق

وقيل لعنترة : كم كنتم يومَ الفَرُوق(١) ؟ قال : كُنَّا مائة لم نكثر فنتّكل ، ولم نقِلَّ فنذلّ .

ما كان يتمثل به ابن المهلب

وكان يزيدُ بن المهلّب يتمثّل كثيراً فى الحرب بقول حُصين بن الحُمام :

تأخَّرْتُ أسْتَبْقِى الحياةَ فلَمْ أجِدْ ۞ لنَفْسى حَياةً مِثْل أنْ أتَقَدَّمَا

للخنساء

وقالت الخَنساء :

نُهِينُ النُّفُوسَ وَبَذْل النُّفُو ۞ سِ يَوْمَ الكَرِيهةِ أبْقَى لها

لعباد بن الحصين

وقيل لعبّاد بن الحُصين ، وكان من أشدّ أهل البصر : فى أى عُدَّة كنت تُريد أن تلقَى عدوّك ؟ قال : فى أجلٍ مستأخِر .

ما كان يتمثل به معاوية يوم صفين

وكان مما يتمثل به معاوية رضى الله تعالى عنه يوم صفّين :

أبَتْ لى شِيمَتِى وأبَى بلائِى ۞ وأخْذِى الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإقدامِى على المكروهِ نفْسِى ۞ وضَرْبِى هامَةَ البطَلِ المُشِيحِ
وقوْلى كُلَّما جَشأتْ وجاشَتْ ۞ مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحِى
لِأَدْفعَ عَنْ مَآثِرَ صالِحَاتٍ ۞ وأحمِىَ بَعْدُ عن عِرْضٍ صَحِيحِ

لقطرى

ونظير هذا قول قطَرِىّ بن الفُجاءة :

[أقُولُ لها وقدْ طارَتْ شَعَاعًا](٢) ۞ مِنَ الأَبْطال ويْحَكِ لا تُرَاعِى
فإنّكِ لو سألْتِ حَياةَ يَوْمٍ ۞ سِوَى الأجَلِ الذى لَكِ لم تُطاعِى

لابن أبى طالب فى صفين

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخرج كل يوم بصفّين حتى يقف بين الصفّين ويقول :

---

(١) من أيام عبس وذبيان .
(٢) فى الأصل : « وقولى كلما جشأت لنفسى »

أىَّ يَوْمَىَّ من الموْت أفِرْ ۞ يومَ لا يُقْدَرُ أو يومَ قُدِرْ
يَوْمَ لا يُقْـــدَرُ لا أرْهَبُهُ ۞ ومِنَ المَقْدُورِ لا يُنْجِى الحَذَرْ

جرير

ومثله قول جرير :

قلْ لِلجبانِ إذا تأخَّرَ سَرْجُهُ ۞ هل أنت من شَرَكِ المنيَّة ناجِ

وهذا البيت فى شعره الذى أوله :

۞ هاج الفراقُ لقلبك المهتاج ۞

ومدح فيه الحجاج ، فلما أنشده :

۞ قل للجبان إذا تأخَّر سرجه ۞

قال له : جَرَأت علىّ الناس يابن اللَّخناء ! قال : والله ما ألقيتُ لها بالًا أيها الأمير إلا وقتى هذا .

عم بن الحدثان والفرزدق

وكان عاصم بن الحدثان عالما ذكيًا ، وكان رأس الخوارج بالبصرة ، وربما جاء الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه ، فمرّ به الفرزدق ، فقال لابنه : أنشد أبا فراس ، فأنشده :

وهُمُ إذا كسرُوا الجُفُونَ أكارم ۞ صُبُرٌ وحِين تُحَلَّل الأزْرَارُ
يَغْشَوْنَ حَوْماتِ المَنُونِ وإنَّها ۞ فى الله عند نُفُوسهمْ لَصِغارُ
يَمشُونَ بالخطِّىِّ لا يثْنيهم ۞ والقومُ إن رَكِبُوا الرماحَ تِجَارُ

فقال له الفرزدق : ويحك ! اكتم هذا لا يسمعه النساجون فيخرجوا علينا بحُفوفهم[1] فقال أبوه : هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين .

لعنترة وغيره

ونظير هذا مما يشجّع الجبان قولُ عنترة الفوارس :

بكرتْ تُخَوِّفُنى الحُتُوفَ كأنَّنى ۞ أصبحتُ عن غرض الُحتُوفِ بمعْزِلِ
فأجبتُها : إنَّ المْنِيَّــة مَنْهلٌ ۞ لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بِكأس المنْهلِ
فاقْنَىْ حَيَاءكِ لا أبَالَكِ واعْلَمِى ۞ أنِّى امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إن لم أُقْتَلِ

(١) الحف : المنسج ؛ وفى الأصل : « بسيوفهم » .

ومن أحسن ما قالوه فى الصبر ، قولُ نَهشل بن حَرِىّ بن ضَمْرة النهشلىّ :

وَيَوْمٍ كأنّ المصْطَلِينَ بحرِّه ٭ وإن لم تكنْ نارٌ وُقوفٌ على جَمْرِ
صَبَرْنَا له حتى يَبُوخَ ، وإنما ٭ تفرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصَّبْرِ

وأحسن من هذا عندى قولُ حبيب :

فأَثْبتَ فى مُستنقع الموتِ رِجْلَهُ ٭ وقالَ لها مِنْ تحتِ إخْمَصِكِ الحَشْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الموتِ حُمْرًا فما أتَى ٭ لها الليلُ إلا وهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وأحسن من هذا قوله :

يستعذبون مناياهم كأنهمُ ٭ لا يخرجون منَ الدنيا إذا قُتِلوا

وقولُه فى المعنى :

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ حسبتَهم ٭ لم يحسَبوا أنّ المنيّةَ تُخلَقُ
انظُرْ بحيث ترى السُّيوفَ لَوَامِعًا ٭ أبدا وفوقَ رُءوسِهم تتألّقُ

وقال الجحّاف بن حكيم :

شهِدنَ مع النبىّ مُسَوَّماتٍ ٭ حُنَيْنًا وهى دامية الحوامى
ووقعةَ راهطٍ شهِدتْ وحلّت ٭ سنابكُهُنّ بالبلدِ الحرامِ
تعرّض للطّعانِ إذا التقينا[1] ٭ خُدُودًا لا تعرَّضُ لِلّطامِ

أخذه من قولهم : ضربة بسيف فى عزّ ، خيرٌ من لطمة فى ذلّ .

ومن أحسن ما وُصِفت به رجالُ الحرب قولُ الشاعر[2] :

رُوَيدًا بنى شيبانَ بعضَ وعيدِكُم ٭ تُلاقوا غدًا خَيلى على سفوان
تُلاقوا رجالا لا تَحيد عنِ الوغى ٭ إذا الخيلُ جالتْ فى قنا الميدان
إذا استُنجدوا لم يسألوا من دَعاهُمُ ٭ لأيّةِ أرض أو لأىّ مكان

(١) فى بعض الأصول : « بكل ثغر »
(٢) هو وداك بن ثميل المازنى

ونظير هذا قول الآخر :

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارِهمْ ۞ تركوهُ ربَّ صَواهلٍ وقِيانِ
وإذا دعوتَهُمُ ليوْمِ كريهةٍ ۞ سَدُّوا شُعاعَ الشمسِ بالفُرْسانِ
لا يَنكُتُونَ الأرضَ عندَ سُؤَالِهِمْ ۞ لتطلُّبِ العِلاَّتِ بالعِيدانِ
بل يُسفرون وجوهَهم فترى لها ۞ عند السُّؤال كأحسنِ الألْوَانِ

ومن أحسن المحدثين تشبيهاً فى الحرب ، مُسلم بن الوليد الأنصارى فى قوله ليزيد بن مَزْيد :

تَلقَى المنيَّةَ فى أمثالِ عُدَّتِها ۞ كالسَّيلِ يَقذِفُ جلْمودا بِجلْمودِ
تجودُ بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها[١] ۞ والجودُ بالنَّفس أقصَى غايةِ الجودِ

وقوله أيضا :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يومِ ذى رَهَجٍ ۞ كأنه أجَلٌ ، يسعَى إلى أمَلِ
يَنالُ بالرِّفقِ ما تَعيا الرجالُ به ۞ كالموت مستعجلا يأتى على مَهَلِ

وقال أبو العتاهية :

كأنك عند الكرِّ فى الحرب إنما ۞ تفِرّ عن السِّلم الذى من ورائكا
كأنَّ المنايا ليْس تجرِى لَدَى الْوَغى ۞ إذا التقتِ الأبطالُ إلا برأيكا
فما آفةُ الآجالِ غيْرُك فى الوغَى ۞ وما آفة الأموال غير حِبائكا

وقال زيد الخيل :

وقد علمتْ سلامةُ أنّ سيْفِى ۞ كريهٌ كلما دُعِيتْ نَزالِ
أُحادِثُه بِصَقْلٍ كل يوْمٍ ۞ وأُعْجِمُه بِهاماتِ الرجال

وقال أبو محلِّم السعدىّ[٢] :

تقولُ وصَكّت وجهَها بِيمينِها ۞ أبَعْلِى هذا بالرحَى المُتقاعسُ

---

(١) فى بعض الأصول : « شح الضنين » .
(٢) انظر الحماسة ، والكامل للمبرد .

فقلت لها لا تعْجلي وتَبيَّني ∗ بلائى إذا التفَّتْ علىّ الفوارس

ألسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يركب رَدْعه(١) ∗ وفيه سِنان ذو غرارين نائس(٢)

إذا هاب أقوام تقحّمْتُ غمرة(٣) ∗ يَهاب حُميَّاهُ الألدُّ المداعِسُ

لعَمْرُ أبيك الخير إنى لخـــادمٌ ∗ لضَيْفى وإنى إن ركبتُ لفارسُ

وقال آخر يمدح المهلّب بالصبر :

وإذا جُدِدْتَ فكلُّ شىءٍ نافعٌ ∗ وإذا حُدِدْتَ فكلُّ شىء ضائرُ

وإذا أتاكَ مُهلَّبٌ فى الوغى ∗ فى كفّه سيْفٌ فنِعْم الناصِرُ

ومن قولنا فى القائد أبى العباس فى الحرب :

نفسى فِداؤك والأبطالُ واقِفةٌ ∗ والموْتُ يَقسِمُ فى أرواحِها النّقَما

شاركْتَ صَرْفَ المنايا فى نُفوسِهمُ ∗ حتى تحكّمْتَ فيها مثل ما احتَكما

لو تَسْتطيع العُلا جاءتْك خاضعةً ∗ حتى تُقبِّل منكَ الكفَّ والقَدَما

ومن قولنا فى وصف الحرب :

سيوف يَقيلُ الموْتُ تحت ظُباتها ∗ لها فى الكُلَى طُعْمٌ وبينَ الكُلَى شرْب

إذا اصْطَفّت الرايات حُمْراً مُتونُها ∗ ذَوائِبُها تَهْفو فيهْفو لها القلبُ

ولم تَنطِقِ الأبطالُ إلّا بفعْــلِها ∗ فألْسُنُها عُجْمٌ وأفعالُهـــا عرْبُ

إذا ما التقَوْا فى مأزِق وتعانقوا ∗ فلُقْياهُمُ طَعْنٌ وتَعْنيقُهُمْ ضَرْبُ

ومن قولنا فى رجال الحرب وأنّ الوغى قد أخذت منهم ومن أجسامهم فهى مثلُ السيوف فى رقّتها وصلابتها :

سيْفٌ تقـــلّدَ مِثْلهُ ∗ عَطْفَ القَضيب على القضيبْ

هـــذا تُجزّ به الرِّقا ∗ بُ وذا تُجزّ به الخطوبْ

---

(١) أى يخرّ صريعا لوجهه .

(٢) النائس : المضطرب .

(٣) فى بعض الأصول « تجشمت كل ما » .

ومن قولنا أيضاً :

تراهُ فى الْوَغى سيْفاً صَقيلًا ∗ يُقَلِّبُ صفْحتَىْ سيْفٍ صقيلِ

ومن قولنا أيضاً :

سيْفٌ عليه نِجادُ سَيفٍ مِثْلِه ∗ فى حَدِّهِ لِلْمُفْسِدينَ صلاحُ

ومن قولنا أيضاً فى الحرب وذكر القائد :

مَقيلُكَ تحت أَظْلالِ العوالى ∗ وبيْتُك فوْق صَهْواتِ الجيادِ

تَبَخْتَرُ فى قميصٍ من دِلاصٍ ∗ وتَرْفُل فى رداءٍ من نِجادِ

كأنَّك لِلحروب رَضيعُ ثَدْيٍ ∗ غَذَتْك بكلِّ داهِيَـةٍ نَآدِ

فكَمْ هـذا التَّمنِّى لِلْمَنايا ∗ وكم هـذا التَّجلُّدُ لِلجِلادِ

لئِنْ عُرِف الجهادُ بكُلِّ عامٍ ∗ فإنَّك طولَ دَهْرِكَ فى جهادِ

وإنَّك حين أُبتَ بكلِّ سَعْدٍ ∗ كمِثْلِ الرُّوحِ آبَ إلى الفُؤادِ

رأيْنا السَّيف مُرتَدياً بسَيفٍ ∗ وعايَنَّا الجواد على الجواد

وقد وصفنا الحربَ بتشبيه عجيب لم يُتَقدَّمْ عليه⁽¹⁾ ، ومعنى بديعٍ لانظير له ، فمن ذلك قولُنا :

وجيش كظهْرِ اليَمِّ تنفُحهُ الصَّبا ∗ يَعُبُّ عُبـاباً من قَناً وقنابلِ

فتَـنْزِلُ أولاهُ وليس بنـازلٍ ∗ وتَرحلُ أُخْراهُ وليس براحِلِ

ومُعتَرَكٍ ضَنْكٍ تعاطَتْ كُماتُهُ ∗ كُئوسَ دِماءٍ منْ كُلًى ومفَاصِلِ

يُديرونَها راحاً منَ الرُّوح بيْنَهم ∗ ببيضٍ رِقاقٍ أو بِسُمْرٍ ذوابِلِ

وتُسْمِعُهُم أُمُّ المَنيَّـة وسْطَهـا ∗ غِناءَ صليل البيضِ تحتَ المُناصِل

ومن قولنا فى هذا المعنى :

سيف من الْحَتفِ تَرَدَّى به ∗ يومَ الوغَى سيفٌ من الحزْمِ

مواصـلاً أَعْداءهُ عن قِلًى ∗ لاصِـلة القربَى ولا الرَّحْمِ

(١) فى بعض الأصول : إليه .

وصلٌ يحنُّ الإلفُ من بُغضِه * شوقاً إلى الهجرانِ والصَّرْمِ
حتى إذا نادمهُم سيفه * بكلِّ كأسٍ مُرّةِ الطَّعْمِ
ترى حُمَيّاها بهاماتِهم * تغور بين الجِلْدِ والعظمِ
على أهازيجِ ظُباً بينها * ماشئتَ من حَذْفٍ ومن خَزْمِ
طاعوا له من بعدِ عِصيانِهم * وطاعةُ الأعداء عن رَغْمِ
وكم أعدُّوا واستعدُّوا له * هيهات ليس الخضْمُ كالقَضْمِ

ومن قولنا فى شبهه :

كم ألحمَ السَّيفَ فى أبناءِ مَلْحَمةٍ * مامنهُمُ فوق متْنِ الأرضِ ديَّارُ
وأوردَ النّارَ من أرواحِ مارقةٍ * كادتْ تَميَّزُ من غيظٍ لها النّارُ
كأنّما صالَ فى ثِنْيَيْ مُفاضتِه * مُستأسدٌ حنِقُ الأحشاءِ هدَّارُ
لما رأى الفِتنةَ العمياءَ قد رَحُبَتْ * منها على النَّاسِ آفاقٌ وأقطارُ
وأطبقَت ظُلَمٌ من فوقِها ظُلَمٌ * ما يُستضاءُ بها نورٌ ولا نارُ
قاد الجيادَ إلى الأعداءِ ساريةً * قُبّاً طَواها كطيِّ العَصْبِ إضمارُ
ملمومةً تتبارى فى مُلَمْلَمَةٍ * كأنّها لاعتدالِ الخَلقِ أفهارُ
تزوَرُّ عند احتباسِ الطَّعنِ أعيُنُها * وهُنّ من فُرُجاتِ النَّقْعِ نُظّارُ
تفُوتُ بالثّأرِ[1] أقواماً وتُدرِكُه * من آخرين إذا لم يُدرَكِ الثّارُ
فانسابَ ناصرُ دينِ اللهِ يقدُمُهم * وحولَه من جنودِ اللهِ أنصارُ
كتائبٌ تتبارى حولَ رايتِه * وجحفلٌ كسَوادِ الليلِ جرّارُ
قومٌ لهم فى مكَرِّ الليلِ غمغمةٌ * تحت العجاجِ وإقبالٌ وإدبارُ
يَستقبِلون[2] كراديساً مكردسةً * كما تدافعَ[3] بالتيّارِ تيّارُ

(١) فى بعض الأصول : « بالطعن » .
(٢) فى بعض الأصول : « يستقدمون » .
(٣) فى بعض الأصول : « تدفع » .

مِن كلِّ أَرْوعَ لا يَرْعَى لِهاجِسَةٍ * كأَنَّهُ مُخْدِرٌ في الْخَيْلِ هَصَّارُ
في قَسْطَلٍ من عَجاجِ الحربِ مُدَّ لهُ * بين السماءِ وبينَ الأرضِ أَسْتارُ
فكم بساحَتِهم من شِلْوِ مُطَّرَحٍ * كأنه فوقَ ظَهْرِ الأرْضِ إجّارُ
كأنّما رأْسُهُ أقلاقُ حنظَلةٍ * وساعِداهُ إلى الزَّنْدَيْنِ جُمَّارُ
وكم على النَّهْرِ أَوْصالاً مُفرّقةً[1] * تقَسَّمتْها المنايا فهْيَ أشطارُ
قد فُلِّقتْ بصفيحِ الهِنْدِ هامُهُمُ * فهُنَّ بين حَوامِي الخَيْلِ أَعْشارُ

ومن قولنا في الحروب :

وحوْمةٍ غادرَتْ فُرْسانَها * في مبركٍ لِلْحَرْبِ جعْجاعِ
مُسْتَلْحَمٍ بالموتِ مستشعِرٍ[2] * مُفَرِّقٍ لِلشَّمْلِ جَمّاعِ
وبلْدة صحْصَحَتْ منها الرُّبا * لفَيْلَقٍ كالسَّيلِ دَفّاعِ
كأنّما باضت نعامُ الفَلا * منهم بهامٍ فوْقَ أدْراعِ
تراهُمُ عند احْتِماسِ الوَغَى * كأَنّهُم جِنٌّ بِأَجْراعِ
بكلّ مأْثورٍ على مَتْنِهِ * مِثْلُ مدَبِّ النَّمل في القاعِ
يَرْتَدُّ طرْفُ العيْنِ من حَدِّهِ * عن كوْكبٍ للموتِ لَمّاعِ

ومن قولنا في الحروب :

ورُبَّ مُلْتفَّةِ العوالي * يلتَمِعُ الموتُ في ذُراها
إذا توطَّت حُزُونَ أَرْضٍ * طَحْطَحَتِ الشُّمَّ من رُباها
يقُودُها منهُ ليْثُ غابٍ * إذا رأى فُرْصةً قضاها
تَمْضي بِآرائِهِ سُيوفٌ * يَسْتبِقُ الموتُ في ظُباها
بِيضٌ تُحِلُّ القلوبَ سُودًا * إذا انْتَضَى عزْمَهُ انتضاها
تتْبعُهُ الطَّيرُ في الأعادي * تَجْنِي كَلاَ العُشبِ من كُلاَها

(١) في بعض الأصول : « مقسمة ».
(٢) في بعض الأصول : « مستعبر ».

أقدم إذْ كاعَ كلُّ ليثٍ * عن حوْمة الموتِ إذْ رآها
فأقحم الخيلَ فى غِمارٍ * تفْغَرُ بالموتِ لهوتاها
عنَت لهُ أوْجُهُ المنايا * فعافها القومُ واشتهاها

فرسان العرب فى الجاهلية والإسلام

ابن مكدم وقول حسان فيه

كان فارس العرب فى الجاهلية ربيعة بن مُكدَّم . من بنى فراس بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، وكان يُعْقَر على قبره فى الجاهلية . ولم يُعقر على قبر أحد غيره . وقال حسان بن ثابت وقد مرّ على قبره :

نفرَتْ قلوصِى من حِجَارةِ حرَّةٍ * بُنِيَت على طَلْقِ اليدين وهُوبِ
لا تنْفرِى يا ناقُ منه فإنّه * شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لولا السِّفارُ وطولُ قفْرٍ مهْمَهٍ * لتركتُها تحبو على عُرْقوبِ

فراس بن غنم وكلمة لعلى فيهم

وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب . كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم . وفيهم يقول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأهل الكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب ، أبدلكم الله بى مَن هو شرٌّ لكم ، وأبدلنى بكم من هو خيرٌ منكم . وددْت والله أنّ لى بجميعكم ـ وأنتم مائةُ ألف ـ ثلثمائة من بنى فراس بن غنم .

من فرسان العرب فى الجاهلية

ومن فرسان العرب فى الجاهلية عنترة الفوارس ، وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأُحَيْمِر السعدى ، وعامر بن الطُّفيل ، وعمرو بن عبدودّ ، وعمرو بن معديكرب .

من فرسانهم فى الاسلام

وفى الإسلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، والزبير ، وطلحة ، ورجال الأنصار : عبد الله بن خازم السُّلمى ، وعباد بن الحُصين ، وعُمَيْر بن الحباب ، وقطرىّ بن الفُجاءة ، والحريش بن هِلال السعدى ، وشبيب الحرورىّ .

للعرب فى بعض فرسانهم

وقالوا : ما استحيا شجاع قطُّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم وقطرىّ بن الفجاءة ، صاحب الأزارقة .

وقالوا : ذهب حاتم بالسخاء ، والأحنف بالحلم ، وخُرَيم بالنعمة ، وعُمير ابن الحباب بالشدّة .

ابن خازم مع ابن زياد فى جرذ

وبينا عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دُخل عليه بجُرَذٍ أبيض ، فعجب منه عبيد الله ، وقال : هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا ؟ ونظر إليه ، فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ ، واصفرّ كأنه جرادةٌ ذكر فقال عبيد الله : أبو صالح يعصى الرحمن ، ويتهاون بالسلطان ، ويقبض على الثعبان ، ويمشى إلى الليث ، ويلقى الرماح بنحره ، وقد آعتراه من جُرذ ما ترون ، أشهد أن الله على كل شىء قدير .

شبيب الحرورى

وكان شبيب الحرورىّ : يصيح فى جَنبات الجيش فلا يُلوى أحد على أحد . وفيه يقول الشاعر :

إنْ صاحَ يوْماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ منحدراً ٭ والريحَ عاصِفةً والموْجَ يَلتطمُ

ولما قُتل أمر الحجاج بشق صدره . فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل . فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المنفوخة .

لابن عباس فى الأنصار

ورجال الأنصار أشجع الناس ؛ قال عبد الله بن عباس : ما استُلّت السيوف ، ولا زحفت الزحوف ، ولا أُقيمت الصفوف ، حتى أسلم ابنا قيلة : يعنى الأوس والخزرج ، وهما الأنصار ، من بنى عمرو بن عامر من الأزد .

أبو براء لما أسن

العتبي : لما أسنّ أبو بَراء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه . ولم يكن له ولد يحميه ، أنشأ يقول :

دَفعْتُكُمُ عنى وما دفْعُ راحةٍ ٭ بشىءٍ إذا لم تَسْتعنْ بالأنامِلِ
يُضَعّفُنى حِلْمى وكثرةُ جهلِكُمْ ٭ علىّ وأنى لا أَصُولُ بجاهِلِ

لعلى فى همدان

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ رأى همدان وغَناءها فى الحرب يوم صفين :

ناديت هَمْدانَ والأبْواب مغلقة ٭ ومثْلُ هَمْدانَ سَنّى فَتْحةَ الباب
كالهُنْدُوانِىّ لم تُفْلَلْ مضارِبُهُ ٭ وجهٌ جميل وقلبٌ غيرُ وجّابِ

لابن براقة

وقال ابن برّاقة الهمدانى :

كذبتم وبَيْتِ اللهِ لاتأخذونها ٭ مُراغَمةً ما دام للسيفِ قائمُ
متى تجمعِ القلبَ الذّكِىّ وصارِمًا ٭ وأنْفاً حَمِيًّا تجتنبْــكَ المظالمُ
وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْنى غزَوْتُهُمْ ٭ فهل أنا فى ذا يالهمدانَ ظالمُ

لتأبط شرا

وقال تأبط شراً :

قليلُ التَّشــكِّى لِلمُهِمّ يُصِيبُهُ ٭ كثيرُ النوى شَتُّ الهوى والمسالكِ
يَبيتُ بموْماةٍ ويُضْحِى بغــيرها ٭ جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالكِ
إذا خاص[1] عينيه كرى النوم لم يَزَلْ ٭ لهُ كالِئٌ من قلب شيْحانَ فاتكِ
ويجعــلُ عينيه ربيئةَ قلبــه ٭ إلى سَلّةٍ مِن حدِّ أخْلَقَ باتِكِ
إذا هَـزّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلتْ ٭ نَوَاجِذُ أفواهِ المنايا الضّواحِكِ

للمخزومى

وقال أبو سعيد المخزومى ـ وكان شجاعا :

وما يُريدُ بنو الأغبار من رجلٍ ٭ بالجمرِ مُكتحِلٍ بالنبلِ مُشْتَمِلِ
لا يشرب الماء إلا من قَلِيبِ دمٍ ٭ ولا يَبيتُ له جارٌ على وَجَــلِ

لبشار

ونظير هذا قول بشّار العقيلى :

فَتًى لا يَبيتُ على دِمنةٍ ٭ ولا يَشْرَبُ الماء إلا بِدَمْ

بين ابن الزبير والأشتر

وقال عبدُ الله بن الزُّبير : التقيت بالأشتر النخعىّ يوم الجمل ، فما ضربته ضربةً حتى ضربنى خمساً أو ستا ، ثم أخذ برجلى فألقانى فى الخندق ، وقال : والله لولا قرابتُك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر .

جائزة عائشة لمن بشرها بنجاة ابن الزبير

وقال أبو بكر بن أبى شَيبة : أعطت عائشةُ الذى بشّرها بحياة ابن الزُّبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف .

لمتمم فى أخيه مالك

وذكر متمّم بن نُوَيرة أخاه مالكا وجَلَدَه ، فقال : كان يخرج فى الليلة

(١) فى بعض الأصول : « خاط » ، وهما بمعنى .

الصَّنَوْبرِ ، عليه الشملةُ الفلوت ، بيْنَ المَزَادَتَيْن على الجملِ الثِّفالِ ، مُعتقِل الرُّمْح الخطىّ . قالوا : وأبيك إن هذا لهو الجَلَد .

من عمر إلى ابن مقرن فى الصائفة

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقرِّن وهو على الصائفة : أن استعِن فى حَربك بعمرو بن معديكرب ، وطُليحة الأزدى ، ولا تُولّهما من الأمر شيئا ؛ فإن كل صانع أعلمُ بصناعته .

لعمرو بن معديكرب

وقال عمرو بن معديكرب يصف صبره وجَلَده فى الحرب :

أعاذِلُ عُـــدَّتى بَزّى ورُمحى * وكلّ مُقلِّص سَلِس القِيـادِ
أعاذلُ إنمـا أفْنَى شـــبابى * إجابتىَ الصَّريخَ إلى المنـادِى
مع الأبطال حتى سَلّ جِسْمِى * وأقرَحَ عاتِقى حَمْــلُ النِّجادِ
ويَبْقَى بَعدَ حِلْمِ القومِ حِلمى * ويَفْنَى قبلَ زادِ القومِ زادِى
ومنْ عجب عَجِبْتُ له حديثٌ * بديعٌ ليس من بدعِ السَّـدادِ
تمنّى أنــ يُلاقِيَنى أُبَىٌّ(١) * ودِدْتُ وأينما مِنّى ودادى
تمنّـانى وســـابِغَتى قميصى * كأنّ قتيرَها حَـــدقُ الجرادِ
وسيفٌ لابن ذى كنعان عندى * تُخُيّر نصلُهُ منــ عهدِ عادِ
فلوْ لاقيْتَنى لَقيتَ ليثـــاً * هصورًا ذا ظُبًا وشباً حِدادِ
ولاسْتَيْقنتَ أنّ الموتَ حق * وصرّحَ شحمُ قلبِكَ عن سوادِ
أُرِيدُ حياتَهُ ويُرِيدُ قتْـــلى * عذيرَكَ من خليلِكَ من مُرادِ

وله فى ابن مكشوح

ومن قوله فى قيس بن مكشوح المرادى :

تمنّـانى على فرسٍ * عليْهِ جالِسٌ أسدُهْ
علىَّ مُفاضةٌ كالنِّهْيِ * أخلص ماءَهُ جدَدُهْ
فلو لاقيتنى للقيـــ * ـتَ ليثاً فوقهُ لِبـدُهْ
سَبَنْتَى ضَيغماً هَصراً * صلَخْدًا ناشزًا كتدهْ

(١) فى بعض الأصول : « قبيس » ، وهو تحريف .

يُسامى القِرْنَ إن قِرْنٌ ❊ تيمَّمه فيعتضِــدهْ
فيأخُــذه فيُرْدِيه ❊ فيخفِضُه فيقْتصِدُهْ
فيـــدمغُه فيحطِمُهُ ❊ فيخضِمهُ فيزدَرِدُهْ

المكيدة فى الحرب

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة .

للمهلب

وقال المهلّب لبنيه : عليكم بالمكيدة فى الحرب فإنها أبلغ من النجدة .

وكان المهلّب يقول : أناةٌ فى عواقبها فوْت ، خيرٌ من عجلة فى عواقبها دَرَك .

لمسلمة بن عبد الملك

وقال مسلمة بن عبد الملك : ما أخذتُ أمرا قط بحزم فلمتُ نفسى فيه وإن كانت العاقبةُ علىّ ، ولا أخذت أمراً قطُّ وضيَّعتُ الحزم فيه إلا لُمت نفسى عليه وإن كانت لى العاقبة .

لبعض أهل التمرس بالحرب

وسئل بعض أهل التمرّس بالحرب : أىُّ المكايد فيها أحزم ؟ قال : إذكاء العيون ، وإفشاء الغَلَبة ، واستطلاع الأخبار ؛ وإظهار السرور ، وإماتةُ الفرَق ، والاحتراس من البطانة[1] من غير إقصاء لمن يُستنصح ، ولا استناد لمن يُستغشّ ، وإشغالُ الناس عمّاهم فيه من الحرب بغيره .

للهند

وفى كتاب للهند : الحازم يحذر عدوّه على كل حال : يحذر المواثبة إن قرُب ، والغارة إن بعُد ، والكمينَ إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى .

بين المأمون والفضل بن سهل فى رأى فات الأمين

وقال المأمون للفضل بن سهل : قد كان لأخى رأى لو عمل به لظفر . فقال له الفضل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال لو كتب إلى أهل خراسان وطَبَرِسْتان والرى ودُنْباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من إحدى خصلتين : إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه فَعَصانا أهلُ هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا . وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطى منه مَن معنا ، وتفرّق جندُنا ووهى أمرنا . فقال الفضل : الحمد لله الذى ستر هذا الرأى عنه وعن أصحابه .

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله فى حرب الأزارقة ، فكتب إليه : إن من

---

(١) فى بعض الأصول : « المكايد الباطنة » .

البلية أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يُبصره .

لبعض أهل التمرس

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه : شاوروا فى حربكم الشجعان من أولى العزم ، والجبناء من أولى الحزم ؛ فإن الجبان لا يألو برأيه ما يقى مُهجَكم ، والشجاع لا يعدو ما يشدّ نُصرتكم ؛ ثم خلّصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم مَعَرّةَ الجبان ، وتهوُّرَ الشجعان ، فتكونَ أنفذَ من السهم الزالج ، والحسام الوالج .

بين الإسكندر ومؤدبه فى مدينة فتحها

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هَدَمَها وقتل أهلها ، حتى مرَّ بمدينة كان مؤدِّبُه فيها ؛ فخرج إليه ، فألطَفَهُ الإسكندر وأعظمه . فقال له : أصلح الله الملك ، إن أحقَّ مَن زيّن لك أمرك ، وأعانك على كل ماهَوِيتَ لأَنَا ، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكانى منك ، فأحب أن تُشفّعنى فيهم ، وألاّ تخالفنى فى كل ما سألتك لهم . فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه . فلما توثّق منه قال : فإن حاجتى إليك أن تهدمها وتقتل أهلها . قال : ليس إلى ذلك سبيل ، ولابد من مخالفتك . فقال له : ارحل عنا .

سعيد بن العاص وحصن فتحه

قيل : صالحَ سعيدُ بن العاص حصناً من حصون فارس على ألاّ يقتل منهم رجلا واحداً ، فقتلهم كلهم إلا رجلا واحدا .

عمرو بن العاص وعلج قيسارية

ابن الكلبى قال : لما فتح عمرو بن العاص قَيساريّة سار حتى نزل غزّة ، فبعث إليه عِلْجُها : أن ابعث إلىّ رجلا من أصحابك أكلّمه . ففكّر عمرو وقال : مالهذا أحدٌ غيرى . قال : فخرج حتى دخل على العِلج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قطُّ مثله . فقال العلج : حدّثنى : هل فى أصحابك أحد مثلك ؟ قال لا تسأل عن هذا ، إنّى هيّنٌ عليهم إذ بعثوا بى إليك وعَرَّضُونى لما عرَضونى له ، ولا يدرون ما تصنع بى . قال : فأمر له بجائزة وكُسوة ، وبعث إلى البوّاب : إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . فخرج من عنده فمرّ برجل من نصارى غسّان فعرَفه ؛ فقال : يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسِن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، فرجع . فقال له الملك : ماردَّك إلينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتَنى فلم أجد ذلك يَسَعُ بنى عمى ، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن

يكون عند واحد . فقال : صدقت . أعْجِلْ بهم . وبعث إلى البواب أن خَلِّ سبيله . فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أمِنَ قال : لاعُدْتُ لمثلها أبدا . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له : أنت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غدرك .

عمر والهرمزان

وقال : ولما أُتِى بالهُرْمُزَان أسيرا إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين ، هذا زعيم العَجم وصاحب رُسْتم[١] فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نُصحاً لك فى عاجلك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب فى الإسلام . فدعا له عمر بالسيف . فلما همّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين ، شربةً من ماء أفْضَلُ من قتلى على ظمإ . فأمر له بشربة من ماء . فلما أخذها قال : أنا آمن حتى أشربها ؟ قال : نعم . فرمَى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج . قال : صدقتَ ، لك التوقُّفُ عنك والنظر فى أمرك ؛ ارفعا عنه السيف . فلما رُفع عنه . قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده . قال عمر : أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخّرَك ؟ قال كرهتُ أن تظُن أنى أسلمت جزعا من السيف وإيثارا لدينه بالرهبة . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك . ثم أمر به أن يُبَرّ ويُكْرَمَ ، فكان عمر يشاوره فى توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس .

معن ونفر من الأسرى

وهذا نظير فعل الأسير الذى أتى به مَعْنُ بن زائدة فى جملة الأسرى . فأمَرَ بقتلهم ، فقال له : أتقتل الأسرى عِطاشاً يا مَعْن فأمر بهم فَسُقُوا ، فلما شربوا قال : أتقتل أضيافك يا معن ؟ فخلّى سبيلهم .

ملك من ملوك العجم

وذكروا : أن ملكا من ملوك العجم كان معروفاً ببُعد الغور ويقظة الفطنة وحسن السياسة ، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظْهِر محاربته ، فيكشف عن ثلاث خصال من حاله ؛ فكان يقول لعيونه : انظروا ، هل ترِد على الملك أخبار رعيته على حقائقها

(١) هو رستم بن فرخزاد ، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان فى وقعة القادسية ، وقد قتل رستم فى هذه الوقعة .

أم يخدعه عنها المُنهى ذلك إليه ؟ وانظروا إلى الغِنى فى أى صنف هو من رعيته ، أفيمن اشتد أَنَفُهُ وقلّ شرَهُه ، أم فيمن قلّ أَنَفُه واشتدّ شرهُه ؟ وانظروا فى أى صنف من رعيته القوَّامُ بأمره ؟ أفيمن نظر ليومه وغده ، أم مَن شغله يومُه عن غده ؟ فإن قيل له : لا يُخْدَع عن أخباره ، والغِنى فيمن قلّ شرهُه واشتد أَنَفه ، والقوّام بأمره مَن نَظَر ليومه وغده ، قال : اشتغلوا عنه بغيره . وإن قيل له ضدّ ذلك قال : نار كامنةٌ تنتظر مُوقِدا ، وأضغانٌ مُزَمَّلَةٌ تنتظر مَخْرَجاً ، اقصدوا له ، فلا حَيْنَ أَحْيَنُ من سلامةٍ مع تضييع ، ولا عدوَّ أعدى من أَمْن أدّى إلى اغترار .

وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد

كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ ، ثم نزلت بابل ، ثم نزل أردشير بن بابك فارس ، فصارت دارَ مملكتهم ، وصار بخراسان ملوكُ الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروزَ بن يَزْدَجرد بن بهرام مَلِكَ فارس ، وكان غزاهم ؛ فكاده ملكُ الهياطلة بأن عَمد إلى رجل ممن عرفه بالمكايدة وحُسن الإدارة ، فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعا قبيحاً ونكّل به تنكيلا شديداً . ثم أرسله وقد واطأه على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز فى طريقه ، فأظهر النزوعَ إليه والاستنصار به من عظيم ما ناله . فلما رأى فيروزُ ما به من التوقيع والنكاية فيه ، وثِقَ به واستنام إليه . فقال : أنا أدلّك أيها الملك على غِرَّة القوم وعورتهم وأُعْلمك مكان غفلتهم . فسلك به سبيلَ مهلكة مُعْطِشة ؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثرَ أصحابه ، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه ، وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبدا ، ونصب لهم حجَرا جعله حدّا بينه وبينهم ، وحلف لهم ألّا يجاوزه هو ولا جنودُه ، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته ؛ فمَنُّوا عليه وأطلقوه ومنْ معه . فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفَة مما أصابه ، فعاد إلى غزوهم ناكثاً لعهده غادراً بذمته ، إلا أنه تلطف فى ذلك بحيلة ظنَّها مُجْزِئَةً فى أيمانه ، فجعل الحجر الذى نصبه لهم على فِيل فى مقدّمة عسكره ، وتأوّل فى ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه الله وذكّروه الأيمان به ، وما جعل على نفسه من عهده وذمته ، فأبى إلا لجاجاً ونكثا . فواقعوه نظفروا به فقتلوه وقتلوا حُماته واستباحوا عسكره .

للنبي صلى الله عليه وسلم

أسامة بن زيد اللّيثى قال : كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أُخرى ، ويقول : الحرب خدعة .

مالك الخثعمى وتسميته بالثعلب

زياد عن مالك بن أنس قال : كان مالك بن عبد الله الخثعمىّ ، وهو على الصائفة . يقوم فى الناس كلما أراد أن يرحل ؛ فيحمد الله تعالى ويثنى عليه ثم يقول . إنى داربٌ بالغداة إن شاء الله تعالى دربَ كذا . فتتفرق الجواسيس عنه بذلك؛ فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقا أُخرى. فكانت تُسميه الروم: الثعلب .

وصايا أمراء الجيوش

عمر بن عبد العزيز يوصى الجراح

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح : إنه بلغنى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا بعث جيشا أو سريّةً قال : اغْزُوا بسم الله ، وفى سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغُلُّوا ولا تَغدروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتُلوا امرأةً ولا وليدا . فإذا بعثتَ جيشا أو سرية فمُرْهم بذلك .

لعمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييدِ الله . وما النصر إلا من عند الله ولزومِ الحقِّ والصبر . فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تَجْبُنُوا عند اللقاء ، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدا ، وتَوَقَّوا قتلَهم إذا التقى الزحفان . وعند شنّ الغارات .

أبو بكر يوصى يزيد بن أبى سفيان

ولما وجّه أبو بكر رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان إلى الشام شيّعه راجلا . فقال له يزيد : إمّا أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازلٍ وما أنا براكب. إنى أحتسب خُطاى هذه فى سبيل الله . ثم قال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله ، فذرْهم وما حبسوا أنفسهم له ـ يعنى الرّهبان ـ وستجد قوما فحصوا عن أوساط رءوسهم الشّعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف . ثم قال له : إنى موصيك بعشر : لا تغدر ، ولا تمثّل ، ولا تقتُل هَرِما ولا امرأة ولا وليدا ، ولا تَعقِرَنّ شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم ، ولا تحرقنّ نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تَغُلّ ، ولا تجبن .

أبو بكر يوصى خالد بن الوليد

وقال أبو بكر رضى الله عنه لخالد بن الوليد ، حين وجهه لقتال أهل الردّة : سِر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدوّ فكن بعيدا من الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسِرْ بالأدِلّاء ، ولا تقاتل بمجروح ، فإنّ بعضه ليس منه ؛ واحترس من البَيَات ، فإنّ فى العرب غِرّة ؛ وأقلل من الكلام ، فإنما لك ما وُعِىَ عنك ؛ واقبل من الناس علانيتهم ، وكِلْهُمْ إلى الله فى سرائرهم ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

من خالد إلى مرازبة فارس

كتب خالد بن الوليد إلى مَرازبة فارس مع ابن نُفيلة الغسّانى : الحمد لله الذى فضّ حُزمتكم ، وفرّق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلَب ملككم ، وأذل عزكم ؛ فإذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا إلىّ بالرُّهن ، واعتقدوا منا الذمّة ، وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذى لا إله إلا هو ، لأسيرنّ إليكم بقوم يُحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا .

من عمر إلى ابن أبى وقاص

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنهما – ومَن معه من الأجناد :

أما بعد ؛ فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ؛ فإن تقوى الله أفضلُ العدّة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ؛ وآمُرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصى منكم من عدوّكم ، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم ، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدّتنا كعدّتهم ، فإذا استوَينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم فى مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستَحْيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ؛ ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا وإن أسأنا ؛ فرُبّ قوم سُلّط عليهم شر منهم ، كما سُلّط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كُفّارُ المجوس ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ . واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم .

أسأل الله ذلك لنا ولكم. وتَرَفَّقْ بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تُجَشِّمْهُم مسيرا يُتعبهم، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يَرْفُقُ بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفر لم ينقُص قوَّتهم، فإنهم سائرون إلى عدوّ مقيم حامى الأنفس والكُراع[1]. وأقِمْ بمن معك فى كل جمعة يوما وليلةِ، حتى تكون لهم راحةٌ يُجِمُّون فيها أنفسَهم، ويَرُمُّون أسلحتَهم وأمتعتَهم. ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه. ولا يَرْزَأ أحداً من أهلها شيئا: فإن لهم حرمة وذمة ابْتُلِيتم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوْهم خيرا، ولا تستبصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأَذْكِ العيونَ بينك وبينهم؛ ولا يَخْفَ عليك أمرُهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدَقك فى بعضه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتَبُثّ السرايا بينك وبينهم. فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقَهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم. وانتق للطلائع أهلَ الرأى والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابقَ الخيل؛ فإن لقُوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمرَ السرايا إلى أهل الجهاد والصبرِ على الجِلاد، ولا تَخُصَّ بها أحدا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ به أهلَ خاصّتك. ولا تبعثْن طليعةً ولا سريّةً فى وجهٍ تتخوف فيه غلبةً أو ضيعة ونِكاية؛ فإذا عاينت العدوّ فاضمُمْ إليك أقاصيَك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتَك وقوتَك، ثم لا تعاجلْهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصرَ عورةَ عدوِّك ومقاتلَه، وتعرفَ الأرضَ كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوِّك كصُنعه بك، ثم أذْكِ أحراسَك على عسكرك، وتَحَفَّظْ من البيات جُهدَك. ولا تُؤْتَىْ بأسيرٍ ليس له عهدٌ إلا ضربتَ عنقَه، لتُرهبَ بذلك عدوّ الله وعدوّك. والله ولىُّ أمرِك ومن معك، وولىُّ النصر لكم على عدوّكم، والله المستعان.

(١) الكراع: الخيل.

عبد الملك يوصى أميره إلى أرض الروم

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيَّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجرُ اللهِ لعباده، فكن كالمضارِب الكَيِّس الذى إن وجد ربحاً تَجرَ وإلا تَحَفَّظَ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحْرِز السلامة. وكن من احتيالك على عدوِّك أشدّ حذراً من احتيال عدوِّك عليك.

زياد يوصى قواده

وكان زياد يقول لقواده: تجنّبوا آثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء، وبطون الأودية.

بين الوليد وعباد بن زياد

وأغزى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً فى الشتاء، فغنِموا وسلموا. فقال لعبّاد: يا أبا حرب، أين رأى زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تُصاب.

معاوية وقد أراد استعمال ابن خالد ثم الغامدى

العُتبى قال: جاشت الرُّوم وغزت المسلمين برا وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهدَه قال: ما أنت صانع بعهدى؟ قال: أتّخذه إماماً لا أعصيه. قال: ارْدُدْ علىّ عهدى. ثم بعث إلى سُفيان ابن عوف الغامدىّ فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدى؟ قال: أتخذه إماماً أمام الحزم، فإن خالفَه خالفتُه. فقال معاوية: هذا الذى لا يُكَفْكَفُ من عجلة، ولا يُدْفع فى ظهره من خَوَر، ولا يُضْرَبُ على الأمور ضَرْبَ الجمل الثِّفال[1].

دريد وابن عوف النصرى

وقال دُريد بن الصمّة لمالك بن عوف النَّصرى، قائد هوازن، يوم حنين: يامالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا يوم له مابعده من الأيام، مالى أسمع رُغاء البعير، ونهيق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجلٍ أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. فأنقض به[2] وقال: راعى ضأن والله! وهل يَرُدُّ المنهزِمَ شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه،

(١) الجمل الثفال: البطىء.
(٢) أنقض به: أنكر عليه.

وإن كانت عليك ، فُضِحتَ فى أهلك ومالك ؛ وَيْحَك ! إنك لم تصنع بتقديم البيْضَة بَيْضَةِ هوازن إلى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى مُتَمَنَّع بلادِهم وعُلْيا قومِهم ، ثم الْقَ الصُّبَاء [1] على متون الخيل ؛ فإن كانت لك لَحِقَ بك مَن وراءك ، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلك ومالك . قال : لا والله لا أفعل ذلك ؛ إنك قد كبرتَ وذهل عقلُك . قال دريد : هذا يوم أشهده ولم يَفُتْنِى . ثم أنشأ يقول :

يا لَيْتَنى فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفاء الزَّمَعْ * كأَنَّها شاةٌ صَدَعْ

لقتيبة ينصح أصحابه

وكان قتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه : إذا غزوتم ، فأطيلوا الأظفار ، وقصِّروا الشعور ، والحظوا الناس شَزْرا ، وكلِّموهم رمزا ، واطعنوهم وخزا .

لأبى مسلم ينصح قواده

وكان أبو مسلم يقول لقوّاده : أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب .

لسعيد بن زيد

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه : قصروا الأعنَّة ، واشحذوا الأسنة ، تأكلوا القريب ، ويرهبكم البعيد .

المنصور وعيسى ابن موسى

وقال عيسى بن موسى : لما وجهنى المنصور إلى المدينة لُمحاربة عبد الله بن الحسن ، جعل يُوصينى ويكثر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إلى متى توصينى ؟

إنِّى أنَا ذاكَ الحسامُ الهِنْدِى * أكلتُ جَفْنِي وفَرَيْتُ غِمْدِى
* فكلُّ ما تَطْلُبُ عنْدِى عِنْدِى *

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

لجميل يصف لعبد الملك قومه

قال عبد الملك بن مروان لجُمَيل بن عَلقمة الثعلبى : ما مَبْلَغ عزّكم ؟ قال : لم يُطمَعْ فينا ولم يُؤمن منّا . قال : فما مبلغ حِفظكم ؟ قال : يدفع الرجل منّا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك : مثلُك من يصف قومه .

---

(١) الصباء : يعنى المسلمين ، وكذلك كان المشركون يسمونهم .

لابن مطاع

وقال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزى : أخبرنى عن مالك بن مِسْمَع قال له : لو غضب مالكٌ لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فى أى شىء غضب . قال عبد الملك : هذا والله السُّودد .

قال : ولم يَلِ قطُّ مالكُ بن مِسْمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان .

للعرب فى الدفاع عن الجار

وكانت العرب تمتدح بالذّبِّ عن الجار ، فيقولون : فلانٌ منيعُ الجار حامى الذمار . نعم ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل فى جواره ، فسُمّى مجير الجراد .

لمروان فى معن

وقال مَروان بن أبى حَفصة يمدح مَعن بن زائدة ويصف مَفاخر بنى شيبان ومَنْعهم لمن آستجار بهم :

هُمُ القومُ إن قالُوا أصابوا وإن دُعُوا * أجابوا ، وإنْ أعْطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا
هُمُ يَمنعُون الجارَ حتى كأنما * لِجارِهمُ بينَ السِّماكَيْنِ مَنزلُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

هُمُ يَمنعُون الجارَ حتى كأنهُ * كَثِيبةَ زَوْر بين خافِيَتَىْ نَسْرِ

معاوية وهانئ فى مال اختانه ابن شهاب

وذكر أن معاوية ولّى كَثير بن شهاب المذحجىّ خُراسان ، فاختان مالا كثيراً . ثم هرب فاستتر عند هانئ بن عُروة المُرادى . فبلغ ذلك معاوية فهدر دمَ هانئ . فخرج هانئ إلى معاوية ، فكان فى جواره . ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه . فلما نهض الناسُ ثبت مكانه ، فسأله معاوية عن أمره ، فقال : أنا هانئ بن عروة ، فقال : إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذى يقول فيه أبوك :

أُرَجِّلُ جُمّتى وأَجُرُّ ذَيلى * وتَحمل شِكّتى أفق كُمَيْتُ(١)
وأمشى فى سَراة بنى غُطَيْفٍ * إذا ما سامَنى أمرٌ أَبَيْتُ

قال : أنا والله يا أمير المؤمنين اليومَ أعزُّ منى ذلك اليوم . قال : بِمَ ذلك ؟ قال : بالإسلام . قال : أين كثير بن شهاب ؟ قال : عندى وعندك يا أمير المؤمنين .

(١) الأفق : الفرس الرائعة الكريمة .

قال : انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضا وسوِّغه بعضاً ، وقد أمَّنَّاه ووهبناه لك .

مقتل محمد ابن أبي بكر

الشيباني قال : لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصَيَّر اليه معاويةُ معاويةَ بن حُدَيْج الكندي . تفرّق عن محمد من كان معه ، فتغيّب فدُلّ عليه ، فأخذه فضرب عُنقه وبعث برأسه إلى معاوية . فكان أولَ رأس طِيفَ به في الإسلام . وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه ، فاستجار بأخواله من خَثعم فغيّبوه ؛ وكان سيّد خثعم يومئذ رجلا في ظهره بَزَخ[1] مِن كسْرٍ أصابه ، فكان إذا مشى ظنّ الجاهل أنه يتبختر في مِشيته ، فذُكِر لمعاوية أنه عنده ، فقال له : أسلِمْ إلينا هـذا الرجل . فقال : ابن أختنا لجأ إلينا لنحقن دمه ، فدعْه عنك يا أمير المؤمنين . قال : والله لا أدعه حتى تأتيني به . قال : لا والله لا آتيك به . قال : كذبت ، والله لتأتينّي به ، إنك ما علمتُ لأوْرَه[2] . قال : أجل ، إني لأوره حين أقاتلك على ابن عمك لتحقن دمه ، وأقدّم ابن عمي دونه تسفك دمه . فسكت عنه معاوية وخلّى بينه وبينه .

المهدي ومعن في رجل أهدر دمه

الشيباني قال : قال سعيد بن سلم : أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة كان يسعى في فساد سلطنته ، وجعل لمن دله عليه أو جاء به مائة ألف درهم . قال : فأقام الرجل حيناً متواريا ، ثم إنه ظهر بمدينة السلام ، فكان ظاهراً كغائب ، خائفا مترقبا . فبينا هو يمشي في بعض نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين . فأمكنَ الرجلَ من قياده ونظر إلى الموت أمامه . فبينا هو على تلك الحالة إذ سمع وَقْعَ الحوافر من وراء ظهره ، فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد ، أجرني أجارك الله . فوقف وقال للرجل الذي تعلق به : ما شأنك ؟ قال : بُغيةُ أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن دَلّ عليه مائة ألف . فقال : يا غلام ، انزل عن دابتك واحمل أخانا . فصاح الرجل : يا معشر الناس ، يُحالُ بيني وبين من طَلَبه

(١) البزخ : خروج الصدر ودخول الظهر .
(٢) الأوره : الأحمق .

أمير المؤمنين . قال له معن : اذهب فأخبره أنه عندى . فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب ، فدخل إلى المهدى فأخبره ، فأمر بحبس الرجل ووجّه إلى معن من يَحْضُرُ به ، فأتته رسلُ أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقُرِّبتْ إليه دابتُه ، فدعا أهل بيته ومواليه فقال : لا يُخلَصَنّ إلى هذا الرجل وفيكم عَيْنٌ تَطرف . ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدى ، فلم يردّ عليه ، فقال : يا معن ، أتُجير علَىَّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونعم أيضاً ! واشتد غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، قَتَلتُ فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خمسةَ عشر ألفاً ، ولِى أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحسن غَنائى ، فما رأيتمونى أهلا أن تهبوا لى رجلا واحداً آستجار بى ؟ فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سُرِّى عنه ، فقال : قد أجَرْنا من أجَرْتَ . قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله ـ فيكون قد أحياه وأغناه ـ فَعَل . قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف . قال : يا أمير المؤمنين ، إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم ؛ فأجزل له الصلة . قال : قد أمرنا له بمائة ألف . قال : فَتُعَجِّلُها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء . ثم انصرف ولحقه المال ؛ فدعا الرجل فقال له : خذ صلتك والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

الجبن والفرار

لعمرو بن معديكرب فى الفزعات — قال عمرو بن معديكرب : الفَزَعات ثلاث : فمن كانت فَزْعَته فى رجليه فذلك الذى لا تُقِلّه رجلاه ، ومَن كانت فزعته فى رأسه فذلك الذى يفرّ عن أبويه ، ومن كانت فزعته فى قلبه فذلك الذى يقاتل .

للأحنف — وقال الأحنف : أسرعُ الناس إلى الفتنة ، أقلهم حياء من الفرار .

لعائشة — وقالت عائشة أم المؤمنين : إنّ لله خَلقا قلوبُهم كقُلوب الطير ، كلما خَفَقت الريح خفقت معها ؛ فأفّ للجبناء ! فأف للجبناء !

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أُمّ نَفْسِهِ ✡ ويحمى شجاع القوم مَن لا يُناسِبُهْ

وَيُرْزَقُ مَعْروفَ الجَوادِ عَدُوُّهُ ٭ وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ البَخيلِ أَقارِبُهْ

لخالد بن الوليد

وقال خالد بن الوليد عند موته : لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفا ، وما فى جسمى موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنة أو رَمْيَة ؛ ثم هأنذا أموت حَتْفَ نَفْسى كما يموت العَيْر ؛ فلا نامت أعينُ الجبناء .

للفرار السلمى فى الفرار

ومن أشعار الفرّارين الذين حَسّنوا فيها الفرار على قبحه حتى حَسُن ، قول الفرّار السلمى :

وكتيبةٍ لَبَّسْتها بكتيبةٍ ٭ حتى إذا الْتَبَسَتْ أَمَلْتُ بها يدى

وتركتهم تَقِصُ الرماحُ ظُهورَهم ٭ مِن بينِ مقتولٍ وآخَرَ مُسْنَدِ

هل يَنْفَعَنّى أن تقولَ نساؤُهم ٭ وقُتِلْتُ دون رجالها : لا تَبْعَدِ

للحارث بن هشام فى الفرار

وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنّى : ما اعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول :

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قِتالَهُم ٭ حتى رَمَوْا مُهْرِى بأشقرَ مُزْبِدِ

وعلمت أنى إن أقاتل واحدا ٭ أُقتَل ولا يضرر عدوى مشهدى

فَصَدَفْتُ عنهم والأحِبَّةُ فيهمُ ٭ طمعاً لهم بعقابِ يوم مرصد

وهذا الذى سمعه صاحب رتْبيل فقال : يا معشر العرب ، حسنتم كلّ شىء فَحَسُنَ حتى الفرار .

وبعد هذا يأتى قول حسان فى ذلك .

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه ، وخرج فى زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله ، فاتبعه أهل مكة يبكون ، فرقّ وبكى وقال : أما لو كنا نستبدل داراً بدارنا ، أو جارا بجارنا ، ما رأينا بكم بدلا ؛ ولكنها النُّقلة إلى الله ! فلم يزل هناك مجاهداً حتى مات .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

قامتْ تُشَجِّعُنى هندٌ وقد علمت ٭ أنّ الشَّجاعةَ مقرُون بها العطَبُ

لا والذى منَعَ الأبصارَ رُؤْيتَهُ ٭ مايشْتَهى الموتَ عِنْدِى من له أدَبُ
للحرب قومٌ أضلَّ اللهُ سعْيهمُ ٭ إذا دعتْهُمْ إلى نِيرانِها وثبوا
ولَسْتُ منهم ولا أهْوى فِعالَهُمُ ٭ لا القتلُ يُعجبنى منها ولا السَّلَبُ

للوراق

وقال محمود الوراق :

أيها الفارِسُ المُشِيحُ المغيرُ ٭ إنّ قلبى من السّلاحِ يطِيرُ
ليسَ لى قُوّةٌ على رهَجِ الخَيْـ ٭ ـلِ إذا ثوّرَ الغُبارَ مُثِيرُ
واستَدارتْ رَحَى الحُروبِ بِقَوْمٍ ٭ فقتيلٌ وهارِبٌ وأسيرُ
حيثُ لا يَنطِق الجبانُ منَ الذُّعْـ ٭ ـرِ ويَعْلُو الصّياحُ والتَّكْبيرُ
أنا فى مِثْلِ ذا وهٰذا بليدٌ ٭ ولَبيبٌ فى غيْرِهِ نِحْريرُ

لابن خريم

وقال أيْمن بن خُرَيْم :

إنَّ لِلْفِتنةِ مَيْطاً[1] بيِّنا ٭ فرُوَيْد الميطَ منها يعتدِلْ
فإذا كان عطاءٌ فَأْتِهِمْ ٭ وإذا كان قِتالٌ فاعْتَزِلْ
إنما يُوقِدُها جُهّالُها ٭ حطَبَ النّارِ فدَعْها تشْتعِلْ

لصاحب كليلة ودمنة

ومما يحتج به الفارّون : ما قاله صاحب كليلة ودمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ؛ لأن النفقة فيه من النفس ، والنفقة فى غيره من المال .

لأبى تمام

أخذ هذ المعنى حبيب الطائى فنظمه فى شعره حيث يقول :

كَمْ بيْنَ قوْمٍ إنّما نفَقاتُهُمْ ٭ مالٌ وقوْمٍ يُنْفِقُونَ نُفوسا

من الفرارين : ابن الأشعث

ومن الفرّارين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ فرّ من الأزارقة وكان فى عشرة آلاف ، وكان قد بعث إليه المهلّب : يا بن أخى ، خَنْدِقْ على نفسك وعلى أصحابك ، فإنى عالم بأمر الخوارج ، ولا تغترّ . فبعث إليه : أنا أعلم بهم منك ، وهم أهوَنُ علىّ من ضَرطة الجمل فبيّته قطَرِىٌّ صاحب الأزارقة فقتَل من أصحابه خمسمائة ، وفرّ لا يلوى على أحد . فقال فيه الشاعر :

---

(١) ميطا : أى هياجا وصخبا .

تَرَكْتَ وِلْدَانَنا تَدْمَى نُحُورُهُمُ * وجئتَ مُنْهزِماً يا ضَرطةَ الجَمَلِ

أمية بن عبد الله

ومن الفرارين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ فر يوم مرداء هَجَر من أبي فُدَيْك، فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسي «المِهْرجانِ» من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير، فلو ركبت «النَّيروزَ» لسرتَ إليها في يوم واحد. فلما دخل عليه أهلُ البصرةِ لم يروا كيف يُكلّمونه، ولا ما يُلْقُونه من القول، أيهنّئونه أم يُعزّونه؛ حتى دخل عليه عبدُ الله بن الأهتم فاستشرف الناسُ له، وقالوا: ما عسى أن يُقال للمنهزِم؟ فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخذول، الذي خذله قومه. الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرّضت للشهادة جهدَك، ولكنْ عَلِمَ اللهُ حاجةَ أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلانِ مَن معك لك. فقال أميةُ بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرَنى عن نفسى غيرَك. وفيه يقول الشاعر:

إذا صوّتَ العُصْفُورُ طارَ فؤادُه   ولَيْثٌ حديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرائِدِ

الحجاج وخيل لأمية

أتى الحجاج بدواب من دواب أمية قد وُسم على أفخاذها: «عُدّة» فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: «للفِرار».

أبو دلامة

وقال أبو دُلامة: كنت مع مروان[1] أيام الضحاك الحرورى، فخرج فارس منهم فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم ثان، ثم ثالث. فانقبض الناس عنه، وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المُغتلم؛ فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت علىّ الدنيا وسَخَوْتُ بنفسى فى سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه. فإذا عليه فَرْوٌ قد بلّه المطر فارْمَعَلّ، ثم أصابته الشمس فاقفعلّ[2]، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان؛ فلما رآنى فهِم الذى أخرجنى، فأقبل نحوى وهو يرتجز ويقول:

وخارِجٍ أخرَجَهُ حُبُّ الطَّمَعْ * فرَّ مِنَ الموْتِ وفى الموْتِ وقعْ

* مَنْ كانَ يَنْوِى أهْلَهُ فلا رَجَعْ *

---

(١) هو مروان بن محمد.   (٢) تقبض.

فلما رأيته قَنَّعْتُ رأسي ووليت هاربا ومروان يقول : مَن هـذا الفاضح ؟ لا يفوتكم ! فدخلت فى غمار الناس .

لأعرابى فى الغزو

وقيل لأعرابى : ألا تغزو العدوّ ؟ قال : وكيف يكونون لى عدوّاً وما أعرفهم ولا يعرفوننى ؟

لآخر

وقيل للآخر : ألا تغزو العدوّ ؟ قال : والله إنى لأبغض الموت على فراشى ، فكيف أخبّ إليه ركضا !

لحسان يعير الحارث بن هشام

ومما قيل فى الفرّارين الجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يعيّر الحارث ابن هشام بفراره يوم بدر ، وقد تقدم ذكر ذلك :

إنْ كنتِ كاذبَةَ الذى حدَّثتِنِى * فنجوْتِ مَنْجَى الحارثِ بن هشام
ترَكَ الأحِبَّةَ لم يُقاتِلْ دونَهم * ونَجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجـام
مَلأَتْ به الفرْجَيْنِ فامتدتْ به * وثوَى أحِبَّتُه بِشَرِّ مُقـــام

لبعض العراقيين فى أكول جبان

وقال بعض العراقيين فى رجل أكول جبان :

إذا صَوَّتَ العُصفورُ طار فؤادُه * وليثٌ حديدُ الناب عند الثَّرائدِ

وقال فيه :

ضعيفُ القلبِ رعْدِيدٌ * عظيمُ الخلْقِ والمَنْظَرْ
رَأَى فى النومِ عُصْفوراً * فَوارى نفسَـــه أشهرْ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

لو جرَتْ خَيْلٌ نُكوصاً * لجرَتْ خَيْـــلُ دُفافَهْ
هِىَ لا خيْـــلُ رَجاءٍ * لا ولا خيْـــلُ مَخافَهْ

وقال آخر :

خَرجنا نُريدُ مُغاراً لنـا * وفينا زِيادٌ أبو صَعْصَعَهْ
فسِتَّةُ رَهْط به خمسـةٌ * وخمسةُ رهْط به أرْبعهْ

للطرماح في بني تميم

ولم يقل أحد فى وصف الجبن والفرار مثل قول الطِّرِمّاح فى بنى تميم :

تميمٌ بطُرْقِ اللؤمِ أَهْدى مِنَ القَطا ⁂ ولو سَلَكَتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ
ولو أنّ بُرْغوثاً على ظَهْرِ قَمْلةٍ ⁂ رأته تميمٌ يومَ زَحفٍ لولّتِ
ولو جَمَعَتْ يوماً تميمٌ جموعَها ⁂ على ذَرَّةٍ معقولةٍ لاشمعلّت[1]

لزفر بن الحارث

وليس يُعاب الشجاعُ والبُهْمة البطلُ بالفَرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة ؛ كما قال زُفر بن الحارث وفرّ يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال :

أيَذْهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأْتُه ⁂ بصالحِ أيامى وحُسنِ بلائيا
ولم تُرَ منى زَلّةٌ قبل هذه ⁂ فِرارى وتَرْكى صاحبىّ ورائيا

لعمرو بن معديكرب

وفرّ عمرو بن معديكرب من عباس بن مرداس وأَسَرَ أختَه ريحانة ؛ وفيها يقول عمرو :

أمِنْ رَيحانةَ الداعى السَّميعُ ⁂ يُؤَرِّقُنى وأصحابى هُجُوعُ

وفرّ عن بنى عبس وفيهم زُهير بن جَذيمة العبسى وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير ! فقال فيهم :

أجاعِلةٌ أُمُّ الثُّوَيْرِ خَزايةً ⁂ علىّ فِرارى إذ لقِيتُ بنى عَبْسِ
لقِيتُ أبا شأسٍ وشأساً ومالِكاً ⁂ وقيْساً فجاشت من لِقائِهم نفْسى
لَقُونا فضَمُّوا جانبيْنا بصادق ⁂ من الطعْنِ مثل النارِ فى الحطبِ اليبْس
ولما دَخلنا تحتَ فَىْءِ رِماحِهِم ⁂ خَبَطْتُ بكفّى أطلبُ الأرضَ باللّمْس
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِهِ ⁂ إذا عُرِفَتْ منه الشَّجاعةُ بالأمْس

وقال أيضا :

ولقد أجمع رِجلىّ بها ⁂ حذرَ الموت وإنى لفَرُورْ
ولقد أعطفها كارهةً ⁂ حين للنفس من الموت هَرِيرْ
كلّ ما ذلك منى خُلُق ⁂ وبكُلٍّ أنا فى الرَّوع جدير

(١) اشمعلت : تفرقت .

وابن صبح سادراً يُوعدنى ٭ ماله فى الناس ما عِشتُ مجير

بين الحارث وامرأته

وقال الحارث لآمرأته ، وذلك أنها نظرت إليه وهو يَحُد حربة يوم فتح مكة فقالت له : ماتصنع بهذه ؟ قال : أعددتُها لمحمد وأصحابه . فقالت : ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شىء . قال : والله إنى لأرجو أن أُخدِمَك بعضهم ! ثم أنشأ يقول :

إنْ يُقبِلوا اليومَ فما بى علّهْ ٭ هــذا سلاحٌ كاملٌ وألّهْ

٭ وذو غرارَين سَريعُ السّلّهْ ٭

فلما لقيهم خالد يوم الخندمة انهزم الرجل ، فلامته آمرأته ، فقال :

إنك لو شاهدتِ يومَ الخَنْدَمَهْ ٭ إذْ فرَّ صَفْوَانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ

وأبو يزيدَ قائم كالمُوتِمَهْ ٭ ولحقتْنــا بالسيوف المُسلمه

يفْلَقْنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ ٭ ضرباً فلا تُسْمَعُ إلا غَمْغَمَهْ

لهم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمــه ٭ لم تَنطِق فى اللوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ

بين ابن زياد وابن زرعة

وكان أسلم بن زرعة وجَّهه عبيد الله بن زياد لحرب أبى بلال الخارجى فى ألفين ، وأبو بلال فى أربعين رجلا : فشدُّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه ، فلما دخل على ابن زياد عنَّفه فى ذلك وقال : ويلك ! أتمضى فى ألفين وتنهزم عن أربعين ؟ فخرج عنه وهو يقول : لَأَنْ يذُمَّنى ابن زيادٍ حيًّا خيرٌ من أن يَمدحنى وأنا ميت ـ وفى رواية أخرى : أن يشتمَنى الأميرُ وأنا حىٌّ أحبُّ إلىّ من أن يدعولى وأنا ميت . فقال شاعر الخوارج :

أألفَا مُؤمِنٍ فيما زَعَمْتُمْ ٭ ويهزمهم بآسَــكَ أربَعونا

كذبْتُمْ ، ليس ذلِكُمُ كذاكُم ٭ ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا

هُمُ الفئةُ القليــلةُ قد عَلِمتُمْ ٭ على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرُونا

عبدالله بن مطيع

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مطيع بن الأسود العَدوى ، وكان فَرَّ يوم الحرَّة من جيش مُسلم بن عُقبة ، فلما كان أيامَ حِصارِ الحجاج بمكة لعبد الله بن الزُّبير جعل يقاتل أهلَ الشام ويقول :

أنا الذى فررتُ يومَ الحرَّهْ ٭ والشيخُ لا يَفِر إلا مرّهْ

فاليومَ أجزى فرّة بكرّه ٭ لا بأس بالكرّة بعد الفرّهْ

فلم يزل يُقاتل حتى قُتِل .

اقيس بن الخطيم

وأحسن ما قيل فى الفرار كله ماقاله قيس بن الخطيم :

إذا ما فررْنا كان أَسْوَا فِرارِنا ٭ صُدودُ الخُدودِ وازْوِرار المناكبِ
أُجالِدُهم يومَ الحديقة حاسرا ٭ كأنّ يدى بالسيف مِخْراقُ لاعبِ

لعتيبة بن الحارث

وفرّ عُتيبة بن الحارث بن هشام يوم ثبرة عن ابنه حَزْرة وقال :

ياحسرتى لقد لقِيتُ حَسْرَهْ ٭ بالتميم غشِيَتْنى عبْرَهْ
نِعمَ الفتى غادرْته بِثَبرَهْ ٭ نَجَّيْتُ نفسى وتَركتُ حَزرَهْ
٭ هل يتركُ الحرُّ الكريمُ بِكَرَهْ ٭

لأبى خراش

وفرّ أبو خراش الهذلى من فائد وأصحابه ، ورصدوه بعرفات فقال :

وفونى وقالوا ياخُوَيلد لاتُرَعْ ٭ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ
وقلتُ وقدجاوزتُ أصحابَ فائدٍ ٭ أأعْجَزتُ أُولى الخيل أم أنا أحْلم
فلولا آدراكُ الشرّ قامت حليلتى ٭ تَخيَّرُ من خُطَّابِها وهْى أَيِّمُ
ولولاادراكُ الشرّ أتلفتُ مُهجتى ٭ وكان خراش يومَ ذلك يَيْتَمُ

لحبيب بن عوف

وفرّ حُبيب بن عوف يوم مَرْداء هجر من أبى فُديك ، فقال :

بذلتُ لهم يا قَوم حوْلى وقوّتى ٭ ونُصْحى وما ضَمّت يداىَ من التِّبرِ
فلما تناهى الأمر بى من عدوِّكم ٭ إلىٰ مُهجتى ولّيتُ أعداءكم ظهرى
وطِرتُ ولم أحفِل ملامَةَ عاجز ٭ يُقيم لأطرافِ الرُّدَيْنِيّةِ السُّمْر
فلو كان لى روحانِ عَرّضتُ واحدا ٭ لكلِّ رُدَيْنِىّ وأبيضَ ذى أُثْر

٭ ٭ ٭

رَجع بنا القول إلى الفرّارين والجبناء وما قيل فيهم .

للفرزدق فى خالد ابن أسيد

فرّ خالد بن عبد الله بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجُفْرة بالبصرة ، فقال فيه الفرزدق :

وكلُّ بنى السَّوداء قد فرّ فرّةً ... فلم يبق إلا فرّةٌ فى آسْت خالدِ
فضحتم أمير المؤمنين وأنتمُ ... تمرُّون سُوداناً غِلاظَ السَّواعِدِ

لجبان

وقيل لرجل جبان فى بعض الوقائع : تقدم . فأنشأ يقول :

وقالوا تقدمْ ، قلتُ لست بفاعلٍ ... أخافُ على فَخّارتى أن تحطَّما
فلو كان لى رأسان أتلفتُ واحدًا ... ولكنه رأس إذا راح أعقما
فلو كان مُبْتاعاً لدَى السوق مِثْلُهُ ... فعلتُ ولم أحفِلْ بأن أتقدّما
فأُوتم أولادا وأُرْمِلُ نِسوةً ... فكيف على هذا ترون التقدُّما

بين هند وابن زنباع

وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها رَوْح بن زنباع : كيف سَوّدك قومك وأنت جبانٌ غيور ؟ قال : أمّا الجبن ، فإن لى نفسا واحدة فأنا أحوطها ، وأما الغيرة فما أحق بها مَن كانت له آمرأة حمقاء مثلك ، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمى به فى حِجْره .

لكعب بن زهير

وقال كعب بن زهير :

بُخْلا علينا وجُبْناً مِن عدوِّكم ... لبئْسَتِ الخلّتانِ البخلُ والجُبْنُ

فضائل الخيل

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى صفة الخيل : أعرافها أدفاؤها ، وأذنابها مَذَابُّها والخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بإناث الخيل فإنّ بطونها كنز ؛ وظهورها حِرْز ، وأصحابها مُعانون عليها .

وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أريد أن أشترى فرسا أُعِدُّه فى سبيل الله . فقال له : اشتره أدْهَمَ أو كُمَيْتاً أقْرَحَ أرْثَم ، أو مُحجّلا مطلق اليمين[1] ، فإنها ميامينُ الخيل .

(١) الأدهم : الأسود . والكميت : من الكمتة ، وهى لون بين السواد والحمرة . والأقرح : ما كان فى جبهته بياض قليل دون الغرة . والأرثم : هو ما كانت شفته العليا وأنفه أبيضين . والمحجل : ما كانت قوائمه بيضاء . ومطلق اليمين : أى لا تحجيل فيها .

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : أي الأموال أشرف ؟ قال : فَرَسٌ تتبعها فرس في بطنها فرس .

صفة جياد الخيل

للنبي صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيل الشقر .

وقال : لو جُمعتْ خيلُ العرب فى صعيد واحد ما سبَقها إلا أشقر .

وسأله رجل : أيُّ المـال خير ؟ قال : سِكة مأبورة ، ومُهْرةٌ مأمورة [1] .

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشّكال [2] فى الخيل .

لبعضهم

وقالوا : إنمـا سميت خيلا لآختيالها .

لأعرابى

ووصف أعرابىٌّ فرساً فقال : إذا تركته نَعَس ، وإذا حرّكته طار .

مسلم وابن عم له فى شراء خيل

وأرسلَ مُسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشترى له خيلا ، فقال له : لاعلم لى بالخيل . فقال : ألست صاحب قَنْص ؟ قال : بلى . قال : فانظر ، كلّ شىء تستحسنه فى الكلب فاطلبه فى الفَرس . فأتى بخيل لم يكن فى العرب مثلها .

لبعض الضبيين فى وصف فرس

وقال بعض الضَّبِّيّين فى وصف فرس :

متقاذِفٍ عبْلِ الشّوى شنِجِ النَّسا ٭ سَبّاقِ أَنْدِيَةِ الجِيَادِ عَمَيْثَلِ
وإذا تَعَلّلَ بالسّياطِ جِيادُها ٭ أعطاكَ نائله ولم يتعلّل

بين المهدى وابن دراج فى أفضل الخيل

سأل المهدى مطَر بن دَرّاج عن أى الخيل أفضل ؟ قال : الذى إذا استقبلتَه قلتَ نافر ، وإذا استدبرتَه قلت زاخر ، وإذا استعرضته قلت زافر . قال : فأىّ هذه أفضل ؟ قال : الذى طرْفه إمامُه ، وسَوْطُه عنانُه .

لبعضهم

وقال آخر : الذى إذا مَشَى رَدَى ، وإذا عدَا دَجا ، وإذا آستُقْبِلَ أقْعَى ، وإذا آستُدْبِرَ جَبَّى [3] ، وإذا آستُعرِض آستوى .

---

(1) السكة : الطريق المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة . والمأمورة : الكثيرة النتاج .

(2) الشكال : أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة .

(3) جبي : انكب على وجهه .

بين معاوية وصعصعة فى أفضل الخيل

وسأل معاوية بن أبى سفيانَ صعصعة بن صُوحان : أى الخيل أفضل ؟ قال : الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، العريض الثلاث ، الصافى الثلاث . قال : فَسِّرْ لنا . قال : أما الطويل الثلاث ، فالأذن والعنق والحزام ؛ وأما القصير الثلاث ، فالصُّلب والعَسِيب والقَضِيب؛ وأما العريض الثلاث ، فالجَبهة والمِنْخَر والوَرِك ؛ وأما الصافى الثلاث ، فالأديم والعين والحافر .

بين عمر بن الخطاب وعمرو ابن معديكرب فى عراب الخيل

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب : كيف معرفتك بِعِراب الخيل ؟ قال : معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده . فأمر بأفراس فعُرِضت عليه ، فقال : قدِّموا إليها الماء فى التِّراس ، فما شرب ولم يَكْتَفِ فهو من العِراب ، وما ثَنَى سُنْبُكه فليس منها .

قلت : إنما المحفوظ أن عمر شك فى العِتاق والهُجن ، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلى فأخبره ، فدعا سلمانُ بطست من ماء فوُضِع بالأرض ، ثم قدم إليه الخيل فَرَساً فرساً ، فما ثنى سنبكه وشرب هجّنه ، وما شرب ولم يَثْنِ عَرَّبه .

لحسان بن ثابت

وقال حسان بن ثابت يصف طولَ عنق الفرس :

بكل كُميت جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِه * أَقَبَّ طُوَال مُشرِفٍ فى الحوارِكِ

لزهير

وقال زهير :

ومُلْجَمُنا ما إنْ ينالُ قذالُه * ولا قَدماه الأرضَ إلا أناملِه

لبعض الشعراء

وقال آخر :

له ساقا ظَليمٍ خا * ضِبٍ فوجىءَ بالرُّعبِ
حديدُ الطَّرْفِ والمَنْكِبِ والعُرْقوبِ والقَلْبِ

وقال آخر :

هَرِيتٌ قصيرُ عِذارِ اللِّجامِ * أسيلٌ طَويلُ عِذارِ الرَّسَنْ

لم يرد بقوله « قصير عذار اللجام » قِصر خدِّه ، وإنما أراد طويل شق الفم ؛ وأراد بطول عذار الرسن ، طولَ الخدّ .

وقال آخر :

بكلِّ هَريتٍ نقيِّ الأديم ۞ طويلِ الحزام قصير اللببْ

لأبي عبيدة في عتاقة الفرس

وقال أبو عبيدة : يُستدلّ على عَتاقة الفرس برِقة جحافله وأرْنبَتِه ، وسَعة مِنخَرَيْه ، وعُرْى نواهقه ، ودِقّة حَقْوَيه وما ظهر من أعالى أُذنيه ، ورقة سالفتيه وأديمه ، ولين شعره . وأبيَنُ من ذلك كله لينُ شكير ناصيته وعُرفه .

وكانوا يقولون : إذا اشتد نفَسُه ، ورَحُبَ مُتَنَفَّسُه ، وطال عنقه ، واشتد حِقْوه ، وانهَرَتَ شِدْقُه ، وعظمت فخذاه ، وانشبخت[1] أنساؤه ، وعظمت فصوصه ، وصلبت حوافره ووُقحت : ألحق بجياد الخيل .

لرجل من أسد

قيل لرجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم من المُقرف ؟ قال نعم : أما الكريم فالجواد الجيد ، الذى نَهز نَهْز العَيْر ، وأُنُف تأنيف السَّير ، الذى إذا عـدا اسلهب ، وإذا قُيد اجلَعَبّ ، وإذا انتصب اتلأَبّ .

وأما المُقرف فإنه الذَّلول الحجَبَة ، الضخم الأرنبة ، الغليظ الرقبة ، الكثير الجلبة ، الذى إذا أرسلته قال أمسِكنى ، وإذا أمسكته قال أرْسِلْنى .

لابن الكلبي في جياد سليمان عليه السلام

وكان محمد بن السائب الكَلْبى يحدث أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان ابن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه ، فلما عُرضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب ، فعَرْقبها إلا أفراساً لم تُعرض عليه ، فوفد أقوامٌ من الأزد ، وكانوا أصهاره ، فلما فرغوا من حوائجهم ، قالوا : يانبيّ الله ، إنّ أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا . فأعطاهم فرساً من تلك الخيل ، وقال : إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا ؛ فإنكم لاتورون ناركم حتى يأتيكم بطعامكم . فساروا بالفرس ، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركبه أحدهم للقنْص فلا يُفلته شيء وقعت عينه عليه من ظبى أو بقر أو حمار ، إلى أن قَدِموا إلى بلادهم فقالوا : « مافرسُنا إلا زاد الراكب » ، فسموه زاد الراكب ، فأصل فحول العرب من نتاجه .

ويقال إن « أعوج » كان منها ، وكان فحلا لهلال بن عامر أنتجته أمه ببعض

(١) انشبخت : تقلصت .

بيوت الحىّ ، فنظروا إلى طِرْف يضع جَحْفَلَته على كاذَتها - على الفخذ مما يلى الحياء - فقالوا : أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم ، لعظم « أعوج » وطولِ قوائمه فقاموا إليه فوجدوا المهر ، فسموه أعوج .

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : أُغِير على أهل النسارِ[١] وأعوج موثَقٌ بثمامة ، فجال صاحبُه فى متنه ثم زجره فاقتلع الثمامة ، فخرجت تَخُف فى متنه كالخُذْروف وراءه ، فعدا بياضَ يومه وأمسى يتعشى من جَميم قُباء .

لبعض الشعراء فى فرس

وقال الشاعر فى وصف فرس :

وأحمرَ كالدِّيباج أمّا سماؤه * فريَّا ، وأمّا أرْضُه فمَحُول

قوله : سماؤه : أعلاه . وأرضه : أسفله ، يريد قوائمه .

للطائى

وللطائى نظير هذا حيث يقول :

مُبْتَلُّ مَتْنٍ وصَهْوَتَيْن إلى * حوافِرٍ صَلْبةٍ له مُلُسِ
فهو لَدَى الرَّوْع والجلائب ذو * أعْلًى مُنَدًّى وأسفل يَبَس
أو أدهم فيــه كُمْتةٌ أَممٌ * كأنّهُ قطعةٌ مِنَ الغَلَسِ
صهْصلِقٌ فى الصَّهِيلِ ، تحسَبُهُ * أُشْرِجَ حُلقومُه على جَرَسِ

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهبٍ الكاتب .

ما مُقْرَبٌ يختالُ فى أشْطانه * ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ
بحوافرٍ حُفُرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ * وأشاعرٍ شُعْرٍ وخلْقٍ أخْلَقِ
وبشُعلةٍ تبْدُو كأنّ حُلولها * فى صَهْوَتَيْه بُدُوُّ شيْبِ المَفْرِقِ
ذو أوْلَقٍ تحت العَجاجِ وإنما * من صِحّةٍ إفراطُ ذاك الأوْلَقِ
تُغْرَى العيونُ به ويُفْلِقُ شاعر * فى نَعْتِه عفواً وليس بمُفْلِقِ
بمُصَعَّدٍ من نعتـه ومُصَوَّبٍ * ومُجَمَّعٍ من حسنه ومُفَرَّق

---

(١) ماء لبنى عامر.

قدسالتِ الأوضاحُ سيْلَ قرارةٍ * فيـه فمفْترِقٌ عليـه وملتقِى
صافى الأديم كأنمـا أَلْبَستَهُ * من سُنْدُسٍ ثوباً ومن إستبرق
مُسْوَدّ شَطْرٍ مثل ما اسودَّ الدُّجَى * مُبيَضّ شطرٍ كابيضاضِ المُهْرَقِ
فكأن فارسه يُصَرفُ إذ بَدَا * فى متنه آبْنًا للصباح الأبلق
إمْليسة إمليـدة لو عُلّقَتْ * فى صَهْوَتيه العينُ لم تتعلّقِ
يُرْقَى وماهو بالسَّليم ويَغتدى * دونَ السلاح سِلاحَ أروعَ مُلِقِ

لبعض الشعراء فى أبي دلف

وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البَذّ [1] وتحته فرس أدهم وعليه نَضْح الدم، فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد:

كم ذا تُجَرِّعُه المَنونَ ويَسْلَمُ * لو يَستطيعُ شَكا إليكَ الأدهَمُ
فى كلّ مَنْبتِ شعرةٍ من جِلْدِهِ * نَمَق يُنَمِّقُه الحسامُ المِخْذَمُ
وكأنمـا عَقَـدَ النُّجومَ بطَرفِه * وكأنهُ بِعُـرَى المجرَّةِ مُلجَم
وكأنه بين البَوارِقِ لَقْوَةٌ * شَقراءُ كاسرة طَوَتْ ما تطعمُ
ما تُدرِكُ الأرواحُ أدْنَى سيره * لا بَلْ يفوتُ الرِّيحَ فهْوَ مُقدَّمُ
رَجَعَتْهُ أطرافُ الأسِنَةِ أشقرًا * واللّوْن أدهم حينَ ضَرَّجَهُ الدَّمُ

قال: فأمر له بعشرة آلاف.

لابن عبد ربه فى وصف الفرس

ومن قولنا فى وصف الفرس:

ومُقْرِبة يَشقرُّ فى النَّقعِ كُمْتُها * ويَخْضَرُّ حِيناً كلما بَلَّها الرَّشحُ
تطِيرُ بِلا رِيشٍ إلى كلّ صَيْحةٍ * وتَسْبَحُ فى البَرّ الذى مابه سَبْحُ

لابن الرقاع

وقال عدىّ بن الرّقاع:

يَخرجن من فُرُجات النَّقْع دامِيَةً * كأنّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البحترى الشاعر من سعيد بن حُمَيد بن عبد الحميد الكاتب فرساً

---

(١) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمى فى أيام المعتصم، وشهدها أبو دلف.

ووصف له أنواعاً من الخيل فى شعره فقال :

لَأُكَلِّفَنَّ العِيسَ أبعدَ هِمَّةٍ * يجرى إليها خائف أو مُرْتَجِى
وإلى سَرَاةِ بنى حُميدٍ إنهم * أمسَوْا كواكبَ أشرقَتْ فى مَدْحِجِ
والبيتُ لولا أنّ فيه فضيلةً * تعلُو البيوتَ بفضلِها لم يُحْجَجِ
فأعِنْ على غزوِ العدوِّ بمُنْطَوٍ * أحشاؤهُ طَىَّ الرِّداء المُدْرَجِ
إمّا بأشقرَ ساطِعٍ أغشى الوَغَى * منهُ بمثلِ الكوكبِ المتأجِّجِ
مُتَسَرْبِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَهُ * بدمٍ فما تلقاهُ غيرَ مُضَرَّجِ
أو أدهمٍ صافى الأديمِ كأنهُ * تحتَ الكمىِّ مُظهَّرٌ بيَرَنْدَجِ
ضَرِمٍ يَهيجُ السَّوْطُ من شُؤْبُوبِهِ * هَيْجَ الجَنائبِ من حريقِ العرفَجِ
خَفِيَتْ مَواقِعُ وَطْئِهِ فلوَ انّه * يجرى برَملةِ عالجٍ لم يُرْهِجِ
أو أشهب يَقَقٍ يضىء وراءه * متنٌ كمتنِ اللُّجةِ المُترجرجِ
تَخفَى الحُجولُ ولو بلغْنَ لَبانَه * فى أبيضٍ مُتَألّقٍ كالدُّمْلُجِ
أوْفَى بعُرْفٍ أسودٍ مُتفرّدٍ * فيما يليهِ وحافر فيرُوزَجى
أو أبلقٍ مَلأَ العيونَ إذا بَدا * من كلِّ لونٍ مُعْجِبٍ بنموذَجِ
جذلانَ تحسُدُه الجيادُ إذا مَشى * عَنَقاً بأحسنِ حُلَّةٍ لم تُنْسَجِ
وعريضِ أعلى المتن لو علَّيْتَه * بالزئبقِ المُنهالِ لم يَتَدَحْرَجِ
خاضَتْ قوائمه الوثيقُ[1] بناؤُها * أمواجَ تحْنيبٍ بهنَّ مُدرَّجِ
ولأنتَ أبعدُ فى السَّماحةِ همّةً * مِن أن تَضِنَّ بمُلْجَمٍ أو مُسْرَجِ

لامرئ القيس

وأول من شَبّه الخيل بالظباء والسِّرحان والنعامة ، وتبعه الشعراء وحذوا حذوه وعلى مثاله ــ امرؤ القيس بن حجر :

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نَعامة * وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريبُ تَتْفلِ

(١) فى بعض الأصول : « القويم » .

كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انْتحى ٭ مَداكَ عروسٍ أو صَلاية حَنْظَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ٭ كجُلمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ منْ عَلِ
دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّه ٭ تتابُعُ كفَّيْه بخيْطٍ موَصَّلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِه ٭ كما زلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتنَزِّلِ

لطفيل الخيل

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فحذوا عليه، فقال طُفيل الخيل:

إنى وإنْ قَلَّ مالى لا يُفارِقنى ٭ مثْلُ النَّعامة فى أوْصالِها طولُ
تقْريبها المَرَطى والجوْزُ مُعتدلٌ ٭ كأنّه سُبَدٌ بالماء مغسولُ
أو ساهِمُ الوجْهِ لم تُقْطَعْ أباجِلُه ٭ يُصانُ وهْوَ ليوْمِ الرَّوْعِ مَبْذولُ

بين عبد الملك بن مروان وأصحابه

وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أى المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر التى كأنها غِرْقِئُ البيض. وقال بعضهم: مناديل اليمن التى كأنها أنوار الربيع. فقال: ماصنعتم شيئا، أفضلُ المناديل مناديل عَبْدة بن الطَّبيب حيث يقول:

لمَّا نزَلنا ضَربنا ظِلَّ أخْبِيَةٍ ٭ وفارَ باللحمِ للقوْمِ المراجيلُ
ورداً وأشقرَ لم يُنْهِئه طابخُهُ ٭ ماقاربَ النُّضْجَ منها فهومأكولُ
وقد وثبنا على عُوجٍ مُسوَّمَةٍ ٭ أعرافُهُنَّ لأيْدينا مناديلُ

سوابق الخيل

للأصمعى

قال الأصمعى: ماسبق فى الرهان فرسٌ أهْضَمُ قطُّ. وأنشد لأبى النَّجم:

٭ مُنتفِج الجوْفِ عريضٌ كلْكَلُهْ ٭

لأبى النجم فى فرس هشام

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلا مُسَبِّقا لا يكاد يَسبق، فسَبَقت له فرسٌ أنثى وصَلَّت أختها، ففرح لذلك فرحا شديداً، وقال: علىّ بالشعراء. قال أبو النجم: فدُعينا فقيل لنا: قولوا فى هذه الفرس وأختها. فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرةَ حتى يقولوا. فقلت له: هل لك فى رجل يَنْقُدُك إذا آستنسئوك؟ قال: هات. فقلت من ساعتى:

أشاعَ للغَرَّاء فينا ذِكرَها ٭ قوائمٌ عوجٌ أطَعْنَ أمرَها

وما نسينا بالطريق مُهْرها ٭ حين نَقيسُ قدره وقدرها

وصبرَهُ إذا عـدا وصبرَها ٭ والمـاءُ يعلو نحره ونحرها

ملْمومة شـدَ المليـكُ أسْرَها ٭ أسْفَلَهـا وبطنَهـا وظهْرها

قدكاد هاديها يكونُ شَطْرها ٭ لاتأخذُ الحَلْبَةُ إلا سُؤْرَها

قال أبو النجم : فأمر لى بجائزة وانصرفت .

بين الرشيد والأصمعى فى فرس سابق

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد ، وأبو الحسن على بن جعفر البصرى ، قالا : حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قرَيْب الأصمعى : أن هارون الرشيد ركب فى سنة خمس وثمـانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلْبة . قال الأصمعى : فدخلت الميـدان لشهودها فيمن شَهِد من خواص أمير المؤمنين ؛ والحلْبةُ يومئذ أفراسٌ للرشـيد ولولديه الأمين والمـأمون ، ولسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى بن أبى جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهرون الرشيد سابقاً ؛ فابتهج لذلك ابتهاجا عُلِم ذلك فى وجهه ، وقال علىّ بالأصمعى . فنوديتُ له من كل جانب ، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه ، فقال : ياأصمعى ، خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قوْنَسِه إلى سُنْبُكه ؛ فإنه يقال إن فيه عشرين آسمـا من أسمـاء الطير . قلت : نعم ياأمير المؤمنين ؛ وأُنشدك شعراً جامعا لها من قول أبى حَزرة . قال : فأنشدنا لله أبوك . قال : فأنشدته :

وأقَبَّ كالسِّرحانِ تمّ له ٭ مابين هامَتِه إلى النَّسْرِ

الأقب : اللاحق المُخْطَف البطن ، وذلك يكون من خِلْقَةٍ وربمـا حدث من هُزال أو بُعْدِ قَوَد ؛ والأنثى قَبَّاء ، والجمع قُبٌّ ، والمصدر القَبب . والسِّرحان : الذئب ، شبهه فى ضُموره وعدْوه به ، وجمعه سَراحين : وقد قالوا : سِراح . والهـامة : أعلى الرأس ، وهى أم الدماغ ، وهى من أسمـاء الطير . والنسر : هو ما آرتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النَّوى والحصى ، وهو من أسماء الطير ، وجمعه نُسور .

رَحُبَتْ نَعامتُه ووُفِّر فَرخُهُ ٭ وتمكن الصُّرَدان فى النحْر

رَحُبت : اتسعت . ونعامته : جلدة رأسه التى تغطى الدماغ ، وهى من أسماء الطير . وقوله « ووُفّر فرخه » الفرخ : هو الدماغ ، وهو من أسماء الطيور . ووفّر أى تمّم ؛ يقال : وفّرت الشىء ووفَرته ، بالتخفيف ، موْفورٌ . والصَّردان : عرقان فى أصل اللسان ، ويقال إنهما عرقان أخضران مكتنِفان باطن اللسان ، منهما الرّيقُ ونَفَس الرئة ؛ وهما من أسماء الطير . وفى الظهر صُرَد أيضا ، وهو بياض يكون فى موضع السرج من أثر الدَّبَر ؛ يقال : فرس صَرِد إذا كان ذلك به . والنحر : موضع القلادة من الصدر ، وهو البَرْك .

وأَنافَ بالعُصْفورِ من سَعَفٍ * هامٍ أشمَّ موَثَّقُ الجِذْرِ

أناف : أشرف . والعصفور : أصل منبت الناصية . والعصفور أيضاً : عظم ناتئ فى كل جبين . والعصفور : من الغرر أيضاً ، وهى التى سالت ودقّت ولم تجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرْحة ؛ وهو من أسماء الطير . والسَّعَف ، يقال : فرس بَيّن السَّعَف ، وهو الذى سالت ناصيته . وهامٍ : أى سائل منتشر . وأشمّ : مرتفع ؛ والشّمم فى الأنف : ارتفاع قصبته . ويروى : هادٍ أشم . يريد عُنقاً مرتفعاً ، وجمعه هوادٍ . وقوله : موثّق ، أى شديد قوىّ . والجِذْر : الأصل من كل شىء . قال الأصمعى وغيره : هو بالفتح . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو بالكسر .

وآزدانَ بالدّيكَيْنِ صَلصَله * وَنَبَتْ دجاجتُهُ عن الصَّدرِ

ازدان : افتعل ، من قولك زان يزين ، وكان الأصل : ازتان ، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاى ، وكذلك ازداد ، من زاد يزيد . والديكان : واحدهما ديك ، وهو العظم الناتئ خلف الأذن ، وهو الذى يقال له الخُشَشاء والخشّاء . والصلصل : بياض فى طرف الناصية : ويقال : هو أصل الناصية : والدجاجة : اللحم الذى على زَوْره بين يديه ؛ والديك والصلصل والدجاجة : من أسماء الطير .

والناهِضانِ أُمِرَّ جَلْزُهُما * فكأنما عُثِما على كَسْرِ

الناهضان : واحدهما ناهض ، وهو لحم المنكبين ؛ ويقال : هو اللحم الذى يلى العَضُدَيْن من أعلاهما ؛ والجمع نواهض ؛ ويقال فى الجمع : أَنْهُض ، على غير قياس . والناهض : فرخ القطا ، وهو من أسماء الطير . وقوله : أُمِرَّ جَلْزُهما : أى فُتِلَ وأُحْكِمَ : يقال أمررتُ الحبل فهو مُمَرٌّ ، أى فتلته ؛ والجَلْز : الشدّ . وقوله :

* فكأنما عُثِما على كَسْرِ *

أى كأنهما كُسِرَا ثم جُبِرا ؛ يقال : عُثِمَت يَدُه . والعَثْم : الجبر على عُقدة وعِوَج ؛ وعُثمان : فُعلان منه .

مُسْحَنْفِرُ الجَنْبَيْنِ مُلْتَئِمٌ * ما بَيْنَ شيمَتِهِ إلى الغُرِّ

مسحنفر الجنبين : أى منتفخهما . مُلتئم : أى معتدل . وشيمته : نحْره [1] . والشيمة أيضاً : من قولك : فرس أَشْيَمُ : بيّنُ الشِّيمة ، وهى بياض فيه ؛ ويقال : أن تكون شامة أو شام فى جسده . والغُرّ فى الطير الذى يسمى الرخمة ، وهى عضلة الساق [2]

وَصَفَتْ سُمَاناهُ وحافِرُهُ * وأَدِيمُهُ ومَنابِتُ الشَّعْرِ

السُّمَانَى : طائر ، وهو موضع من الفرس لا أحفظه ، إلا أن يكون أراد السَّمامة ، وهى دائرة تكون فى سالفة الفَرس ، وهو عُنقه . والسَّمامة من الطير أيضا . والأديم : الجلد .

وسَمَا الغُرابُ لِمَوْقِعَيْهِ مَعًا * فأُبِينَ بَيْنَهُمَا على قَــدْرِ

سما الغراب : أى ارتفع . والغراب : رأس الورك . ويقال للصَّلوَين : الغرابان ، وهما مكتنفا عَجْب الذنب . ويقال : هما أعالى الوركين . والموقعان

(١) فى بعض الأصول : « منخره » .

(٢) كذا فى بعض الأصول . وفى نهاية الأرب : « والغر فى الطير الأغلب الذى يسمى الرخمة . وهى من الفرس عضلة الساق » . والذى فى سائر الأصول : « والغر فى الأغلب على الذى يسمى الرخمة من الفرس وهى عضلة الساق »

منه : فى أعالى الخاصرتين . فأُبِينَ : أى فُرِّق بينهما . على قدر ، أى على استواء واعتدال .

واكْتَنَّ دونَ قَبِيحِهِ خُطَّافُهُ * ونَأَتْ سَمَامَتُـهُ عن الصَّقْر

اكْتَنَّ ، أى استتر . والقبيح : ملتقى الساقين ، ويقال إنه مُرَكَّب الذراعين فى العضدين . والخُطَّاف : من أسماء الطير ، وهو حيث أدركت عَقِب الفارس إذا حرّك رجليه ، ويقال لهذين الموضعين من الفرس : الْمَرْكلان . ونأت ، أى بعدت ، والسَّمامة : دائرة تكون فى عُنق الفرس ، وقد ذكرناها ، وهى من أسماء الطير . والصقر : أحسبها دائرة فى الرأس ، وما وقفت عليها ، وهى من أسماء الطير .

وتَقَدَّمَتْ عنـه القَطاةُ له * فنأتْ بمَوْقِعها عن الْحُر

القطاة : مقعد الرِّدْف ، وهى من أسماء الطير ؛ والْحُرّ : من الطير ، يقال : إنه ذكر الحمام . وهو من الفرس : سواد يكون فى ظاهر أذنيه .

وسَما على نقْوَيْهِ دون حِدَاته * خَرَبانِ بينهما مَدَى الشِّبر

النّقْوان : واحدهما نقْو ، والجمع أنقاء . وهو عظم ذو مُخ ، وإنما عَنَى هاهنا عظامَ الوَرِكين ؛ لأن الخَرَب هو الذى تراه مثل المدْهُن فى وَرك الفرس . وهو من الطير : ذَكَرُ الحبارى . والحِدأة : من الطير ؛ وأصله الهمز ولكنه خُفِّف ، وهى سالفة الفرس ، وجمعها حِداء ، على وزن فِعال ، كما تقول : عَظاءة وعَظاء ؛ ويقال : عَظاية . وإذا فتحت الفاء قلت حدَأة ، وهو الفأس ذات الرأسين ، وجمعها حَدَأ ، مثل نَواة ونَوى ، وقَطاة وقطا .

يدع الرَّضِيم إذا جرى فِلَقا * بتوائِمٍ كمواسِمٍ سُمْـــرِ

الرَّضيم : الحجارة . والفِلق : المكسورة فِلَقا . بتوائم : جمع توْأم ، وقد قالوا : تُؤَام ، على وزن فُعال ، جمع تَوْأم ؛ وهى على غير قياس . يقول : هى مَثْنَى مَثْنَى ، يعنى حوافره . والمواسم : جمع مِيسَم الحديد ، أى إنها كمواسم الحديد فى صلابتها . وقوله سمر : أى لون الحافر ، وهو أصلب الحوافر .

رُكِّبْنَ فى مَحْضِ الشَّوَى سَبِطٍ ۞ كَفْتِ الوُثُوبِ مُشدَّدِ الأَسْرِ

الشوى هاهنا : القَوائم ، والواحدة شَواة ؛ ويقال : فرس محض الشوى ، إذا كانت قوائمه معصوبة . سَبِط : سهل . كَفْتِ الوثوب . أى مجتمع ، من قولك : كَفَتُّ الشىء ، إذا جمعته وتممته . مشدّد الأسر : أى الخلق .

قال الأصمعى : فأمر لى بألف درهم [1] .

لأبى العتاهية فى المشمر فرس الرشيد

وسبق يوما فرس للرشيد ، يسمى المشمّر . وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابنى يحيى بن خالد البرمكى . فقال أبو العتاهية :

جاء المشمّر والأفراس يقدُمها ۞ هَوناً على سرعة منها وما انتهرا
وخلف الريح حسرت وهى تتبعه ۞ ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

لأبى النجم فى الحلبة

وقال أبو النجم فى شعر يصف الفرس ، وهو أجود شعر يصف الحلبة :

ثمّ سَمِعْنا بِرِهانٍ نأمُلُهْ ۞ قِيدَ لهُ مِن كلِّ أُفقٍ جَحْفَلُهْ
فقلتُ للسَّائس قُدْهُ أُعْجِلُهْ ۞ واغْدُ لَعنَّا فى الرِّهانِ نُرْسِلُهْ
نعلو بهِ الحَزْنَ ولا نُسهِّلُهْ ۞ إذا علا الأخْشَبَ صاح جندلُهْ
تَرَنُّمَ النُّوَّحِ يُبكِي مُثْكِلُهْ ۞ كأنَّ فى الصَّوْتِ الذى يُفَصِّلُهْ
زُمَّارَ دُفٍّ يَنثنِى جُلجُلُهْ ۞ حتى وردنا المِصْرَ يُطْوَى قَنْبَلُهْ
طَىَّ التِّجار العَصْبَ إذ تَنخَّلُهْ ۞ وقد رأينا فِعلَهُمْ فنَفْعَلُهْ
نطْويه والطَّىّ الرقيقُ يجدلُهْ ۞ نُضمِّرُ الشَّحْمَ ولسنا نَهزِلُهْ
حتى إذا الليلُ تولَّى أَنْجَلُهْ ۞ واتَّبَعَ الأيدىَ مِنه أرْجُلُهْ
قُمنا على هَوْلٍ شديدٍ وَجَلُهْ ۞ نَمُدُّ حَبْلا فوقَ خَطٍّ نَعْدِلُهْ
نقولُ قَدِّمْ ذا وهٰذا أَدْخِلُهْ ۞ وقام مشقوقَ القميص يُعْجِله
فوق الخُماسِىِّ قليلًا يَفضُلُهْ ۞ أَدْرَكَ عَقْلًا والرِّهانُ عَمَلُهْ

(١) فى نهاية الأرب : « بعشرة آلاف درهم » .

حتى إذا أدركَ خيْلا مُرسِلهْ * ثار عَجَاجٌ مُسْتَطِيرٌ قَسْطلهْ
تَنْفشُ منه الخيلُ ما لا تغزلهْ * مَرًّا يُغَطِّيها ومَرًّا تُنْعَلُه
مَرَّ القَطَا آنصبَّ عليه أجْدَلُهْ * وَهْوَ رَخِي البالِ سامٍ وهَله
قَدّمَـــهُ مِثْلا لِمَنْ يَمثله * تُطيرُهُ الجنُّ وحيناً تُرجِلهْ
تَسْبحُ أُخراهُ ويَطفو أوّلهْ * ترى الغلامَ ساجِياً ما يَرْكلهْ
يعطيهِ ما شاء ولَيْس يَسألهْ * كأنّهُ مِن زَبَدٍ يُسَرْبِلُهْ
فى كُرْسُفِ النّدّافِ لولا بَللهُ * تخالُ مِسكاً عَلّهُ مُعَالُهْ
ثم تناولنا الغلام نُنزلهْ * عن مُفْرعِ الكِتفيْنِ حُلْوٍ عَطَلهْ
مُنْتفجِ الجوْفِ عريضٍ كَلْكلهْ * فوافَتِ الخيلُ ونحن نَشكلهْ
والجنُّ عُكّافٌ به تُقبّلهْ *

وقال آخر فى فرس أبى الأعور السُّلمى : (لآخر فى فرس أبى الأعور السلمى)

مَرَّ كلمع البرْقِ سام ناظِرُهْ * تَسْبحُ أُولاهُ ويَطْفو آخِرُهْ
فمـا يَمَسُّ الأرضَ منه حافِرُهْ

قول هذا أشبه من قول أبى النجم : لأنه يقول :

* تَسبحُ أُخْراهُ ويَطفو أوّلهْ

وقال الأصمعى : إذا كان الفرس كما قال أبو النجم لحمار الكساح أسرع منه ، لأن آضطراب مؤخره قبيح .

وقال الأصمعى : كان أبو النجم وصّافا للخيل إلا أنه غلط فى هـذا البيت ، وقد غلط رُؤبة أيضا فى الفرس فقال يصف قوائمه :

* يَهوين شتى ويَقَعْنَ وَفْقَا *

ولمـا أنشده مُسلم بن قتيبة ، قال له : أخطأت فى هذا يا أبا الجَحّاف ، جعلته مقيَّدا . قال : قرّبنى من ذَنب البعير .

عن الأصمعى فى فرس

وأنشد الأصمعى :

قد أطْرُق الحىَّ على سابحٍ ٭ أسْطَعَ مِثْلِ الصَّدَعِ الأجْرَدِ
لمّا أتيتُ الحىَّ فى مَتْنِــــه ٭ كأنّ عُرْجونا بمثنى يدِى
أقبلَ يختالُ على شَـــأوِه ٭ يضربُ فى الأقربِ والأبعدِ
كأنه سكرانُ أو عابِسٌ ٭ أو ابن رَبٍّ حَدَث المولِدِ

لبعض الشعراء

وقال غيره :

أما إذا استقبلتَه فكأنهُ ٭ جِذْعٌ سَمَا فوق النَّخيل مُشَذَّبُ
وإذا اعترضت له استوتْ أقطاره ٭ وكأنه ، مُسْتَدْبَرًا ، مُتَصوِّبُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

وقد يحضُرُ الهيْجاء فى شَنِجِ النَّسا ٭ تكامَلَ فى أسْنانِه فهو قارِحُ
له عُنُقٌ يغتالُ طولَ عِنانه ٭ وصدرٌ إذا أعطَيْته الجرْىَ سابحُ
إذا مال عن أعطافِهِ قلت شاربٌ ٭ عناهُ بتصريفِ المُدامة طافحُ

وقال أيضاً :

ولقد وطِئتُ الغيْثَ يحْمِلُنى ٭ طِرْفٌ كلَوْنِ الصُّبْحِ حين وقدْ
يمْشى ويعرِضُ فى العِنانِ كما ٭ صَدَفَ المُعَشَّق بالدلالِ وصدْ
طارت به رِجلٌ مُرَصَّعَــةٌ ٭ رَجّامـــةٌ لِحَصَى الطريق ويَدْ
فكأنه موجٌ يسيلُ إذا ٭ أطلقتَهُ وإذا حَبَسْت جَمَدْ

الحلبـــة والرهان

الحلبة والرهان وشىء عنهما

والحلبة : مجمع الخيل ، ويقال : مجتمع الخيل ، ويقال : مجتمع الناس للرهان ؛ وهو من قولك : حلب بنو فلان على بنى فلان وأحلبوا : إذا اجتمعوا . ويقال منه : حَلَبَ الحالبُ اللبنَ فى القدح : أى جمعه فيه . والمِقْوس : الحبل الذى يُمدُّ فى صدور الخيل عند الإرسال للسباق . والمنصّبة : الخيل حين تُنَصَّب للإرسال .

وأصل الرهان من الرهن ، لأن الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة ، يضع هذا رهنا وهذا رهنا ، فأيهما سبق فرسُه أخذ رهْنَه ورهْن صاحبه . والرهان ، مصدر راهنته مراهنة ورهانا ، كما تقول : قاتلته مقاتلة وقتالا . وهذا كان من أمر الجاهلية ، وهو القِمار المنهىّ عنه . فإن كان الرهن من أحدهما بشىء مسمًّى على أنه إن سَبق لم يكن له شىء ، وإن سبقه صاحبُه أخذ الرهن ، فهذا حلال ؛ لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر ؛ وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخلا بينهما محلِّلا ، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ، ويسمى أيضاً الدّخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شىء ، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة ، فإن سبق أحد الأوّلين أخذَ رهْنَه ورهنَ صاحبه فكان له طيبا ، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعا ، وإن سُبق هو لم يكن عليه شىء . ولا يكون الدخيل إلا رائعا جواداً ، لا يأمنان أن يسبقهما ؛ وإلا فهذا قمار ، لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا .

قال الأصمعى : السابق من الخيل : الأول ، والمصلِّى : الثانى الذى يتلوه . قال : وإنما قيل له مُصَلّ ، لأنه يكون عند صلوِى السابق ، وهما جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله ؛ ثم الثالث والرابع لا آسم لواحد منهما إلى العاشر ، فإنه يسمَّى سُكَيْتاً .

قال أبو عبيدة : لم نسمع فى سوابق الخيل ممن يوثَق بعلمه آسما لشىء منها إلا الثانى والعاشر ؛ فإن الثانى آسمه المصلِّى ، والعاشر السُّكَيْت ؛ وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع ، وكذلك إلى التاسع ، ثم السُّكَيْت ويقال السُّكَّيْت ، بالتشديد والتخفيف ، فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به . والفِسْكِل ـ بالكسر ـ الذى يجىء آخر الخيل ، والعامة تسميه الفُسكل ـ بالضم .

وقال أبو عبيدة : القاشور ، الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل ، وهو الفِسْكل ، وإنما قيل للسُّكيت ؛ سُكَيت لأنه آخر العدد الذى يقف العادُّ عليه . والسَّكت : الوقوف ، هكذا كانوا يقولون ، فأما اليوم فقد غيَّروا .

من شأنهم مع السابق

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق . قال جرير :

إذا شِئتمُ أن تَمسحوا وجه سابقٍ ﴿ جَوادٍ ، فمُدُّوا فى الرِّهان عِنانِيا

ومن قولنا فى هذا المعنى :

وإذا جياد الخيلِ ما طَلَها المَدى * وتقطّعتْ فى شأوِها المهُورِ
خَلُّوا عِنانى فى الرِّهان ومسَّحوا * مِنّى بغُرَّةِ أبلقٍ مشهورِ

وصف السلاح

درع على — كانت درعُ علىّ صدرا لا ظهر لها ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إذا استمكن عدوّى من ظهرى فلا يُبْقِ .

درع الجراح — ورؤى الجراح بن عبد الله قد ظاهَر بين درعين ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : لست أقى بدنى وإنما أقى صبرى(١) .

لزيد بن حاتم فى الأدراع — وآشترى زيد بن حاتم أدراعا وقال : إنى لست أشترى أدراعاً وإنما أشترى أعمارا .

لابن المهلب يوصى بنيه — وقال حبيب بن المُهلَّب لبنيه : لا يقعدنّ أحدكم فى السوق ، فإن كنتم لابدَّ فاعلين ، فإلى زراد ، أو سَرّاج ، أو ورّاق .

بين عمر بن الخطاب وعمرو ابن معديكرب فى الصمصامة — العتبى قال : بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصَّمصامة ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث بالساعد الذى يَضرب به .

بينهما فى السلاح — وسأله عمر بن الخطاب يوما عن السلاح ، فقال : يسألُ أميرُ المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول فى التُّرس ؟ قال : هو المِجنُّ الدائر ، وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول فى الرُّمح ؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصف . قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تخطِئُ وتصيب . قال : فما تقول فى الدِّرع ؟ قال : مُثقِلة للراجل ، مُتْعِبة(٢) للفارس ، وإنها لحصنٌ حصين . قال : فما تقول فى السيف ؟ قال :

(١) فى الأصول « صدرى » . وما أثبتنا من عيون الأخبار .
(٢) فى بعض الأصول : « مشغلة » .

هناك لا أمَّ لك يا أمير المؤمنين ، فضربه عمر بالدّرة وقال : بل لا أم لك . قال : الحمى أضرعتنى لك[1] .

لابن يامين في الصمصامة

الهيثم بن عدى قال : وُصف سيفُ عمرو بن معديكرب الذى يقال له الصَّمصامة لموسى الهادى ، فدعا به فوضع بين يديه مجرَّدا ، ثم قال لحاجبه : إيذن للشعراء . فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه ، فبدرهم ابن يامين[2] فقال :

حازَ صَمْصامةَ الزُّبَيدِىِّ عَمْرٍو ٭ من جميع الأنام مُوسى الأمينُ
سَيْفُ عمرو وكان فيما سمِعْنا ٭ خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجُفُونُ
أخضرِ المَتْنِ بين حَدَّيْهِ نُورٌ ٭ من فِرِنْدٍ تمتدُّ فيه العُيونُ
أَوقدت فَوقَه الصواعقُ ناراً ٭ ثم ساطتْ به الذُّعافَ القُيونُ
فإذا ما سَللْته بَهر الشمْـ ٭ ـسَ ضِياءً فلم تكدْ تَسْتَبينُ
فكأنّ الفرندَ والرَّونق الجا ٭ رِىَ فى صَفْحَتَيْهِ ماءٌ مَعينُ
وكأنَّ المَنون نِيطَتْ إليه ٭ فهو من كل جانِبَيهِ مَنُونُ
نِعْمَ مِخْراق ذى الحفيظة فى الهيـ ٭ ـجاء يسطو به ونعم القرين
ما يُبالى مَن انْتضاهُ لحرب ٭ أَشِمَالٌ سَطَتْ به أم يَمِينُ

فأمر له ببدرة وخرجوا .

الزبير بن العوام وسيفه

وضرَبَ الزبيرُ بن العوام يوم الخندق عثمانَ بن عبد الله بن المُغيرة فقطَّه إلى القَرَبُوس ؛ فقالوا : ما أجود سيفك ! فغضب - يريد أن العمل ليده لا لسيفه - وقال :

متى تَلْقنى يَعدو بِبَزّى مقلِّص ٭ كُمَيْتٌ بَهيم أو أغَرُّ مُحَجَّلُ

(١) أراد أن الإسلام قيده ، ولو كنت فى الجاهلية لم تكلمنى بهذا الكلام ، وهو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع .

(٢) اضطرب هذا الاسم فى الأصول ، فمرة « ابن أقيس » ومرة « ابن أقيس » وما أثبتنا رواية نهاية الأرب وابن خلكان (٢ : ٣٠٤) ومروج الذهب (٤ : ٢٨٦) وديوان المعانى (٢ : ٥٢) ورواية فتوح البلدان « أبو الهول » .

تُلاقِ آمرءًا إنْ تَلْقَهُ فبسَيْفِهِ * تُعَلِّمْكَ الأيامُ ماكنتَ تجهلُ

لأبى الشيص

وقال أبو الشِّيص :

خَتَلَتْهُ المَنُونُ بعدَ اخْتِيالِ * بين صَفَّين من قَنًا ونِصالِ

فى رِداءٍ من الصفيح صَقِيلٍ * وقميص من الحديدِ مُذَالِ

لأبى الأغر يوصى ابنه

وبلغ أبا الأغر التميمىّ أنّ أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر ، فوجّه إليهم آبنه الأغرّ وقال : يابنىّ ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم ، وإياك والسيف فإنه ظلّ الموت ، وآتق الرُّمح فإنه رِشاءُ المنيّة ، ولا تقرب السهام فإنها رُسل لا تُؤامِر مُرْسِلَها . قال : فبماذا أقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلامِيد يملأْنَ الأكُفَّ كأنها * رُءوسُ رجال حُلِّقتْ بالمواسِمِ

لأعرابى فى متحاربين

وذكر أعرابىّ قوماً تحاربوا فقال : أقبلت الفحول ، تمشى مشى الوعول ، فلما تصافحوا بالسيوف ، فغرت المنايا أفواهها .

لآخر فى مأسورين

وقال آخر يذكر قوما أُسروا : استنزلوهم عن الجياد بلينة الخُرصان ، ونزعوهم نزع الدِّلاء بالأشطان .

لآخر فى معتدين

وقال أعرابى فى آخرين ابتغَوْا قوما أغاروا عليهم ، فقال : احتشُّوا كل جُمالِيّةٍ عَيْرانةٍ ، كيما يخصفون أخفاف المطىّ بحوافر الخيل ، حتى أدركوهم بعد ثالثة ، فجعلوا الْمُرّان أرْشِيةَ المنايا فاستَقَوْا بها أرواحَهم .

لحبيب فى السيف

ومن أحسن ماقيل فى السيف قولُ حبيب :

ونَبَّهن مثلَ السيف لولم تَسُلَّهُ * يدانِ لَسَلَّتْهُ ظُباهُ من الغِمْدِ

وله فى الرماح

وقال فى صفة الرماح :

مُثَقَّفات سَلَبْنَ الرومَ زُرْقَتها * والعُرْبَ ألوانَها والعاشِقَ القَضَفَا

للنابغة فى السيف

ومن الإفراط القبيح قولُ النابغة فى وصف السيف :

يَقُدُّ السَّلُوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ * ويوقِدُ فى الصُّفَّاح نارَ الحباحِبِ

فذكر أنه يقُدّ الدرع المُضاعف نسجه ، والفارسَ ، والفرسَ ، ويقع بها فى الأرض فيقدح النار من الحجارة .

لبعضهم

وأقبح منه فى الإفراط قولُ الآخر :

تظل تحفِرُ عنه إن ضربتَ به * بعدَ الذراعين والقيدَيْن والهادى

للعلوى

وقد جمع العلوىّ وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجوّد حيث يقول :

بحسبىَ مِنْ مالى من الخَيْلِ أعْيَط * سليمُ الشَّظَى عارِى النَّواهِقِ أمْعَطُ
وأبيضُ من ماءِ الحديد مُهَنَّد * وأسمرُ عسّالُ الكُعوب عَنَطْنَطْ
وبيضاء كالضَّحضاح زَغْفٌ مُفاضةٌ * يُكَفِّتها عنّى نجادٌ مُخَطَّط
ومَعْطوفةُ الأطرافِ كَبْداء سَمْحةٌ * مُنَفَّجةُ الأعضادِ صفراء شَوْحَطُ
فياليتَ مالى غيرُ ما قد جمعْته * على لُجَّةٍ تيّارُها يَتَغَطْغَطُ
وياليتنى أُمسِى على الدهرِ ليْلةً * وليسَ على نفسى أمير مُسَلَّط

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى وصف الرمح والسيف :

بكلّ رُدَيْنِىّ كأن سِنانَهُ * شِهابٌ بَدا فى ظُلْمةِ الليلِ ساطِعُ
تقاصَرتِ الآجالُ فى طولِ مَتْنه * وعادتْ به الآمالُ وهى فجائِعُ
وساءت ظُنونُ الحرْبِ فى حُسْنِ ظَنّه * فهُنّ طَبَات للقلوب قوارِعُ
وذى شُطَبٍ تقْضى المنايا بحُكْمه * وليس لما تَقْضِى المنيّةُ دافِعُ
فِرِنْد إذا ما اعتنّ للعين راكد * وبرق إذا ما اهتزّ بالكفّ لامعُ
يُسَلِّلُ أرواحَ الكُماةِ انسلالُه * ويرتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ
إذا ما التقتْ أمثالُه فى وقيعةٍ * هنالك ظنُّ النفسِ بالنفسِ واقعُ

ومن قولنا فى وصف السيف :

بكل مأثور على مَتْنِه * مِثْلُ مَدَبّ النَّمْلِ بالقاعِ
يرتد طرْفُ العَيْنِ من حَدّه * عن كَوْكَبٍ لِلمَوْت لَمّاعِ

لإسحاق ابن خلف

وقال إسحاق بن خلف البَهْرانى فى صفة السيف :

أَلْقَى بجــانِبِ خَصْرِهِ أَمْضَى مِنَ الأَجَلِ المُتاح
وكأنما ذَرُّ الهَبا ء عليهِ أنفاسُ الرِّياح

للغنوى

ومن جيد صفات السيف قول الغَنَوى :

حُسام غداة الرَّوع ماضٍ كأنه * من الله فى قبض النفوس رسول
كأنّ على إفرنده موج لُجَّة * تقاصَرُ فى ضحضاحه وتطول
كأنّ جُيوش الذَّرّ كَسَّرْنَ فوقه * قرونَ جرادٍ بينهن ذُحول

النزع بالقوس

إبراهيم الشيبانى قال : كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعْرض له ضَيعة بواسطَ فى مَغْرَمٍ لزمه للخليفة ؛ فحمل وكيلا له على بغل وأترع له خُرجا بدنانير ، وقال له : اذهب إلى واسط فاشتر لى هذه الضيعة المعروضة ، فإن كفاك ما فى هذا الخرج وإلا فاكتب إلى أُمدّك بالمال . فخرج ، فلما أصحر عن البيوت ، لحق به أعرابى راكبٌ على حمار معه قوس وكنانة ؛ فقال له : إلى أين تتوجه ؟ فقال : إلى واسط . قال : فهل لك فى الصُّحبة ؟ قال : نعم . فسارا حتى فَوَّزا ، فعنّت لهما ظباء ، فقال له الأعرابى : أىُّ هذه الظباء أحبُّ إليك : المتقدم منها أم المتأخر فأُذكِّيه لك ؟ قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم ، فاشْتَوَيا وأكلا ، فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابى ، ثم عنّ له زُفّة قطا ، فقال : أيها تريد فأصرعَها لك ؟ فأشار إلى واحدة منها فرماها فأقصَدَها ، ثم اشتويا وأكلا ، فلما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابى سهماً ثم قال له : أين تريد أن أُصيبك ؟ فقال له : اتق الله واحفظ زمام الصحبة . قال : لابد منه ! قال له : اتق الله ربك واستَبْقِنى ، ودونك البغل والخرج فإنه مُترعٌ مالا . قال : فاخلع ثيابك . فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوبا حتى بقى مجرّداً . قال له : اخلع أمواقك[1] .

---

(١) الأمواق : جمع موق ، وهو خف غليظ يلبس فوق الخف .

وكان لابساً خُفَّيْن طائفيَّين ، فقال له : أتق الله فىّ ودع لى الخفين أتبلّغ بهما من الحرّ ، فإن الرّمضاء تحرق قدمىّ . قال : لا بدّ منه . قال فدونك الخُف فآخلعه . فلما تناول الخفّ ، ذكر الرجل خنجراً كان معه فى الخف ، فآستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته ، وقال له : الاستقصاء فُرقة . فذهبت مثلا . وكان هذا الأعرابى من رُماة الحَدَق .

بين لص ورام

وحدّث العتبى عن بعض أشياخه قال : كنت عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، فأُتى بأعرابى كان معروفا بالسَّرَق فقال له : أخبرنى عن بعض عجائبك . قال : عجائبى كثيرة ، ومن أعجبها أنه كان لى بعير لا يُسْبَق ، وكانت لى خيل لا تُلْحَق ، فكنت أخرج فلا أرجع خائباً ، فخرجت يوماً فاحترشتُ ضبًّا ، فعلّقته على قَتَبى ، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها ، فقلت : يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل . فلما أمسيتُ إذا بإبل مائة ، وإذا شيخ عظيم البطن ، شثْن الكفين ، ومعه عبد أسود ، فلما رآنى رحب بى ، ثم قام إلى ناقة فآحتلبها ، وناولنى العُلْبة . فشربت ما يشرب الرجل ، فتناول الباقى فضرب به جبهته ، ثم احتلب تسع أينُق فشرب ألبانهن ، ثم نحر حُوارا فطبخه ، فأكلت شيئا ، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا ، وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غَطّ غطيط البَكْر . فقلت : هذه والله الغنيمة ، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمتُه : ثم قرنته ببعيرى وصحت به ، فاتّبعنى الفحل واتّبعته الأبل إرْباباً به فى قطار ، فصارت خلفى كأنها حبل ممدود ؛ فمضيت أبادر ثنيّة بينى وبينها مسيرة ليلة للمُسْرِع ، ولم أزل أضرب بعيرى ، مرة بيدى ، ومرة برجلى ، حتى طلع الفجر ؛ فأبصرت الثنيّة ، وإذا عليها سواد ، فلما دَنَوْت منه إذا الشيخ قاعد وقوسُه فى حِجره ! فقال : أضيْفَنا ؟ قلت : نعم ! قال : أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟ قلت : لا . فأخرج سهما كأنه لسان كلب ، ثم قال : انظره بين أذنى الضبِّ المعلّقِ فى القَتَب . ثم رماه فصدع عظمَه عن دماغه ، فقال لى : ما تقول ؟ قلت : أنا على رأيى الأول . قال : انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى ، ثم رمى به فكأنما قدره بيده

ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال : رأيك ؟ فقلت : إنى أحب أن أستثبت . قال : أنظر هذا السهم الثالث فى عُكْوة ذنَبه ، والرابع والله فى بطنك . ثم رماه فلم يخطئ العُكوة ؛ قلت : أَنزِلُ آمنا ؟ قال : نعم . فدفعت إليه خِطام فحله وقلت : هذه إبلك لم تذهب منها وبرة . وأنا أنظر متى يرمينى بسهم يُقْصِد به قلبى ؛ فلما تباعدت قال : أقبل ! فأقبلت والله فَرَقا من شره لا طمعاً فى خيره . فقال : ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة ! قلت نعم . قال : فاقرُن من هذه الإبل بعيرين وامض لطِيَّتك . قال : قلت : أما والله لا أمضى حتى أخبرَك عن نفسك ؛ فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشدّ ضِرساً ، ولا أعدَىَ رِجلا ، ولا أرمَى يداً ، ولا أكرمَ عَفْوا ، ولا أسْخَى نفساً ، منك . فصرف وجهه عنى حياءً وقال : خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها .

النبي صلى الله عليه وسلم فى الرمى

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اركبوا وارْموا ؛ وأنْ ترْموا أحبُّ إلىّ من أن تركبوا .

وقال : كل لَهْوِ المؤمن باطِلٌ إلا فى ثلاث : تأديبه فرسَه ورمْيه عن كَبد قوسِه ، وملاعَبَتهِ امرأته ؛ فإنه حق . إن الله ليُدْخِلُ الجنةَ بالسهم الواحد عامله المحتَسِب ، والقوىّ به فى سبيل الله ، أى والرامى به فى سبيل الله .

وروى عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : ﴿ وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ . ألا إنّ القوة الرمى . ألا إنّ القوةَ الرمى . ألا إنّ القوة الرمْى .

ابن أبى وقاص

وكان أرمى أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال : اللهم سدّد رمْيَتَه ، وأجِبْ دَعْوَتَه . فكان لا يُردّ له دعاء ، ولا يخيب له سهم .

النبي صلى الله عليه وسلم ورماة من أسلم

وذكر أسامة بن زيد : أنّ شيوخا من أَسْلَمَ حدّثوه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببُطْحان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارمُوا يابنى إسمعيل ، فقد كان أبوكم راميا ، وأنا مع ابن الأدرع . فتعدّى القوم فقالوا :

يا رسول الله ، مَن كنت معه فقد نَضَل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا وأنا معكم كلكم . فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء ؛ ليس لأحد على أحد منهم فضل .

لعمر بن الخطاب

وقال عمر : ٱئتزروا وٱرتدوا ، وٱنتعلوا وٱحتفوا ، وٱرمُوا الأغراض ، وٱلقَوْا الرُّكُب ، وٱنزُوا على الخيلْ نَزْواً ، وعليكم بالمَعَدّيّة ـ أو قال : بالعربية ـ ودَعُوا التنعُّم وزِيّ العجم .

وقال أيضا : لنْ تخور قواكم ما نَزَوْتُمْ ونَزَعْتُمْ . يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسيّ .

لرجل من البادية يذمر قومه

وجنى قوم من أهل اليمامة [1] جناية ، فأرسل السلطانُ إليهم جُنداً من محاربة ابن زياد . فقام رجل من أهل البادية يُذَمِّر أصحابه فقال : يامعشر العرب ، ويابنى المُحصنات ، قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم ؛ فوالله لئن ظهر هؤلاء عليكم لايدَعون بها لَبِنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض ، ولَأعْتَرَاكم من نُشّاب معهم فى جِعاب كأنها أيور الفِيَلة ينزعون فى قِسِيّ كأنها الغُبط ، تئط إحداهن أطيط الزُّرْنُوق ، يَمْغَط أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبْطَيْه ، ثم يرسل نُشّابة كأنها رِشاء منقطع ، فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينُه أو ينصدع قلبه منزلة . فخلع قلوبَهم فطاروا رُعبا .

مشاورة المهدى لأهل بيته

فى حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهديُّ ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيعتهم ، ونقضوا موثقهم ، وطردوا العُمال ، والتوَوْا بما عليهم من الخراج . وحمل المهديَّ ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنَتهم على

(١) كذا فى بعض الأصول وعيون الأخبار . والذى فى سائر الأصل : « المدينة » .

أن أقال عثرتهم ، واغتفر زلّتهم ، واحتمل دالّتهم ؛ تطوُّلًا بالفضل ، واتساعا بالعفو ، وأخذاً بالحُجة ، ورفقاً بالسياسة ؛ ولذلك لم يزل مذ حمّله الله أعباء الخلافة ، وقلّده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطا للمعدلة فى رعيّته : تسكُن إلى كنفه ، وتأنس بعفوه ، وتثق بحلمه ؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة ، والحقوق الواجبة ، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مُداهنة ؛ أثرةً للحق ، وقياما بالعدل ، وأخذاً بالحزم . فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه ، والثقةُ بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطردوا العمال ، وسألوا ما ليس لهم من الحق ؛ ثم خلطوا احتجاجا باعتذار ، وخصومةً بإقرار ، وتنصّلا باعتلال . فلما انتهى ذلك إلى المهدى ، خرج إلى مجلس خُلّانه ، وبعث إلى نفر من لُحْمَتِه ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ؛ ثم أمر الموالى بالابتداء ؛ وقال للعباس بن محمد : أَىْ عَمّ ، تَعَقَّبْ قولنا ، وكُن حكما بيننا . وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى الرأى . وأمر محمد بن الليث بحفظ مُرَاجَعَتِهم وإثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سلّام صاحب دار المظالم : أيها المهدى ، إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرغت رأيهم . واستغرقت أشغالَهم ، واستنفدت أعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرفوا بها وعُرفت بهم ؛ ولهذه الأمور التى جعلتَنا فيها غايةً وطلبْت معونتنا عليها : أقوامٌ من أبناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفُرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رَشَحَتْهُمْ سِجَالُها ، وفيَّأتهم ظلالُها ، وعضّتهم شدائدُها ، وقرمتهم نواجذها ؛ فلو تَجَمْتَ ما قِبَلَهُم ، وكشفت ماعندهم ، لوجدتَ نظائرَ تؤيّد أمرك ، وتجاربَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبَك . فأما نحن معاشرَ عُمّالك ، وأصحاب دواوينك ، فَحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منّا أن نقوم بثِقل ما حمّلتَنا من عملك ، واستودعْتَنا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقك .

فأجابه المهدى : إن فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال

تدبير يُبطِل الآخِرُ الأوّل ؛ ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أيها المهدى ، أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة قوى المنة ، بليغ الفطنة ، معصوم النية ، محضور الرَّوِيّة ، مؤيّد البديهة ، موفق العزيمة ، مُعان بالظفر ، مَهْدِىٌّ إلى الخير ؛ إن هممت فنى عزمك مواقع الظن ، وإن أجمعت صدع فعالك ملتبسَ الشك ، فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبَك ، وقُلْ يُنْطِق الله بالحق لسانَك ، فإنّ جنودك جمة ، وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدى : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يَهلك عليهما رأى ، ولا يتفيّل معهما حزم ؛ فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضُركم : فإنى من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدى ، إنّ تصاريف وجوه الرأى كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريض القول يسيرة ؛ ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة ، متراخية الشُّقة ، متفاوتة السُّبُل ، فإذا ارتأيتَ من محكم التدبير ، ومُبْرَم التقدير ، ولباب الصواب . رأيا قد أحكمه نظرك ، وقلبه تدبيرُك ، فليس وراءه مذهب لحجة طاعن ، ولا دونه مُتعَلَّق لخصومة عائب ، ثم خَبّت البُرُدُ به ، وانطوت الرسلُ عليه . كان بالحَرَى ألاّ يصل إليهم محْكَمُهُ إلا وقد حدث منهم ما ينقضه ؛ فما أيسرَ أن ترجع إليك الرسل وترِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ؛ فتحدث رأياً غيره ، وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحلّلت العُقد ، وأسترخى الحِقاب ، وامتد الزمان . ثم لعلّما مَوْقِعُ الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى لك أيها المهدى وفّقك الله ، أن تصرف إجالة النظر ، وتقليبَ الفكر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحِيَل فى أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع واسع ، ليس موصوفا بهوى فى سواك ، ولا متّهما فى أَثَرة عليك ، ولا ظنينا على دُخْلة مكروهة ، ولا منسوبا إلى بدعة محذورة ، فيقدحَ فى ملكك ، ويربّض الأمور لغيرك ، ثم تُسند إليه أمورَهم ، وتفوّض إليه حربَهمْ ، وتأمره

فى عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك مالزمه الحزم ، وخلافِ نهيك إذا خالفه الرأى ، عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال ، التى يُنْقَصُ أمرُ الغائب عنها ، ويَثبُت رأىُ الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك فواثب أمْرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتى من بعيد ، تَمّت الحيلة ، وقَويت المكيدة ، ونَفذ العمل ، وأحدّ النظر إن شاء الله .

قال الفضل بن العبّاس : أيها المهدى ، إن ولىَّ الأمور ، وسائس الحروب ، ربمـا نحّى جنودَه ، وفرّق أموالَهُ ، فى غير ماضِيقِ أمرٍ حَزبه . ولا ضغطةِ حال اضطرّته ، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها ، فاقداً لها ، لا يثق بقُوّة ، ولا يصول بعُدّة ، ولا يفزع إلى ثِقة . فالرأى لك أيها المهدى وفقك الله ، أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال ، وجنودَك من مُكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار وتغرير القتال . ولا تسرع للقوم فى الإجابة إلى ما يطلبون ، والإعطاء لما يسألون ، فيفسُد عليك أدبهم ، وتُجَرّئ من رعيتك غيرَهم ؛ ولكن اغزُهُم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعْهم باللين ، وخاتلْهم بالرفق ، وأبْرِق لهم بالقول ، وأرعِد نحوهم بالفِعل ، وابعث البُعوث ، وجنِّد الجنود وكَتّب الكتائب ، واْعقِد الألوية ، وانْصُب الرايات ، وأظهر أنك موجِّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم ، وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادْسُس الرسل ، وابْثُث الكتب ، وضَع بعضهم على طمع من وعدك ، وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، واْغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتَنطوى الصدور على البِغضة ، ويدخل كلاًّ من كلٍّ الحذرُ والهيبة ؛ فإن مَرَامَ الظَّفر بالخِيلة ، والقتالَ بالحيلة ، والمُناصبة بالكتب ، والمكايدة بالرسل ، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المَدخل فى القلوب ، القوى المَوقع من النفوس ، المعقودِ بالحُجج ، الموصول بالحِيل ، المبنىّ على اللّين ، الذى يستميل القلوب ، ويَسْترِقُّ العقول ، ويسبى الآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعى المواتاة ـ أنفَذُ من القتال بظُبات السيوف وأسنة الرماح : كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيّته

بالحيل ، ويُفرّق كلمة عدوه بالمكايدة ، أحكمُ عملا وألطف نظراً[1] وأحسن سياسة من الذى لا يَنال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال ، والتغرير والخِطار .

وليعلم المهدى ـ وفقه الله ـ أنه إن وجه لقتالهم رجلا ، لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج على حال شديدة ، وتُقدم على أسفار ضيقة ، وأهوال متفرّقة ، وقُوّاد غَشَشَة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له .

قال المهدى : هذا رأى قد أسفر نوره ، وبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، وتجسد حقه فى القلوب ، ولكنْ فوق كلّ ذى علم عليم .

ثم نظر إلى ابنه علىّ فقال : ما تقول ؟

قال على : أيها المهدى ، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يدا ، ولم ينصبوا مِن دونك أحدا يكدح فى تغيير ملكك ، ويربّض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكانَ الخطب أيسر ، والشأن أصغر ، والحالُ أذلّ ؛ لأن الله مع حقه الذى لا يخذله ، وعند موعده الذى لا يُخلِفه : ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفةٌ من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكما ، طلبوا حقا ، وسألوا إنصافا : فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفّست عنهم قبل أن تتلاحَم منهم حال ، أو يحدثَ مِن عندهم فَتق ، أطعتَ أمر الرب ، وأطفأتَ نائرة الحرب ، ووفّرت خزائنَ المال ، وطرحت تغرير القتال ؛ وحَمل الناسُ مَحْملَ ذلك على طبيعة جُودك وسجيّة حِلْمك ، وإسجاح خليقتك ، ومعدلة نظرك ؛ فأمنت أن تُنْسَب إلى ضَعْفَة ، وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دُربة . وإن مَنعْتَهم ما طلبوا ، ولم تُجبهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتَهم فى ميدان الخطاب . فما أرَبُ المهدى أن يَعمد إلى طائفة من رعيته : مُقِرّين بمملكته ، مُذْعِنين لطاعته ، لا يُخرجون أنفسهم عن قُدرته ، ولا يُبرئونها من عبوديّته ، فيُمَلّكهم أنفسهم ، ويخلعَ نفسَه عنهم ، ويقفَ على الجدل معهم ، ثم يجازيَهم السوء فى جِد المقارعة ، ومضمار المخاطرة ؟ أيريد المهدى ـ وفقه الله ـ الأموال ؟

(١) فى الأصل : ألطف منظرا .

فلعمري لا ينالها ولا يَظفَر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يَدَّعى قِبَلهم ؛ ولو نالها فحُمِلتْ إليه ، أو وُضِعَتْ بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنْسَب وبه يُعْرَف ، من الجود الذى طبعه الله عليه ، وجعل قُرّةَ عينه ونَهْمَةَ نفسه فيه . فإن قال المهدى : هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخَراج الذين شكوْا ظلمَ عُمّالنا وتحامُلَ وُلاتنا ، فأما الجنودُ الذين نقضوا مواثيقَ العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا بابَ المعصية ، وكسروا قيْد الفتنة ؛ فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم ؛ وعِظةً لسواهم . فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين فى الحديد ، مُقرَّنين فى الأصفاد ، ثم اتسع لحَقن دمائهم عفوُه ، ولإقالة عثرتهم صفحُه ، واستبقاهم لما هُم فيه من حَرْبه ، أو لمن بإزائهم من عدوه ، لما كان بِدْعا من رأيه ، ولا مستنكرًا من نظره . لقد علمت العربُ أنه أعظمُ الخلفاء والملوك عفوا ، وأشدُّها وقعا ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاظمه عفو ، ولا يتكاءدُه صفح ، وإن عَظُمَ الذنبُ وجلّ الخطب . فالرأى للمهدى ـ وفقه الله تعالى ـ أن يَحُل عقدةَ الغيْظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم وضَيعة عِيالاتهم ، برًّا بهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركانُ دعوته ، وأساسُ حقه ، الذين بِعِزتهم يصُول ، وبحجتهم يقول . وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَساخطه ، وتَعَرَّضوا له من معاصيه ، وانطوَوْا فيه عن إجابته ؛ ومَثَلهُ فى قلة ما غَيَّر ذلك من رأيه فيهم ، أو نَقَل من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ـ كمثل رجلين أخَوَين متناصرَيْن متوازرين ، أصاب أحدَهما خَبَلٌ عارض ، ولهو حادث ، فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالمكروه ؛ فلم يزدد أخوه إلا رقّة له ، ولُطفاً به ، واحتيالا لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرًّا به ، ومَرْحمةً له .

فقال المهدى : أما علىّ فقد نوى سمْت اللِّيان ، وفضّ القلوب عن أهل خراسان ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . ثم قال : ما ترى يا أبا محمد ؟ يعنى موسى ابنه .

فقال موسى : أيها المهدى ، لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تَسيل من خَلل فعالهم . والحال من القوم تنادى بمُضمرة شرّ ، وخفيَّة حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها سترا ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير ، والأمورَ بالتطويل ، فيكسروا حِيَل المهدى فيهم ، ويَثنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرُهم ، وتتلاحق مادّتهم ، وتستفحل حربُهم ، وتستمرّ الأمورُ بهم ؛ والمهدىّ من قوتهم فى حال غِرّة ، ولباس أمَنَة ، قد فتر لها ، وأنس بها ، وسكن إليها . ولولا ما اجتمعت له قلوبهم ، وبَردت عليه جلودهم ، من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقِراع ، عن داعية ضلال أو شيطان فساد ، لرهبوا عواقبَ أحوال الولاة ، وغِبَّ سكون الأمور .

فليشددْ المهدى ـ وفقه الله ـ أزرَه لهم ، ويكتِّبْ كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشدّ ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يُعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُربةً لفسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعيةً إلى عودتهم ، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرّهم على تلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح فى فَتْقٍ حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلُح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا . وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّربة ، لم يصل إلى ذلك بالعقوبة المُفْرِطة ، والمئونة الشديدة . والرأىُ للمهدى ـ وفقه الله ـ ألّا يقيل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرَّ بهم القتل ، ويُحدق بهم الموت ، ويُحيط بهم البلاء ، ويُطبق عليهم الذل . فإن فعل المهدىّ بهم ذلك كان مقطعةً لكل عادةِ سوء فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرّ منهم . واحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمة .

قال المهدى : قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد : أيها المهدى ، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنبات الصواب ، وتعدّوا أموراً قصّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُنفَق ، والجنود ألا تفرَّق ، وبأن لا يُعطَى القومُ ماطَلبوا ، ولا يُبذل لهم ماسألوا ، وجاء بأمر بين ذلك ، آستصغاراً لأمرهم وآستهانة بحربهم ، وإنما يَهيجُ جسيماتِ الأمورِ صغارُها .

وأما علىٌّ فأشار باللين وإفراط الرفق . وإذا جَرد الوالى لمن غَمط أمرَه وسَفِه حقَّه ، اللينَ بَحتا ، والخيرَ مَحضا ، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوبَ على لينه ، ولا بشرٍّ يَحيشهم(١) إلى خيره ؛ فقد ملَّكهم الخلعَ لِعُذرِهم ووسّع لهم الفُرْجة لِثَنْى أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته ، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم ، ولا شدةِ حالٍ أخرجتهم ، لم يزل ذلك يهيج عزة فى نفوسهم ، ونَزوة فى رءوسهم ، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ؛ ويصرفون بها رأىَ المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا دعوته ، ويُسرعوا لإجابته باللّين المحض والخير الصّراح ، فذلك ما عليه الظنُّ بهم ، والرأىُ فيهم ، وما قد يُشبه أن يكون من مِثْلهم ؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر ، ولا تُدركه الفِكَر ، ولا تعلمه نفس ؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها ؛ فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة ، لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعصَبوا بشدةٍ لا لينَ فيها ، وأن يُرمَوْا بشرٍّ لا خيرَ معه . وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعتَه وخالف جماعته ، الخوفَ مفردا والشرَّ مجرداً ، ليس معهما طمع يكسرهم ، ولا لين يَثْنيهم ، امتدت الأمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين : إما أن تدخلَهم الحميّةُ من الشدة ، والأنفةُ من الذلّة ، والامتعاضُ من القَهر ، فيدعوهم ذلك إلى التمادى فى الخلافِ ، والاستبسال فى القتال ، والاستسلام للموت ؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه ، ويُذعنوا بالقَهْر ، على بِغضَة لازمة ، وعداوة باقية ، تُورث النفاق ، وتُعقِب الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصة ، أو ثابت لهم قدرة ، أو قويت لهم حال ، عاد أمرُهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدّ مما كان .

(١) يحيشهم : يجعلهم يفزعون .

وقال : فى قول الفضل أيها المهدى ، أكْفَى دليل ، وأوضحُ برهان ، وأبْيَنُ خبرٍ بان . قد اجتمع رأيه ، وحَزُم نظره على الإرشـاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه البعوث نحوهم ، مع إعطائهم ما سألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .

قال المهدى : ذلك رأى .

قال هارون : خلطتَ الشدة أيها المهدى باللين ، فصارت الشدة أمرٌ فطامٍ لمـا تـكره ، وعاد اللين أهدى قائدٍ إلى ما تُحب ؛ ولـكن أرى غير ذلك .

قال المهدى : لقد قلتَ قولا بديعا ، وخالفت به أهلَ بيتك جميعا ، والمرء مُتَّهم بمـا قال ، وظنين بمـا آدَّعى ، حتى يأتى ببينة عادلة ، وحجة ظاهرة ، فاخْرُج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدى ، إن الحرب خُدعة ، والأعاجم قومٌ مَكَرة ، وربما اعتدلت الحالُ بهم ، واتفقت الأهواء منهم ، فكان باطن ما يُسِرُّون على ظاهر ما يعلنون ؛ وربما افترقت الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلبُ على مَحجوبةٍ تُبْطَن ، واستسرّ بمدخولةٍ لا تُعْلَن ؛ والطبيب الرفيق بطِبِّه ، البصيرُ بأمره ، العالم بمقدَم يده ، وموضع ميسمِه ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ؛ فالرأى للمهدى ـ وفقه الله ـ أن يَفِرَ باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة ، ويَمْخضَ ظاهرَ حالهم مَخْضَ السِّقاء ، بمتابعة الـكتب ، ومظاهرة الرسل ، وموالاة العيون ، حتى تُهتَكَ حُجُبُ غيوبهم ، وتُـكْشَفَ أغطيةُ أمورهم ؛ فإن آنفرجت(١) الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعيةِ ضلال ، آشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه ، وامتدت الأعناق نحوه ، بدِين يعتقدونه . وإثم يستحلّونه ، عَصَبَهم بشدَّة . لا لينَ فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفوَ معها ، وإن انفرجت الغيوب ، واهتُصرت السُّتور ، ورُفعت الحجب ، والحالُ فيهم مَرِيعة ، والأمور بهم معتدلة ، عن أرزاق يطلبونها ، وأعمال يُنكرونها ، وظُلامات يدعونها ، وحقوق يسألونها ،

(١) فى بعض الأصول « انكشفت » .

بمائّةِ سابقتهم ، ودالّةِ مناصحتهم . فالرأى للمهدى ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويَشْعَبَ من أمرهم ماصَدَعوا ، ويَرْتق من فَتْقهم مافتقوا ؛ ويولّىَ عليهم من أحَبّوا ، ويُداوى بذلك مَرَضَ قلوبهم ، وفسادَ أمورِهم ؛ فإنما المهدى وأمّته وسوادَ أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى الحَدِب ، الذى يحتال لمرابض غنمه ، وضوالّ رعيته ، حتى يبرئ المريضةَ من داءِ علتها ، ويرد الضالّة إلى أُنس جماعتها . ثم إن خراسان بخاصةٍ لهم ذالّة محمولة ، وماتّة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أيدى دولته ، وسيوفُ دعوته ، وأنصار حقه ، وأعوان عدله . فليس من شأن المهدى الاضطغانُ عليهم ، ولا المؤاخذة لهم ، ولا التوعُّر بهم ، ولا المكافأة بإساءتهم ؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولةَ قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ ، أحزمُ فى الرأى وأصحُّ فى التدبير ، من التأخير لها والتهاونِ بها ، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمعَ أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدى : ما زال هارون يقع وَقْع الحيا ، حتى خرج خروج القِدْح بما قال ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادعى ، فدعوا ما قد سَبَق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثنّى بعده هارون ، ولكن مَن لأعِنَّة الخيل ، وسياسةِ الحرب ، وقيادة الناس ، إن أمعن بهم اللجاج ، وأفرطت بهم الدالّة ؟

قال صالح : لسنا نبلغ أيها المهدى بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك ، وبعضَ لحظات نظرك ؛ وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ، ذو دين فاضل ورأى كامل ، وتدبير قوىّ ، تُقلّده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ، ويضطلع بالأعباء الثقيلة . وأنت بحمد الله ميمون النقيبة ، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارُك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتُسند إليه ثَغْرَك إلا أراك الله ما تُحب ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدى : إنى لأرجو ذلك . لقديم عادة الله فيه ، وحسن معونته عليه .

ولكن أحب الموافقة على الرأى ، والاعتبار للمشاورة فى الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهلُ خراسان ـ أيها المهدى ـ قوم ذوو عزة ومَنَعة ، وشياطينُ خَدَعَة زُروع الحَمِيَّة فيهم نابتة ، وملابسُ الأنفة عليهم ظاهرة ، فالرَّوِيَّة عنهم عازبة ، والعجلة فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرَهم ، وسيوفُهم عَذَلَهم ، لأنهم بين سِفْلة لا يعدو مبلغُ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلجمون إلا بشدّة ولا يُفطَمون إلا بالقهر ؛ وإن ولّى المهدى عليهم وضيعالم تَنْقَد له العظماء ، وإن ولّى أمْرَهم شريفا تحامل على الضعفاء . وإن أخّر المهدىّ أمرَهم ودافَعَ حَرْبَهم حتى يُصيب لنفسه من حشمِه ومواليه ، أو بنى عمه أو بنى أبيه ، ناصحا يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم ، بلا أنفة تَلزمهم ، ولا حميّة تَدْخلهم ، ولا عَصبية تُنفّرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحالُ بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصفة وإن جدّ ولا يَستَصْلِحُه وإن جَهَد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير . وليس المهدى ـ وفقه الله ـ فاطما عاداتِهم ولا قارعا صَفَاتَهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عِدْلَ فى ذلك بهما : أحدهما لسان ناطق موصول بسَمعك ، ويدٌ ممثَّلة لعينك ، وصخرة لا تُزعزَع ، وبُهْمَة لا ينثنى ، وبازِلٌ لا يُفزعه صوتُ الجُلجل ، نقىّ العِرْض ، نزيه النفس ، جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمّته ، فجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْبا ، والغرض الأدنى لقدَمه موطئا ، فليس يُغفل عملا ، ولا يتعدّى أملا وهو رأس مواليك ، وأنصحُ بنى أبيك رجلٌ قد غُذّى بلطيف كرامتك ، ونبَتَ فى ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك ؛ فإن قلدته أمرهم ، وحمّلته ثِقلهم ، وأسندت إليه ثغرهم : كان قُفْلا فَتحه أمْرُك ، وباباً أغلَقَهُ نهيُك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميرا ، والإنصافَ بينه وبينهم حاكما . وإذا حكّم النصفة وسلَك المَعدلة فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك فى الذى بين صدورهم ، وأسكن لك فى السُّويداء داخل قلوبهم طاعةً راسخة العروق ، باسقة الفُروع ، مُتمثّلة فى حواشى عوامّهم ، متمكّنة من قلوب خواصهم ؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نَفَوْه ، ولا يلزمهم حق إلا أدّوْه ، وهذا أحدهما .

والآخر عُود من غَيْضتك ، ونَبعة من أرومتك ، فتىّ السنّ ، كهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصّرامة ، مأمون الخلاف ، يُجرِّد فيهم سيفَه ، ويبسط عليهم خيرَه بقدر مايستحقون ، وعلى حسب مايستوجبون ، وهو فلان أيها المهدى ، فسلِّطه ـ أعزك الله ـ عليهم ، ووجِّهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة سنّه وحداثة مولده ؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشك والجهل مع الكُهولة ؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طَبعكم الله عليه واختصّكم به من مكارم الأخلاق ، ومَحامد الفِعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصَرامة الأنفس ، كفراخ عِتاقِ الطير المُحكَمَةِ لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم ، مَزروع فى قلوبكم ، مستحكم لكم ، متكامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله : أفتاءُ أهلِ بيتك أيها المهدى فى الحلم على ما ذُكر ، وأهلُ خراسان فى حال عِزٍّ على ماوصف . ولكنْ إن ولّى المهدىُّ عليهم رجلا ليس بقديم الذّكر فى الجنود ، ولا بنَبيه الصوت فى الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأعداء ، دخل من ذلك أمران عظيمان ، وخَطران مَهولان : أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويجترءون بها عليه فى النُّهوض به والمُقارعة له والخلاف عليه ، قبل الاختبار لأمره ، والتكشُّفِ لحاله ، والعِلْم بطباعه . والأمر الآخر أن الجنود التى يقود ، والجيوش التى يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصّوت والهيبة ، انكسرت شجاعتُهم ، وماتت نجدتهم ، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم . وربما وقع البَوار قبل الاختبار . وبباب المهدى ـ وفقه الله ـ رجلٌ مَهيب نبيهٌ حَنيكٌ صَيِّتٌ ، له نسب زاكٍ وصوتٌ عال ، قد قاد الجيوش ، وساس الحروب ، وتألف أهلَ خُراسان واجتمعوا عليه بالمِقة ، ووَثِقوا به كل الثِّقة ؛ فلو ولّاه المهدى أمرَهم لكفاه الله شرهم .

قال المهدى : جانبتَ قصد الرَّمِيَّة ، وأبيتَ إلا عَصبية ، إذ رأيُ الحَدَثِ

من أهل بيتنا كرأى عشرة حُلماء من غيرنا ، ولكن أين تركتم ولى العهد ؟

قالوا : لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهَ جدِّه ، ونسيجَ وحده ، ومن الدين وأهله بحيث يقصُر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حَجَب عن خَلْقه ، وسَتَر من دون عِباده ، عِلْمَ ما تختلف به الأيام ، ومعرفةَ ما تجرى به المقادير ، من حوادث الأمور وريب المنون ، المختَرِمَة لخوالى القرون ومواضى الملوك ؛ فكرهْنا شُسُوعه عن محلةِ المُلْك ، ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومُستقرّ الجنود ، وموضع الوُجوه ، ومجمع الأموال التى جعلها الله قُطباً لمدار الملك ، ومِصْيدَةً لقلوب الناس ، ومَثابة لإخوان الطمع ، وثُوّار الفتَن ، ودواعى البِدَع ، وفرسان الضلال ، وأبناء المُروق ؛ وقلنا : إن وجّه المهدى ولىّ عَهْدِه لحَدَث فى جيوشه وجنودِه ماقد حدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدى أن يُعْقِبه بغيره ، إلا أن ينهض إليهم بنفسه ؛ وهذا خطرٌ عظيم ، وهَوْل شديد ؛ وإن تنفست الأيام بمَقامه ، واستدامت الحال بأيامه ، حتى يقع عَرَض لا يستغنى فيه ، أو يحدث أمرٌ لابد فيه منه ، صار ما بعده مما هو أعظمُ هَوْلًا وأجل خطرا ، له تَبَعاً وبه مُتَّصلا .

قال المهدى : الخطبُ أيسر مما تذهبون إليه ؛ وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، نحن أهلَ البيت . نجرى من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابقٍ من العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكُتب ، وتتابعت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا ، وتكامل بحَذافيره عندنا ، فبِهِ نُدبِّر ، وعلى الله نتوكل : إنه لابدّ لولىّ عهدى ـ وولىُّ عهدى عقبى بعدى ـ أن يقود إلى خُراسان البعوث ، ويتوجّه نحوها بالجنود .

أما الأول فإنه يُقدِّم إليهم رُسُله ؛ ويُعْمِل فيهم حِيَله ، ثم يخرج نَشِطاً إليهم ، حَنِقاً عليهم ، يريد ألّا يدع أحدا من إخوان الفتن ، ودواعى البِدَع ، وفُرسان الضلال ، إلا توطّأه بحرِّ القتل ، وألبسه قناع القهر ، وطوّقه طوقَ الذُّل . ولا أحداً من الذين عملوا فى قَصّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونصرةُ ولاة الحق ،

إلا أجرى عليهم دِيَمَ فضلِه ، وجداولَ بَذْله ، فإذا خرج مُزْمِعاً به مُجمعاً عليه ؛ لم يَسِر إلا قليلا حتى يأتيه أنْ قد عَمِلتْ حِيَله ؛ وكدحت كُتُبه ؛ ونفذت مكايده ؛ فهدأت نافرةُ القلوب ، ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ؛ فيميل نظراً لهم وبرًّا بهم وتعطّفاً عليهم ، إلى عدُوّ قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقَهم ، ومنع حُجّاجَهم بيتَ الله الحرام ، وسَلب تجارَهم رزقَ الله الحلال .

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبَذْلِ مايَسْألون ، فإذا سمعت الفِرَق بقرانها له ، وجَنَحَ أهلُ النواحى بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة ، وقَدِمَت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بخعت بطاعتها ، وألقت بأزمتها ، فألبسها جَناحَ نعمته ، وأنزلها ظلّ كرامته ، وخصّها بعظيم حِبائه ، ثم عمّ الجماعة بالمَعْدَلَة ؛ وتعطّف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فِرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركتُه ، ووصلت إليها منفعته ، فأغنى فقيرَها ، وجَبرَ كسيرها ، ورفع وَضيعها ، وزاد رفيعَها ، ما خلا ناحيتين : ناحيةً يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته ، وتُبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخرَ مَن يَبعث ، وأبطأَ من يُوَجّه ، فيضطمر عليها موْجِدَةً ، ويبتغى لها علّة ، لا يلبث أن يجدها بحقٍّ يلزمهم ؛ وأمرٍ يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرُّ فيهم القتل ، ويحيط بهم الأسْر ، ويُفنيهم التَّتَبُّع ، حتى يُخرب البلاد ، ويُوتِم الأولاد . وناحيةً لا يبسط لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرّع جِلباب الفِتنة ، ورَبض فى شقّ العصا . ولكنه يقتل أعلامَهم ، ويأسر قوّادهم ، ويطلب هُرّابهم فى لُجَج البحار ، وقُلل الجبال ، وخَمَر الأودية ، وبطون الأرض ، تقتيلا وتَغليلا وتَنكيلا ؛ حتى يَدع الدّيار خرابا ، والنّساء أيامى . وهذا أمرٌ لا نَعرف له فى كُتبنا وقتاً ، ولا نصحّح منه غير ماقلنا تفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى ، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان ، وحُلوله بجُرْجان ؛ وما قضى الله له من الشخوص إليها والمُقام فيها ، خيرٌ للمسلمين مَغَبّةً ، وله بإذن

الله عاقبة ، من المقام بحيث يُغْمَر فى لُجج بُحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيمُ فضلهِ ، ويتذأّب مشرقُ نُوره ، ويُتقلل كثير ماهو كائنٌ منه . فمن يَصحبُه من الوزراء ومن يُختارُ له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدى ، إن ولىّ عهدِك أصبح لأُمتك وأهل ملتك عَلما قد تثنّت نحوه أعناقُها ، ومُدّتْ سَمْتَه أبصارُها ، وقدكان لقرب داره منك ، ومحلّ جواره لك ، عُطُل الحــال ، غُفْل الأمر ، واسع العذر ، فأما إذا انفرد بنفسه ، وخلا بنظره ، وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه ، وتستنصِتَ لمواقع آثاره ، وتسألَ عن حوادث أحواله ، فى برّه ومَرْحَمَتِه ، وإقساطه ومَعدلته ، وتدبيره وسياسته ، ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ماسيق إليهم أغلبَ الأشياءِ عليهم ، وأملكَ الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدَّها استمالة لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ المهدى ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يُقوّى عَمَد مملكته ، ويسدد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أُمته ، بأمر هو أزْين لحاله ، وأظهر لجمـاله ، وأفضلُ مَغَبّةً لأمره ، وأجلُّ موقعا فى قلوب رعيته ، وأحمدُ حالاً فى نفوس أهـل مِلّتِه . ولا أوقع مع ذلك بأستجماع الأهواء له ؛ وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه ، من مَرْحَمَةٍ تَظْهر من فعله ، ومَعْدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ للخير وأهله ؛ وأن يَختار المهدىُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة ، وفُقهاء أهلِ كلّ مصر ، أقواماً تسكن العامةُ إليهم إذا ذُكروا ، وتأنس الرعيةُ بهم إذا وُصفوا ، ثم تُسهِّل لهم عمارة سُبُل الإحسان ؛ وفَتْح باب المعروف كما قد كان فُتح له وسهل عليه .

قال المهدى : صدقت ونصحتَ . ثم بعث فى ابنه موسى ؛ فقال : أىْ بُنَىّ ، إنك قد أصبحتَ لِسَمْتِ عيون العامة نُصْبا ، ولَمثْنَى أعطافِ الرعية غاية ، فحسنتُك شاملة ، وإساءتك نامية ، وأمرُك ظاهر . فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ؛ فإن الله عزّ وجلّ كافيك مَن أسْخطَه عليك إيثارُك رضاه ؛ وليس بكافيك مَنْ يُسْخِطُه عليك إيثارُك رضامَنْ سواه.

ثم اعلم أن الله تعالى فى كل زمان عِتْرة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنُصرة حقه ، يجدِّد حبلَ الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنُصرتهم ، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعوانا ، يَسُدُّون الخَلل ، ويُقيمون المَيل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أيدىَ دولتِنا ، وسيوفَ دعوتِنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونصرف نزول العظائم بمُناصحتهم ، ونداف ريبَ الزمان بعزائمهم ، ونُزاحم ركنَ الدهرِ ببصائرهم . فهم عمادُ الأرض إذا أرجفت كُنفُها ، وحُتوف الأعداء إذا أبرزت صَفحتها ، وحصونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها ؛ قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات ، أخمدت نيرانَ الفتن ، وقَصمت دواعى البِدَع ، وأذلّت رقاب الجبّارين ؛ ولم ينفكّوا كذلك ماجَرَوْا مع ريح دولتنا ، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التى أعزّ الله بها ذِلّتهم ، ورفع بها ضَعَتهم ، وجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأرضين ، ومُلوكا على رقاب العالمين ، بعد لباس الذُّل ، وقِناع الخوف ، وإطباق البلاء ، ومُحالفة الأسى ، وجَهد البأس والضُّر . فظاهرْ عليهم لِباسَ كرامتك ، وأنزلهم فى حدائق نعمتك . ثم اعرف لهم حقَّ طاعتهم ، ووسيلة دالّتهم ، وماتّة سابقتهم ، وحُرمةَ مُناصحتهم ، بالإحسان إليهم ، والتوسعة عليهم ، والإثابة لمُحسنهم ، والإقالة لمُسيئهم .

أىْ بُنَىّ ؛ ثم عليك العامةَ ، فاسْتَدْعِ رضاها بالعدل عليها . واستَجْلِبْ مودّتها بالإنصاف لها ، وتحسّنْ بذلك لربك ، وتزيّن به فى عين رعيّتك ، واجعل عُمّال القَدْر ، وولاةَ الحُجج ، مقدّمةً بين يدى عملك ، ونَصَفَةً منك لرعيتك ؛ وذلك أن تأمر قاضى كلّ بلد ، وخيارَ أهل كلّ مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تُوليه أمرَهم ، وتجعل العدلَ حاكما بينه وبينهم ، فإن أحسن حُمدت ، وإن أساء عُذرت . هؤلاء عمال القدر ؛ وولاة الحُجج . فلا يضيعنّ عليك مافى ذلك - إذا انتشر فى الآفاق وسبق إلى الأسماع - من انعقاد ألسنةِ المُرجفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكّنّ فى ظل كرامتك

نازلا ، وبعُرَا حبلِك متعلّقا ، رجلان : أحدهما كريمةٌ من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دِينٌ غير مغموز ، وموضعٌ غير مدخول ، بصيرٌ بتقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وأنحاء الأدب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية ، من تجميل محاسنك ، وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك . فتستشيره فى حربك ، وتُدخله فى أمرك . فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلّتى ، ويرعى فى خُضرة جِنانى ؛ ولا تدعْ أن تختار لك من فُقهاء البلدان ، وخِيَار الأمصار . أقواماً يكونون جيرانَك وسُمّارَك ، وأهلَ مشاورتك فيما تُورد ، وأصحابَ مُناظرتك فيما تُصْدِر . فسِر على بركة الله ، أصْحَبَك اللهُ من عونه وتوفيقه دليلًا يهدى إلى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانَك .

وكُتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد [1] .

باب فى مداراة العدوّ

للهند

فى كتاب للهند : أنّ العدوّ الشديد الذى لا تقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخُضوع له ، كما أنّ الحَشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها .

وقالوا : ازْفِنْ [2] للقرد فى دَوْلته .

أخذه الشاعر فقال :

لا تعبدنْ صَنمًا فى فاقة نزلتْ * وازْفِن بلا حَرَجٍ للقرد فى زمنه

لأحمد بن يوسف

وقال أحمد بن يوسف الكاتب : إذا لم تقدر أن تَعَضَّ يدَ عدوِّك فقبِّلها .

لسابق البربرى

وقال سابق البَرْبَرِىّ :

وداهنْ إذا ما خِفْتَ يوماً مُسَلَّطاً * عليك ، ولَنْ يحتالَ مَن لا يُداهِنُ

(١) كذا فى الأصل . والذى يذكره المؤرخون أن خروج موسى الهادى إلى جرجان كان فى سنة ١٦٦ ، وكانت وفاة المهدى فى شهر المحرم سنة ١٦٩ بعد الهجرة .

(٢) ازفن : ارقص .

للحكماء

وقالت الحكماء : رأسُ العقل مغافصة (١) الفُرصة عند إمكانها . والانصرافُ عما لا سبيل إليه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

بلاءٌ ليس يشــبهُهُ بَلاءٌ * عَـداوةُ غيرِ ذى حَسَبٍ ودِين
يُبيحُكَ منــه عِرْضاً لم يَصُنْهُ * ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مَصُونِ

التحفظ من العدوّ وإن أبدى لك المودّة

للحكماء

قالت الحكماء : احذَر المَوتور ولا تطمئنّ إليه ، وكُن أشدَّ ما تكون حذراً منه أَلطَفَ ما يكون مُداخلةً لك ؛ فإنما السلامةُ من العدو بتباعُدك منه ، وانقباضِك عنه . وعند الأُنس إليه والثقة [به] تُمكّنه من مقاتِلك .

قالوا : لا تطمئنّ إلى العدو وإن أبدى لك المُقاربة ، وإن بسط لك وجهه وخَفض لك جناحه ؛ فإنه يتربّص بك الدوائر . ويُضمر لك الغوائل ولا يرتجى صلاحاً إلا فى فسادك ، ولا رفعةً إلا بسُقوط جاهك .

للأخطل يحذر بنى أمية

كما قال الأخطل :

بنِي أُمَيّــةَ إنى ناصحٌ لَكُمُ * فلا يَبِيتَنّ فيكم آمِناً زُفَرُ
وأتّخِذُوه عَدُوًّا إنّ شـاهدَه * وما تَغَيَّبَ من أخْلاقِهِ دَعَر
إنّ الضّغِينة تَلْقاها وإن قَدُمَتْ * كالعُرِّ يَكْمُنُ حِيناً ثم يَنْتَشِرُ

للهند

وفى كتاب الهند : الحازم يحذر عدوّه على كل حال يحذر المُواثبة إن قَرُب والمعاودة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطرادَ إن ولّى ، والكرّة إن فرّ .

لحكيم يوصى ملكا

وأوصى بعضُ الحكماء ملكا فقال : لا يكونَنّ العدوُّ الذى كشف لك عن عداوته بأخوفَ عندك من الظنين الذى يستتر لك بمُخاتلته ، فإنه ربما تخوّف الرجلُ السّمّ الذى هو أقتل الأشياء ، وقتَله الماء الذى هو مُحيى الأشياء ؛ وربما تخوّفَ أن تقتله الملوكُ التى تملكه ، ثم تقتله العبيد التى يملكها .

(١) المغافصة : المفاجأة والأخذ على غرة .

ولم يقل أحد فى العدو المُندمل على العداوة مثلَ قول الأخطل : للأخطل

إنّ الضغينَة تلقاها وإن قَدُمَتْ * كالعرِّ يكمُن حيناً ثمّ ينتشرُ

وقد أشار الحسنُ بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول : للحسن بن هانئ

وابْنُ عمٍّ لا يُكاشِفُنا * قد لَبِسناهُ على غَمرِهْ

كَمَنَ الشنْآنُ فيه لنا * كَكُمونِ النارِ فى حَجَرِهْ

وشبهوا العدوَّ إذا كان هذا فعلَه بالحية المُطرقة . قال ٱبنُ أخت تأبط شرّا :

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ موْتاً كما * أطْرقَ أفعى يَنفثُ السّمَ صِلّْ

وقال عبد الله بن الزُّبير لمعاوية ـ ويقال معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ : بين معاوية وابن الزبير
مالى أراكَ تُطرِق إطراقَ الأُفعوان فى أُصول الشجر .

وفى كتاب الهند : إذا أحدث لك العدوُّ صداقة لعلة ألجأته إليك ، فمع ذهاب للهند
العلّة رجوعُ العداوة ، كالماء تُسخِّنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً
والشجرةُ المُرّةُ لو طليتَها بالعسل لم تُثمر إلا مُرّا .

وقال دريد : لدريد

وما تَخفَى الضغينه حيثُ كانتْ * ولا النَّظرُ المريض من الصحيح

وقال زهير : لزهير

وما يَكُ فى صديقٍ أو عدُوٍّ * تُخَبِّرْكَ العيونُ عنِ القلوبِ

وقيل لزياد : ما السرور ؟ قال : من طال عمره حتّى يرى فى عدوه ما يسرّه . لزياد

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل علىّ رضى الله عنه ، حَوْثرة الأقطع ؛ فإنه خرج إلى النُّخَيْلة وٱجتمع إليه جماعة من الخوارج ، ومعاويةُ بالكوفة ، وقد بايعه الحسن والحُسين وقيس بن سعد بن عُبادة ؛ ثم خرج الحسن يريد المدينة ؛ فوجه إليه معاوية وقد تجاوز فى طريقه ، يسأله أن يكون المتولِّىَ لمحاربتهم . فقال الحسن عليه السلام : والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ،

وما أحسب ذلك يسعنى ؛ فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولَى بالقتال منهم ؟ فلما رجع الجواب إليه وجّه إليهم جيشاً أكثرُه من أهلِ الكوفة ، ثم قال لأبى حوثرة . تقدمْ فاكفنى أمرَ ٱبنك . فسار إليه أبوه ، فدعاه إلى الرجوع ، فأبى ، فداوره فصمّم . فقال له : أىْ بنىّ ، أجيئك بابنك لعلّك تراه فتحن إليه ! فقال له : يا أبتِ ، أنا والله إلى طَعنة نافذةٍ أتقلّب فيها على كعوب الرمح أشوَقُ منى إلى ٱبنى . فرجع إلى معاوية فأخبره ، فقال : يا أبا حوثرة ، جارَ هذا جدا فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتَهُدُّوا سلطانه. واليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه ؟ ثم جعل يَشُدّ عليهم ويقول :

احملْ على هٰذى الجموعِ حَوْثَرَهْ ٭ فعَنْ قَريبٍ سَتَنالُ المَغْفِرَهْ

فحمل عليه رجل من طيئ فقتله ، فرأى أثر السجود قد لوّح جبهته ، فندم على قتله .

مرداس ومقتله

وكان مرداس أبو بلال قد شهد صِفّين مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأنكر التحكيم ، وشهد النّهروان ونجا فيمن نجا . فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى شدّة الطلب للشُّراة ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه : إنه والله ما يسعُنا المُقام مع هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم ، مُجانبين للعدل مُفارقين للفصْل . والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإنّ تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد ؛ ولكنا ننتبذ عنهم ولا نجرّد سيفَنا ولا نُقاتل إلا من قاتَلنا . فاجتمع إليه أصحابه زُهاء ثلاثين رجلا ، منهم : حُرَيْث بن حَجْل وكَهْمَس بن طلق الصَّريمى ، فأرادوا أن يولّوا أمرهم حُرَيثا فأبى ، فولوا أمرَهم مِرداسا ، فلما مضى بأصحابه لقيهم عبدُ الله بن رِبَاح الأنصارى ، وكان له صديقا ؛ فقال له : يا بن أخى ، أين تريد ؟ فقال : أريد أهرُب بدينى ودينِ أصحابى من أحكام هؤلاء الجَوَرَة . قال له : أعَلِمَ أحدٌ بكم ؟ قال : لا . قال : فارجع . قال : أو تخاف علىّ مكروها ؟ قال : نعم ، وأن يُؤتَى بك . قال : فلا تخف . فإنى لا أجرّد سيفا ولا أُخيف أحداً ولا أُقاتل إلا مَن قاتلنى .

ثم مضى حتى نزل آسَك ؛ فمرّ به مال يُحمَل إلى آبن زياد وقد بلغ أصحابُه

الأربعين ، فحطّ ذلك المالَ فأخذ منه عطاءه وأَعْطِياتِ أصحابه وترك ما بقى ، وقال : قُولوا لصاحبكم إنما أخذنا أَعْطِياتِنا . فقال له أصحابه : لماذا تترك الباق ؟ قال : إنهم يقسمون هذا الفىء كما يُقيمون الصلاة ، فلا تُقاتلوهم ماداموا على الصلاة .

فوجّه إليهم ابنُ زياد أسلمَ بن زُرْعة الكِلابىّ فى ألفين ، فلما وصل إليهم ، قال له مرداس : اتق الله يا أسلم ، فإنا لا نُريد قتالاً ولا نُروِّع أحدا ؛ وإنما هربنا من الظُّلم ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا ، ولا نُقاتل إلا مَن قاتلَنا . قال : لابد من ردّكم إلى ابن زياد . قال : وإن أراد قَتْلَنا ؟ قال : وإن أراد قتلكم . قال : فَتشْرَكُ فى دمائنا ؟ قال : نعم . فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه .

ثم وجه إليهم ابنُ زياد عبّادا ، فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ، هذا وقت الصلاة فوادِعُونا حتى نصلّى [وتُصلّوا[1]] . فوادَعُوهم ؛ فلما دخلوا فى الصلاة شدُّوا عليهم فقتلوهم ، وهم بين راكع وساجد وقائم فى الصلاة وقاعد . فقال عِمران بن حِطّان يرثى أبا بلال :

يا عينُ بَكِّى لِمرْداسٍ ومَصرَعه * يا ربِّ مرداسٍ اجْعلنى كمرداسِ
أبقَيْتنِي هائماً أبكى لمرزئتى * فى منْزل مُوحش من بعد إيناس
أنكرتُ بَعْدَك ماقدكنتُ أعْرِفه * ما الناسُ بعدك يا مرداسُ بالناسِ
إمّا شَرِبْتَ بكأس دارَ أوّلُهَا * على القُرون فذاقوا جَرْعَةَ الكاسِ
فكلُّ من لم يَذُقْها شاربٌ عَجِلاً * منها بأنفاسِ وِرْدٍ بَعْدَ أنفاسِ

وليس فى الفرَقِ كلها وأهل البدع أشدّ بصائر من الخوارج ، ولا أكثر اجتهادا ، ولا أوطان أنفسا على الموت ؛ منهم الذى طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : عَجِلت إليك ربِّ لترضى .

(١) زيادة عن الكامل .

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرتْ بها عَتَّابَ بنَ وَرْقاء سبعةَ أشهر يقاتلهم فى كل يوم وكان مع عتّاب بن ورقاء رجل يقال له : شريح . ويكنى أبا هريرة ، فكان يخرج إليهم فى يوم فيناديهم :

يابنَ أبى الماحوز والأشرارِ * كيف ترونَ يا كِلابَ النارِ
شَدَّ أبى هريرَةَ الهرّارِ * يَهْرِوكم بالليلِ والنَّهارِ
* وهوَ مِنَ الرَّحْمٰنِ فى جوارِ *

فتعاظمهم ذلك . فكَمَن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابُه ، فظنّت الخوارج أنه قد قُتل ، فكانوا إذا تواقفوا ينادونهم : مافعل الهَرّار ؟ فيقولون : مابه من بأس . حتى أبَلّ من عِلّته ، فخرج إليهم فقال : يا أعداء الله ! أتَرَوْن بى بأسا ؟ فصاحوا : قد كنا نرى أنك لحقت بأُمك الهاوية فى النار الحامية .

فلما طال الحصار على عتّاب ، قال لأصحابه : ماتنتظرون ؟ إنكم والله ماتُؤْتَوْنَ من قلّة : وإنكم فُرسان عشائركم ؛ ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم ؛ وما بقى من هذا الحصار إلا أن تَفْنى ذخائرُكم فيموتَ أحدُكم فيدفنَه صاحبُه ، ثم يموت هو فلا يجد مَن يدفنه ! فقاتِلوا القومَ وبكم قُوة ، من قبل أن يضعف أحدُكم عن أن يمشى إلى قِرْنه .

فلما أصبح صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون ، وقد نصب لواء لجارية يقال لها ياسَمين ، فقال : من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسَمين ! ومن أراد الجِهاد فلْيَلْحَقْ بلوائى . قال : فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس ، فلم تشعُر بهم الخوارج حتى غَشوهم . فقاتلوهم بجِدّ لم ترَ الخوارج مثلَه ، فقتلوا أميرَهم الزبيرَ بن علىّ ، وآنهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب بن ورقاء .

وخرج قُرَيْبُ بنُ مرة الأزدى وزَحّاف الطائى ، وكانا مُجتهدين بالبصرة فى أيام زياد فاعترضا النـاسَ ، فلقيا شيخاً ناسكا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه ، وتنادى النـاس ، فخرج رجل من بنى قُطَيعة من الأزد بالسيف ، فناداه الناس من بعض البيوت : الحروريةَ الحروريةَ ! انجُ بنفسك . فنادوه : لسْنا

حَرُورِيّةً نحن الشُّرَط . فوقف فقتلوه .

وبلغ أبا بلال خبرُهما ، وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراضَ الناس ، فقال : قُرَيبٌ ، لا قرّبه الله من الخير ، وزَحّافٌ ، لا عفا الله عنه ، فلقد ركِبَاها عشواءَ مُظلمة .

ثم جعلا لا يَمُرّان بقبيلة إلا قتلا مَنْ وَجَدا فيها ، حتى مرّا ببنى علىّ بن سُود ، من الأزد ، وكانوا رُماةً ، وكان فيهم مائة يُجيدون الرمى ، فرموهم رمياً شديداً ، فصاحوا : يابنى علىّ ، البُقْيا ، لا رِماء بيننا . فقال رجل منهم :

لا شىء للقوم سوى السهام * مشحوذة فى غلس الظلام

فهربت عنهم الخوارج ؛ فاشتقّوا مقبُرة بنى يَشْكُر حتى خرجوا إلى مُزَيْنة ، واستقبلهم الناس فقُتلوا عن آخرهم .

زياد والخوارج

ثم عاد الناس إلى زياد ، فقال : ألا يَنْهَى كلُّ قوم سفهاءهم ؟ فكانت القبائل إذا أحست بخارجى فيهم أوثقوه وأتوا به زيادا ، فمنهم من يَحبسه ومنهم من يقتله .

ولزيادٍ أخرى فى الخوارج : أنه أُتى بامرأة منهم ، فقتلها ثم عرّاها ، فلم تَخرج النساء إلا بعد زياد ، وكنّ إذا أُرْغِمن على الخروج قلن : لولا التَّعرية لسارعْنا .

من فرسان الخوارج

ومن مشاهير فرسان الخوارج : عمرو القَنَا ، من بنى سعد بن زيد مناة ؛ وعَبيدة بن هلال ، من بنى يشكر بن بكر بن وائل ، وهو الذى طَعن صاحب المهلّب فى فخذه ؛ فشكّها مع السرج ؛ وهما اللذان يقول فيهما ابن المُنجِب السدوسى من فُرسان المهلّب ، وكان قال له مولاه خِلاج : وددت أنّا فَضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرّهم فأستلبَ منه جاريتين ، إحداهما لك والأخرى لى :

أخِلاجُ إنك لن تُعانِقَ طَفْلةً * شَرِقاً بها الجادِىُّ كالتِّمْثال
حتى تُعانِقَ فى الكتيبةِ مُعلِما * عَمْرَو القَنَا وعَبيدةَ بنَ هلال
وترى المُقَعْطَرَ فى الكتيبة مُقْدِماً * فى عُصْبةٍ قَسَطُوا مع الضُّلّال

والمُقَعْطَر : من مشاهير فرسانهم ، وقَطرىّ ، أنجدُهم قاطبة ، وصالح بن مِخْراق ، من بُهَمِهم ، وكذلك سعد الطلائع .

المهلب فى نفر من الخوارج

ولما اختلف أمرُ الخوارج وانحاز قَطَرِىٌّ فيمن معه وبقى عبدُ ربِّه ، قال المهلّب لأصحابه : إن الله تعالى قد أراحكم من أقرانٍ أربعة : قطرىّ بن الفُجاءة ، وصالح بن مِخراق ، وعَبيدة بن هلال ، وسعد الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبدُ ربه فى خُشار من خُشار الشيطان .

تعطش الخوارج إلى القتال

وكانت الخوارج تُقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلْق الخسيس أشدَّ قتال ، وسقط فى بعض أيامهم رُمح لرجل من مُرَاد من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراحُ والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمُرادى يرتجز :

اللَّيلُ ليلٌ فيهِ وَيْلٌ ويلُ * وسالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيْلُ
* إن جازَ للأعداء فينا قَوْلُ *

تفرق كلمة الخوارج

وتفرقت مقالة الخوارج على أربعة أضرب : فقال نافعُ بن الأزرق : باستعراض الناس والبراءة من عثمان وعلىّ وطلحة والزبير ، واستحلال الأمانة وقتلِ الأطفال .

وقال أبو بَيْهَس هَيصم بن جابر الضُّبَعِىّ : إن أعداءنا كأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم : يحلّ لنا المُقام فيهم كما أقام رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين . وأقول : إن مناكحتهم ومواريثهم تجوز ، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وإن حكمهم عند الله حكم المشركين .

وقال عبد الله بن إباض : لا نقول فيمن خالفنا إنه مُشرك ، لأن معهم التوحيدَ والإقرارَ بالكتاب والرسول ، وإنما هم كُفّارٌ للنِّعم ، ومواريثُهم ومناكِحُهم والإقامة معهم : حِلٌّ ، ودعوةُ الإسلام تجمعهم .

وقالت الصُّفْرِيّة بقول عبد الله بن إباض ، ورأت القعودَ ، حتى صار عامتهم قَعَداً ؛ وإنما سُمّوا صُفْرِيَةً لاصفرار وجوههم ، وقيل : لأنهم أصحاب ابن الصَّفّار .

كتاب الزبرجدة

في الأجواد والأصفاد

فرش كتاب الزبرجدة

لابن عبد ربه — قال الفقيه أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربه ، تغمده الله برحمته : قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال ، وتقدُّم الرجالِ ، على منازلهم من الصبر والجلد ، والعُدّة والعَدد .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد ، إذ كان أشرفُ ملابس الدنيا وأزينُ حللها وأجلبُها لحمد ، وأدفعها لذمّ ، وأسترها لعيب : كرمَ طبيعة يتحلى بها السمحُ السريّ ، والجواد السخي . ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى ، تَسَمَّى بها ، فهو الكريم عز وجل . ومن كان كريماً من خَلْقِه ، فقد تسمَّى باسمه ، واحتذى على صفته .

للنبي صلى الله عليه وسلم — وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .

وفي الحديث المأثور : الخَلق عِيال الله ، فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله .

للحسن والحسين — وقال الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جَعفر : إنك قد أسرفتَ في بذل المال . قال : بأبي وأمي أنتما ، إنّ الله قد عودني أن يتفضّل عليّ ، وعوّدته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطعَ العادة فيقطعَ عني .

للمأمون — وقال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلّبي : أنتَ مِتْلاف ! قال : مَنْعُ الجودِ سوء ظنٍّ بالمعبود . يقول الله عز وجل : ﴿ وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفقْ بِلالا ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا .

مدح الكرم وذمّ البخل

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : اصطناع المعروف يَقِي مصارع السوء .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله يُحب الجُود ومكارم الأخلاق ويُبغض سَفْسافَها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب : من سيِّدُكم؟ قالوا الجَدُّ بن قيس على بُخل فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدْوَأُ من البخل .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

لأكثم بن صيفي

وقال أكثم بن صيفيّ حكيم العرب : ذلّلوا أخلاقكم للمطالب ، وقُودوها إلى المحامد ، وعلّموها المكارم ، ولا تُقيموا على خُلق تَذُمّونه من غيركم ، وصِلُوا من رَغِب إليكم ، وتحلّوا بالجُود يَكسبكم المحبّة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر .

لبعض الشعراء

أخذه الشاعر فقال :

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَه ٭ وأَخَّرْتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ
فصِرْتَ الفقيرَ وأنتَ الغَنِيُّ ٭ وما كنتَ تَعْدو الذي تصْنَع

بين سخي وبخيل

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويُخوّفه الفقر . فردّ عليه : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾ وإني أكره أن أترك أمراً قد وقع ، لأمرٍ لعله لا يقع .

من خطبة لخالد القسري

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر : أيها الناس ، عليكم بالمعروف ؛ فإن الله لا يُعْدِم فاعلَه جَوازيَه ؛ وما ضعفت الناسُ عن أدائه قَوِيَ اللهُ على جزائه .

أخذه من قول الحُطيئة :

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ ٭ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة : يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام : من يفعل الخير يجده عندي ، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي .

من خطبة سعيد بن العاص

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَن رزقه الله رزقا حَسنا فَلْيُنفق منه سرّا وجهراً ، حتى يكون أسعدَ الناس به ؛ فإنما يَترك ما يترك لأحد رجلين : إمّا لُمصلحٍ فلا يَقِل عليه شيء ، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء .

أخذه الشاعر فقال :

أَسْعِد بمالك فى الحياةِ فإنمـا ۞ يَبْقى خِلافَكَ مُصْلِحٌ أو مُفْسِدُ
فإذا جمعتَ لُمفْسد لم يُغْنِهِ ۞ وأخو الصلاح قليلهُ يَتَزَيَّدُ

لأبى ذر

قال أبو ذَر : إن لك فى مالك شريكين : الحَدَثان والوارث ؛ فإن آستطعت ألّا تكون أبخسَ الشركاء حظًّا فافعل .

وقال بُزُرجِمْهر الفارسى : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها ، فإنها لا تفنى ؛ وإذا أدبرت عنك فأنفِق منها فإنها لا تبقى .

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال :

لا تَبخلَنّ بِدُنْيا وهْىَ مُقْبِـلَةٌ ۞ فليس يَنْقُصُها التّبْذيرُ والسَّرَفُ
وإنْ تولّتْ فأحْرى أن تجود بها ۞ فالحمدُ منها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَفُ

لكسرى فى الأسخياء

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ، فإنهم أهلُ حسنِ الظنّ بالله تعالى ، ولو أنّ أهل البخل لم يدخل عليهم من ضَرر بُخلِهم ومَذَمّةِ الناس لهم وإطباق القلوب على بُغضهم ، إلا سوء ظَنهم بربهم فى الخَلَفِ ، لكان عظيما .

للوراق

وأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال :

مَن ظَنّ بالله خيْرًا جادَ مُبْتدِئاً ۞ والبُخْلُ مِن سوءِ ظَنّ المرْءِ بالله

بين موسى الهادى وابن يزيد

محمد بن يزيد بن عمر بن عبدالعزيز قال : خرجتُ مع موسى الهادى أمير المؤمنين من جُرجان ، فقال لى : إمّا أن تحملنى وإما أن أحملك . ففهمت ما أراد ، فأنشدتُه أبيات آبن صِرْمة الأنصارى .

أُوصيكمُ بالله أَوّل وَهْلةٍ ۞ وأحسابِكُم ، والبِرُّ بالله أوّلُ
وإن قومُكُم سادوا فلاتحْسُدُوهُمُ ۞ وإن كنتمُ أهلَ السيادةِ فاعْدِلُوا

وإن أنتمُ أعْوَزْتُمُ فتعفَّفُوا ٭ وإن كان فضلُ المالِ فيكم فأفضِلُوا

فأمر لى بعشرين ألفا .

لابن عباس

وقال عبد الله بن عباس : ساداتُ الناس فى الدنيا الأسخياء ، وفى الآخرة الأتقياء .

لأبى مسلم الخولانى

قال أبو مُسلم الخَوْلانى : ما شىء أحسن من المعروف إلا ثوابه ، وما كل من قدر على المعروف كانت له نيّة ؛ فإذا آجتمعت القُدرة والنية تمت السعادة . وأنشد :

إن المكارمَ كُلّها حَسَنٌ ٭ والبذْلُ أحْسنُ ذلك الحَسنِ
كم عارِفٍ بى لَسْتُ أعرِفُهُ ٭ ومُخَبِّرٍ عنى ولم يرَنى
يأتيهمُ خبَرِى وإن بَعُدَتْ ٭ دارِى وبُوعِدَ عنهمُ وطنى
إنى لَحُرُّ المالِ مُمْتَهِنٌ ٭ ولِحُرِّ عِرْضى غيْرُ مُمْتَهِن

لخالد القسرى

وقال خالد بن عبد الله القسرى : من أصابه غُبار مَرْكَبى فقد وجب علىّ شكرُه .

لابن العاص

وقال عمرو بن العاص : والله لرَجُلٌ ذكرنى ، ينام على شقّه مرة وعلى شقه أخرى ، يرانى موضعاً لحاجته ، لأوجَبُ علىّ حقا إذا سألَنيها منى إذا قضيتُها له .

لعبد العزيز ابن مروان

وقال عبد العزيز بن مروان : إذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده ، فَيَدُهُ عندى أعظمُ من يدى عنده . وأنشد لآبن عبّاس رضى الله تعالى عنهما :

إذا طارِقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفَتَى ٭ وأعمل فِكْرَ الّليلِ والّليلُ عاكِرُ
وباكَرَنى فى حاجَةٍ لم يكن لها ٭ سِوَاىَ ولا من نكْبة الدّهرِ ناصر
فَرَجتُ بمالى هَمّه عن خِناقِه ٭ وَزاوَلَهُ الهمُّ الطَّرُوقُ المُساوِرُ
وكان له فضْلٌ علىّ بِظَنّه ٭ بىَ الخيرَ إنّى لِلّذِى ظَنّ شاكرُ

لأبى عقيل فى مروان

وقيل لأبى عُقَيل البليغ العِرَاقى : كيف رأيتَ مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه ؟ قال : رأيتُ رغبته فى الإنعام فوق رغبته فى الشكر ، وحاجتَه إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة .

لزياد

وقال زياد : كفى بالبُخل عاراً أن آسمه لم يقع فى حمد قطّ ، وكفى بالجود مجدا أن آسمه لم يقع فى ذم قط .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

أَلاَ تَرانى وقد قطَّعتَنى عـذَلاً ٭ ماذا من الفَضْلِ بيْنَ البُخلِ والجُودِ
إلاّ يكُنْ ورقٌ يوماً أَراحُ به ٭ للخابِطِين فإنى لَيّنُ العُودِ
لا يعدمُ السائلون الخيرَ أفعلهُ ٭ إما نوالاً وإما حُسْنَ مَرْدُودِ

قوله « إلا يكن ورق » يريد المال ، وضَرَبه مثلا . ويقال : أتى فلان فلانا يختبط ما عنده . والآختباط : ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة ، فجعل طالب الرزق مثل الخابط .

لابن خارجة

قال أسماء بن خارجة : ما أُحب أن أَرُدّ أحداً فى حاجة طلبها ، لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه ، أو لئيما فأصون عرضى منه .

لأرسطاطاليس

وقال أرسطاطاليس : من آنتجعك من بلاده فقد آبتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك .

الترغيب فى حسن الثناء واصطناع المعروف

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فآنظروا ما يتبعه من حسن الثناء .

من عمر إلى أبي موسى

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، وآعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك .

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : ما أفادك الدهر ؟ قال : العِلْم به . قيل : فما أحمدُ الأشياء ؟ قال : أن تبقى للإنسان أُحدوثةٌ حسنة .

لبعض أهل التفسير

وقال بعض أهل التفسير فى قول الله تعالى ﴿ واجْعلْ لى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخِرِين ﴾ إنه أراد حسن الثناء من بعده .

لأكثم بن صيفى

وقال أكثم بن صيفى : إنما أنتم أخبار فطيّبوا أخباركم .

لحبيب الطائى — أخذ هذا المعنى حبيب الطائى فقال :

وما ابنُ آدمَ إلا ذِكْرُ صالِحَةٍ * أو ذِكْرُ سيئةٍ يَسرى بها الكَلِمُ
أما سَمِعْتَ بدَهْرٍ بادَ ، أُمَّتُـه * جاءت بأخبارِها من بعْدِها أُمَمُ

لابن دريد — وقال أبو بكر محمد بن دريد :

وإنمـا المرء حديث بعده * فكن حديثاً حسناً لمن وعى

لبعضهم — وقالوا : الأيام مزارع ، فما زرعتَ فيها حصدته .

لابن عبد ربه — ومن قولنا فى هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق :

يا مَن تَجَـلَّد للزَّما * نِ أمَا زَمانُكَ منكَ أجْلَدْ
سَلِّطْ نُهَاكَ على هَوَا * كَ وعُدَّ يومَكَ ليس مِن غَدْ
إنَّ الحيـاةَ مزارِعٌ * فازرعْ بها ما شئتَ تَحْصُدْ
والنـاسُ لا يَبْقَى سِوَى * آثارِهم والعيْنُ تُفْقَدْ
أوَ ما سَمِعْتَ بِمَنْ مَضَى * هٰذا يُذَمُّ وذاكَ يُحْمَدْ
المـالُ إنْ أصلحْتَهُ * يَصْلُحْ وإنْ أفسدْتَ يَفْسُدْ

للأحنف — وقال الأحنف بن قيس : ما ادَّخَرَت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، شيئاً أفضلَ من آصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

لبعضهم — وقالوا : تَرْبيب المعروف أولى من آصطناعه ؛ لأنَّ اصطناعه نافلة ، وتربيبه فريضة .

وقالوا : أَحْيِ معروفَك بإماتة ذِكره ، وعظِّمه بالتَّصغير له .

للحكماء — وقالت الحكماء : مِن تَمام كَرم المنْعِم التغافلُ عن حُجته ، والأقرارُ بالفضيلةِ لشاكرِ نعمتِه .

وقالوا : للمعروف خصال ثلاث : تَعجيله وتَيسيره وستره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بَخس المعروف حقَّه وسقط عنه الشكر .

لمعاوية — وقيل لمعاوية : أى الناس أحبّ إليك ؟ قال : من كانت له عندي يدٌ صالحة .

قيل : فإن لم تكن له ؟ قال : فمن كانت لى عنده يد صالحة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من عظُمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه ، فإن لم يقُم بتلك المؤونة عَرَّض النعمة للزوال .

عروة بن أدية فى صلبه

أبو اليقظان قال : أخذ عبيد الله بن زياد عروةَ بن أُدَيَّة أخا أبى بلال ، وقطع يده ورجله ، وصلبه على باب داره ؛ فقال لأهله وهو مصلوب : انظروا إلى هؤلاء الموكلين بى فأحسنوا إليهم ، فإنهم أضيافكم .

ابن المبارك عن حُميد عن الحسن قال : لأَن أقضى حاجةً لأخ لى ، أحبُّ إلىّ من عبادة سنة .

بن السندى وكوفى ذى مروءة

وقال إبراهيم بن السِّندى : قلت لرجل من أهل الكوفة ، من وجوه أهلها ، كان لا يَجف لِبْدُه ، ولا يستريح قلبه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضُّعفاء وكان رجلا مفوَّها ؛ فقلت له : أخبرنى عن الحالة التى خَفَّفتْ عنك النَّصب وهوَّنت عليك التعبَ فى القيام بحوائج الناس ، ماهى ؟ قال قد والله سمعتُ تغريد الطير بالأسحار ، فى فروع الأشجار ، وسمعت خَفْق أوتار العيدان ، وترجيعَ أصوات القِيان ، فما طربتُ من صوت قط ، طَرَبى من ثناءٍ حَسَنٍ بلسانٍ حَسَن على رجل قد أحسن ، ومن شكر حُرٍ لمنعم حر ، ومن شفاعة محتسب لطالبٍ شاكر . قال إبراهيم : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشيتَ كَرَما .

لجعفر بن محمد

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد قال : إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون الحوائج للناس ، فمن آستطاع منكم أن يكون منهم فليكن .

الجود مع الإقلال

من الكتاب والسنة

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل العطية ما كان من مُعْسِر إلى مُعْسر .

وقال عليه الصلاة والسلام : أفضل العطية جُهْدُ المُقِلّ .

الحكماء

وقالت الحكماء : القليل من القليل أحمدُ من الكثير إلى الكثير .

لحبيب

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه فى أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلما :

قد بَعَثْنا إليكَ أكْرَمَكَ الله بشيء فكُنْ له ذا قَبُولِ
لا تقِسْهُ إلى ندى كَفِّكَ الغمـ ـر ولا نَيْلِكِ الكثيرِ الجزيلِ
واسْتَجِزْ قِلَّةَ الهَدِيَّةِ مِنّى ٭ إنّ جُهْدَ المُقِلّ غيرُ قليل

لبعضهم

وقالوا : جُهد المقلّ أفضلُ من غِنى المُكْثِر .

لصريع الغوانى

وقال صريع الغوانى :

ليس السَّماحُ لِمُكْثِرٍ فى قومه ٭ لكنْ لمُقْتِرِ قومِهِ المُتحمِّدِ

لأبى هريرة فى جعفر بن أبى طالب

وقال أبو هريرة : ما وددت أن أحداً ولدتنى أمُّه إلا أم جعفر بن أبى طالب؛ تبعتُه ذات يوم وأنا جائع ، فلما بلغ الباب التفت فرآنى ، فقال لى : ادخل ، فدخلت : ففكّر حينا فما وجد فى بيته شيئاً إلا نِحْياً كان فيه سمن مَرّة ، فأنزله من رَفّ لهم ، فشقّه بين أيدينا ، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والزيت ، وهو يقول :

ما كلّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقَتِها ٭ ولا تجودُ يد إلا بما تَجِدُ

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : مَن أجْوَدُ الناس ؟ قال : من جاد من قلّة ، وصان وجه السائل عن المَذَلّة .

لحماد عجرد

وقال حماد عجرد :

أَوْرِقْ بخير تؤَمَّلْ للجزيلِ فما ٭ ترْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
إن الكريم لَيُخفى عنك عسرته ٭ حتى تراه غنيًّا وهو مجهود
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمْنَعْكَ قلّتُهُ ٭ فَكُلُّ ما سَدَّ فقراً فهْوَ محمُودُ

وللبخيلِ على أمْوالِه عِلَلٌ * زُرْقُ العيونِ عليها أوجُه سُودُ

لحاتم

وقال حاتم :

أضاحِكُ ضَيْفِى قبْل إنزالِ رَحْلِهِ * ويُخْصِبُ عِنْدِى والمحلُّ جَدِيبُ
وما الخصْبُ للأضْيافِ أن يكْثُرَ القِرَى * ولكنّما وجْهُ الكريم خَصِيبُ

لعبد الملك فى عروة

وقال عبد الملك بن مَرْوان : ما كُنت أُحبُّ أنّ أحداً ولدنى من العرب إلا عُروة بن الورد لقوله :

أتهزأُ منى أنْ سَمِنْتَ وأنْ ترى * بجِسمِىَ مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ
لأنى آمرُؤٌ عافى إنائى شِرْكَة * وأنتَ آمرُؤ عافى إنائِكَ واحِدُ
أُقسِّم جِسْمى فى جُسُومٍ كثيرةٍ * وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

لصريع

ومن أحسن ما قيل فى الجود مع الإقلال قول صريع :

فلَوْ لم يكن فى كفِّه غيرُ رُوحِه * لجادَ بها فلْيتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

لابن النطاح

ومن أفرط ما قيل فى الجود قول بَكْر بن النطّاح :

أقولُ لُمرْتادِ النّدَى عندَ مالِكٍ * تمسَّكْ بجَدْوَى مالِكٍ وصِلاتِهِ
فتًى جَعَلَ الدُّنيا وِقاءً لعِرْضِهِ * فأسْدَى بها المعروفَ قبلَ عُداتِهِ
فلو خَذَلَتْ أموالُه جُودَ كفِّهِ * لقاسَمَ مَن يَرْجُوهُ شَطْرَ حياتِهِ
وإنْ لم يَجُزْ فى العُمْرِ قَسْمٌ لِمالِكٍ * وجازَ لهُ أعْطاهُ مِنْ حَسناتِهِ
وجادَ بها مِن غيرِ كُفْرٍ بربِّهِ * وأشْرَكَهُ فى صَومِهِ وصلاتِهِ

لبعض الشعراء

وقال آخر فى هذا المعنى وأحسن :

مَلأْتُ يَدى مِن الدنيا مِرارا * وما طَمِعَ العواذِلُ فى اقتِصادى
ولا وجَبَتْ علَىَّ زكاةُ مالٍ * وهل تَجِبُ الزَّكاة على الجواد

العطية قبل السؤال

لسعيد بن العاص

قال سعيد بن العاص : قَبَحَ اللهُ المعروفَ إن لم يكن آبتداءً من غير مسألة ،

فالمعروف عوض من مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائصه تُرْعَد ، وجبينه يرشح : لا يَدرى أيرجع بنُجْح الطلب ، أم بسوء المُنقَلَب ، قد انتُقِعَ لونهُ ، وذهب دمُ وجهه . اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظّ فلا تجعل لى حظا فى الآخرة .

لأكثم — وقال أكثم بن صيفى : كل سؤالٍ وإن قلَّ أكثرُ من كل نَوَال وإن جلّ .

لعلى — وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأصحابه : مَن كانت له إلىّ منكم حاجة فليرفعها فى كتاب ، لأصونَ وجوهَكم عن المسألة .

لحبيب — حبيب قال :

عطاؤكَ لا يفنَى ويَستَغرِق المُنَى * وتَبقى وُجوهُ الرَّاغِبينَ بمائها

وقال حبيب أيضاً :

ذُلُّ السُّؤالِ شَجاً فى الحلْقِ مُعْتَرِضٌ * مِن دونِه شَرَقٌ من خَلفه جَرَضُ

ما ماءُ كفِّكَ إن جادتْ وإن بَخِلتْ * مِن ماءِ وَجهى إذا أفنيْتُه عِوَضُ

إنى بأيْسَرِ ما أدْنيتَ مُنبسِطٌ * كما بأكثرِ ما أقصَيتَ مُنقَبِضُ

لبعضهم — وقالوا : مَن بذل إليك وجهه فقد وفّاك عن نعمتك .

وقالوا : أكمل الخِصال ثلاث : وقار بلا مهابة ، وسماح بلا طلبِ مكافأة ، وحِلم بغير ذلّ .

وقالوا : السخى من كان مَسروراً ببذله ، متبرعا بعطائه ، لا يلتمس عرض دنيا فيَحبطَ عمله ، ولا طَلَب مكافأة فيَسقط شُكره ، ولا يكون مَثله فيما أعطى مثل الصائد الذى يُلقِى الحب للطائر : لا يريد نفعها ولكن نفعَ نفسه .

بين ابن أبى سبرة وأبى الأسود — نظر المنذر بن أبى سبرة إلى أبى الأسود الدؤلى وعليه قيصٌ مرقوع ، فقال له : ما أصبَرَك على هذا القميص ؟ فقال له : رُبَّ مملوكٍ لا يُستطاع فِراقُه . فبعث إليه بتَخت من ثياب . فقال أبو الأسود :

كَساني ولم أستَكسِه فحَمِدتُه * أخٌ لكَ يُعطيك الجَزيلَ وناصِرُ

وإنّ أحقَّ الناسِ إن كُنتَ شاكِراً * بشُكرِكَ مَن أعطاكَ والعِرْضُ وافِرُ

بين معاوية وابن صوحان فى الجود

وسأل معاوية صعصعةَ بن صُوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرّع بالمال، والعطيّة قبل السؤال .

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

كَريمٌ على العِلاتِ جزلٌ عَطاؤهُ * يُنيلُ وإن لم يُعتَمَدْ لِنوالِ
وما الجُودُ مَن يُعطِى إذا ما سألتَهُ * ولكِنّ مَن يُعطى بغيرِ سُؤال

لبشار

وقال بشّار العُقيلى :

مالكٌ ينشقُّ عن وَجهه الجد * بُ كما انشقّت الدُّجى عن ضياءِ
فثُجوج السماء فيضُ يدَيْه * لقريبٍ ونازحِ الدارِ ناءِ
ليسَ يُعطيكَ للرَّجاء وللخوْ * فِ ولكنْ يَلذُّ طعمَ العَطاء
لا ولا أنْ يُقالَ شيمَتُه الجُو * دُ ولكنْ طبائعُ الآباء

لبعض الشعراء

وقال آخر :

إن بينَ السُّؤالِ والإعتِذار * خُطّةً صَعبةً على الأحرار

لحبيب

وقال حبيب :

لئنْ جحدْتُكَ ما أوْليتَ مِنْ نِعَمٍ * إنى لفى اللؤم أمضَى منكَ فى الكَرَمِ
أنسى ابتسامَكَ والألوانُ كاسفةٌ * تَبَسُّمَ الصُّبح فى داجٍ مِنَ الظُّلَمِ
رددتَ رَوْنَقَ وجهى فى صحيفتِه * رَدّ الصِّقالِ بهاءَ الصّارمِ الخَذِمِ
وما أُبالى وخيرُ القول أصدقُهُ * حَقَنْتَ لى ماءَ وَجهى أم حقنتَ دَمى !

استنجاح الحوائج

عادتهم فى ذلك

كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما : اللهم بك أستنجح ، وباسمك أستفتح ، وبمحمد نبيّك إليك أتوجه ، اللهم ذلّل لى صعوبته ، وسهّل لى حُزونته ، وارزقنى من الخير أكثرَ مما أرجو ، واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : آستعينوا على حوائجكم بالكتمان لها ، فإنّ كل ذي نعمة محسود .

لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان : لاتطلُبوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلُبوها من غير أهلها ، فإنّ الحوائج تُطلب بالرجاء ، وتُدرَك بالقضاء .

وقال : مفتاح نُجْح الحاجة الصبرُ على طول المُدة ، ومغلاقُها آعتراض الكَسَل دونها .

لبعض الشعراء

قال الشاعر :

إنى رأيتُ وفى الأيامِ تَجْرِبَةٌ ۞ للصبرِ عاقبــةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ مَن جَدَّ فى أمرٍ يُحاوِلُهُ ۞ واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلافازَبالظَّفَرِ

من أمثالهم

ومن أمثال العرب فى هذا : مَنْ أدمَنَ قرْعَ الباب يوشك أن يُفتح له .

لشاعر فى مثله

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال :

إن الأمور إذا آنسدت مسالكها ۞ فالصبر يفتُق منها كل ما ارتتجا
لا تيأَسَنَّ وإنْ طالتْ مُطالَبَةٌ ۞ إذا تضايَقَ أمرٌ أن ترى فَرَجا
أَخْلِقْ بِذِى الصَّبرِأنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ۞ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا

لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان : فَوْتُ الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها ، وأشدُّ من المُصيبة سوءُ الخَلَف منها .

لبعضهم

وقالوا : صاحبُ الحاجة مَبْهوت ، وطلب الحوائج كلّها تعزير .

للحكماء

وقالت الحكماء : لا تطلب حاجتك من كذّاب ؛ فإنه يقرّبها بالقول ويُبعدها بالفعل ؛ ولا من أحمق ، يريد نفعَك فيضرّك ؛ ولا من رجل له أُكلة من جهة رجل ، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته .

لدعبل

وقال دعبل بن على الخُزاعى :

جِئْتُكَ مُسْتَرْفِداً بلا سَبَبٍ ۞ إليك إلا بحُرْمَةِ الأدَبِ
فاقْضِ ذِمامِى فإننى رَجُلٌ ۞ غيرُ مُلِحٍّ عليك فى الطَّلَبِ

لشبيب بن شيبة

وقال شَبيب بن شَيبة : إنى لأعرف أمراً لا يتلاقى به آثنان إلا وجب النُّجْحُ بينهما . قيل له : وماذاك ؟ قال : العقل : فإن العاقل لا يَسأل ما لا يُمكن ، ولا يَرُدُّ عما يُمكن .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

أَتيْتكَ لا أُدْلِى بقُـــرْبَى ولا يَدٍ ٭ إليْـــكَ سوى أنِّى بجودِكَ واثق
فإن تُولِنى عُرْفاً أَكُنْ لكَ شاكراً ٭ وإن قُلْت لى عُذْراً أَقُلْ أنتَ صادقُ

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

فإن تُولِنى منكَ الجميلَ فأهْلُه ٭ وإلا فإنِّى عاذرٌ وشَكُورُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

لعَمْرُكَ ما أَخْلَقْتُ وَجْهاً بَذَلْتُهُ ٭ إليكَ ولا عَرَضْتُهُ للْمَعَايِرِ
فتًى وفَّرَتْ أَيدِى المكارمِ عِرْضَهُ ٭ عليه وخلَّتْ مالَهُ غيرَ وَافِرِ

بين ابن واسع وأمير

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال : أتيتك فى حاجة فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين ، وإن شئتَ لم تَقضِها وكُنَّا لئيمين . أراد : إن قضيتَها كنتَ أنت كريما بقضائها وكنتُ أنا كريماً بسؤالك إياها ؛ لأنى وضعت الطَّلِبَةَ فى موضعها ؛ فإن لم تقضها كنتَ أنتَ لئيما بمنعك وكنت أنا لئيما بسوء اختيارى لك .

لحبيب

وسرق حبيب هذا المعنى فقال :

عَيَّـاشُ إنكَ لَلَّئِيمُ وإننى ٭ مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِى لَلَئيم

عبدالله بن طاهر وسوار القاضى

ودخل سوار القاضى على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال : أصلح الله الأمير :

لنا حاجة والعُذْرُ فيها مُقَـــدَّمٌ ٭ خفيفٌ مُعنَّاها مضاعفة الأجرِ
فإن تَقْضِها فالحمـــدُ للهِ وَحْدَهُ ٭ وإن عاقَ مَقْدُورٌ ففى أَوْسَعِ العُذْرِ

قال له : ما حاجتُك أبا عبد الله ؟ قال : كتابٌ لى : إن رأى الأميرُ أكرمه الله ـ أن يُنفذه فى خاصته ، كتب إلى موسى بن عبد الملك فى تعجيل

أرزاق . قال : أوَ غير ذلك أبا عبد الله ؟ نعجّلها لك من مالك ، وإذا وددت كنت مخيّراً بين أن تأخذ أو تردّ . فأنشد سَوّار يقول :

فَبَابُكَ أَيْمَنُ أَبْوَابِهِم ٭ ودَارُكَ مَأْهُولَةٌ عامِرَهْ
وكَفُّكَ حينَ تَرى المُجْتَدِ ٭ ينَ أَنْدَى من اللَّيْلَةِ الماطِرَهْ
وَكَلْبُكَ آنَسُ بالمُعْتَفِين ٭ من الأمِّ بابنتِها الزَّائِرَهْ

أبو حازم الأعرج وسلطان فى حاجة — ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال : أتيتك فى حاجة رفعتُها إلى الله قَبْلك ، فإن يأذن الله فى قضائها قضيتَها وحمدناك ، وإن لم يأذن فى قضائها لم تَقْضِها وعذرناك .

من الحديث — وفى بعض الحديث : أطلبوا الحوائج عند حِسانِ الوجوه .

للطائى — أخذه الطائى فنظمه فى شعره فقال :

قد تأوّلتُ فيك قولَ رسُول الله إذْ قالَ مُفْصِحاً إفصاحَا
إن طلبتم حوائجاً عند قومٍ ٭ فتَنَقَّوْا لها الوُجوهَ الصِّباحا
فلَعَمْرِى لقد تَنَقَّيْتُ وجْهًا ٭ مابِه خابَ من أرادَ النَّجاحا

بين المنصور وطالب حاجة — قال المنصور لرجل دخل عليه : سَل حاجتك فإنك لست تقدر على هذا المقام فى كل حين . قال : يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، ما أستقصر عمرَكَ ولا أخاف بخلك ، وإنّ عطاءك لشرف ، وإن سؤالك لزَيْن ، وما بآمرئ بذل إليك وجهه نَقْص ولا شَين . فوصله وأحسن إليه .

استنجاز المواعد

كلمات فى معنى هذا العنوان — من أمثالهم فى هذا : أنجزَ حُرٌّ ما وعَد.

وقالوا : وعْدُ الكريمِ نَقْد ، ووعدُ اللئيم تسويف .

للزهرى — وقال الزُّهرى : حقيق على من أورق بوعْدٍ أن يُثمر بفعل .

للمغيرة — وقال المغيرة : من أخر حاجة فقد ضَمِنها .

للموبذان — وقال الموبذان الفارسى : الوعد السحابة ، والإنجاز المطر .

لبعضهم
وقال غيره : المواعيد رءوس الحوائج والإنجاز أبدانها .

لابن عمر
وقال عبد الله بن عمر : خُلْفُ الوعدِ ثُلُثُ النفاق ، وصدق الوعد ثلثُ الإيمان ، وما ظنُّك بشيء جعله الله مِدْحةً فى كتابه ، وفخراً لأنبيائه ، فقال تعالى (واذْكُرْ فى الكتابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ) .

لجبار فى عامر ابن الطفيل
وذكر جبار بن سُلمى عامر بن الطُّفيل فقال : كان والله إذا وعد الخير وفى ، وإذا وعد الشر أخلف . وهو القائل :

ولا يَرْهَبُ ابنَ العَمِّ ماعشتُ صَوْلَتى ... ويأمن منى سَطوةَ المُتَهَدِّدِ
وإنى وإن أوْعَدْتُهُ أو وعَدْتُهُ ... ليَكذِبُ إيعادِى ويَصْدُقُ موعِدِى

لابن أبى حازم
وقال ابن أبى حازم :

إذا قلتَ فى شىء « نعم » فأتِمَّهُ ... فإنَّ « نعمْ » دَيْنٌ على الحرِّ واجبُ
وإلا فقُلْ « لا » تَسترِحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يقولَ الناسُ إنك كاذِبُ

ولو لم يكن فى خُلْف الوعد إلا قولُ الله عز وجل : (ياأيُّها الذِينَ آمنُوا لِمَ تقُولُونَ ما لاتفعَلونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أنْ تقُولوا مَالاتفعَلون) لكفى .

لعمر بن الحارث
وقال عمر بن الحارث : كانوا يفعلون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لايقولون ولا يفعلون ، فزعم أنهم ضَنُّوا بالكذب فضلا عن الصدق .

للحسن بن هانئ
وفى هذا المعنى يقول الحسن بن هانئ :

قالَ لِى تَرضَى بِوعْدٍ كاذِبٍ ؟ ... قلْتُ إنْ لم يَكُ شَحْمٌ فنفش[1]

لابن الأحنف
ومثله قول عباس بن الأحنف ، ويقال إنها لمسلم بن الوليد صريع الغوانى :

ماضَرَّ مَنْ شَغَلَ الفؤادَ بِبُخْلِهِ ... لو كانَ عَلَّلَنِى بِوَعْدٍ كاذِبِ
صبراً عليكَ فما أرى لى حِيلةً ... إلا التَّمَسُّكَ بالرجاءِ الخائبِ
سأموتُ من كمَدٍ وتَبْقَى حاجتى ... فيما لديكَ وما لها مِن طالبِ

(١) النفش : الصوف .

بين عبد الملك وابن أم الحكم

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان فى مواعيد وعدها إياه فمطَله بهـا : نحن إلى الفِعل أحوج منا إلى القول ، وأنت بالإنجاز أولى منك من المَطل ، وآعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد وآستتمامك المعروف .

بين عيسى بن موسى وابن معن

القاسم بن معن المسعودي قال : قلت لعيسى بن موسى : أيها الأمير ، ما انتفعتُ بك منذ عرفتك ، ولا أوصلت لى خيراً منذ صحبتُك . قال : ألم أكلِّم لك أميرَ المؤمنين فى كذا وأسأله لك كذا ؟ قال : قلت : بلى ، فهل استنجزتَ ما وعدت ، وآستتممت ما بدأت ؟ قال : حال من دون ذلك أمور قاطعة ، وأحوال عاذرة . قلت : أيها الأمير ، فما زدت على أنْ نَبهت العجز من رقدته ، وأثَرتَ الحزن من رَبْضَتِه ، إنّ الوعد إذا لم يشفعه إنجاز يحقِّقه ، كان كلفظ لا معنى له ، وجسم لاروح فيه .

عبد الصمد وابن ديسم

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى لخالد بن دَيسم عامل الرّى :

أخالدُ إن الريَّ قد أجحفَتْ بنا ٭ وضاقَ علَينا رحْبُهَا ومَعاشُهَا
وقد أطمَعَتْنا مِنْك يَوْمًا سحابَةٌ ٭ أضاءت لنا بَرقاً وأبطا رشاشها
فلا غيْمُها يَصْحُو فيُيْئِسَ طامِعاً ٭ ولا ماؤها يأتى فتروى عِطاشها

بين بشار وسلم

وقال سعيد بن سَلْم : وعد أبى بشارا العُقيلى حين مدحه بالقصيدة التى يقول فيها :

صَدَّتْ بخَدٍّ وجَلَتْ عن خدِّ ٭ ثم آنْثَنتْ كالنَّفسِ المُرْتَدِّ

فكتب إليه بشارٌ بالغد :

مازالَ مامَنَّيْتَنِي مِنْ هَمِّي ٭ الوعْدُ غمٌّ فأرِحْ مِنْ غَمِّي
٭ إن لم تُرِدْ مَدْحِي فَرَاقِبْ ذَمِّي ٭

فقال له أبى : يا أبا مُعاذ ، هلاّ استنجزتَ الحاجة بدون الوعيد ! فإذا لم تفعل فتربَّصْ ثلاثا وثلاثا ؛ فإنى والله مارضيتُ بالوعد حتى سمعتُ الأبرشَ الكَلبى يقول لهشـام : يا أمير المؤمنين ؛ لا تَصنع إلىّ معروفا حتى تَعِدنى ؛ فإنه لم يأتنى منك سَيْب على غير وعد إلا هان علىّ قدرُه وقلّ منى شُكره . فقال له هشام : لئن قلت

ذلك لقد قاله سيدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلانى : « إن أوقع المعروف فى القُلوب ، وأبردَه على الأكباد مَعروف منتظَر ، بوعد لا يكدّره المَطْل » .

يحيى بن خالد وقضاء الحوائج

وكان يحيى بن خالد بن برمك لا يقضى حاجة إلا بوعد ، ويقول : من لم يَبِتْ على سرور الوَعد لم يجد للصنيعة طعما .

لبعضهم

وقالوا : الخُلف ألأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذمُّ اللؤم وحده ، ومن وَعد وأخلف لزمه ثلاث مَذَمَّات : ذمّ اللؤم ، وذمّ الخلف ، وذمّ الكذب .

لزياد الأعجم

وقال زياد الأعجم :

لِلّهِ دَرُّكَ مِن فَتًى ‏ * ‏ لو كنتَ تَفْعَلُ ما تَقُولْ

لا خيرَ فى كذب الجوَا ‏ * ‏ دِ وحبّذا صِدْقُ البخيلْ

بين الحسن بن وهب وحبيب

استبطأ حبيبُ الطائى الحسنَ بن وهب فى عِدَةٍ وعدها إياه ، فكتب إليه أبياتا يستعجله بها : فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه :

أعجَلْتَنا فأتاكَ عاجِلُ بِرّنا ‏ * ‏ قلاًّ ولو أخّرْتَهُ لم يَقْلِلِ

فخُذِ القليلَ وكنْ كَمَنْ لم يَسْألِ ‏ * ‏ ونكون نحنُ كأننا لم نَفْعلِ

ابن دأب عند المهدى

وقال عبد الملك بن مالك الخزاعى : دخلت على أمير المؤمنين المهدى وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ :

وأشعث قد قَدّ السفارُ قميصَهُ ‏ * ‏ يَجُرُّ شِواءً بالعَصا غيرَ مُنْضَجِ

دَعَوْتُ إلى ما نابَنى فأجابَنى ‏ * ‏ كَريمٌ من الفتيانِ غيرُ مُزَلَّجِ

فتى يُمرئُ الشّيزَى ويُرْوِى سِنانَه ‏ * ‏ ويَضْربُ فى رأسِ الكَمِىِّ المُدَجَّجِ

فتًى ليس بالرّاضى بأدنى معيشةٍ ‏ * ‏ ولا فى بُيُوتِ الحىّ بالمُتَوَلِّجِ

فرفع المهدىُّ رأسه إلىّ وقال : هذه صفتك أبا العباس . فقلت : بك نلتُها يا أمير المؤمنين . قال : فأنشدنى . فأنشدته قول السموءل :

إذا المرءُ لم يدْنَسْ منَ اللُّؤم عِرْضُه ‏ * ‏ فكلُّ رداءٍ يرْتَديه جَميلُ

وإنْ هو لم يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ٭ فليْس إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبيلُ
إذا المرء أعْيَتْهُ المروءة يافعاً ٭ فَطَلَبُها كَهْـلاً عليه ثَقيلُ
تُعَيِّرُنا أنَّا قليلٌ عِدادُنا ٭ فقُلْتُ لها إنَّ الكِرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنَّا قليـلٌ وجارُنا ٭ عَزيزٌ وجارُ الأكثَرين ذَليلُ
ونحْنُ أُناسٌ لا نَرى القَتْلَ سُبَّةً ٭ إذا ما رأتْهُ عامِرٌ وسَـلولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنـا لنـا ٭ وتَـكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُـولُ
وما ماتَ منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أنْفِه ٭ ولا طُلَّ منا حيثُ كانَ قتيلُ
تَسيلُ على حَدِّ السُّيوفِ نُفوسُنا ٭ وليْستْ على غيْرِ السُّيُوفِ تَسيلُ
ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا على الناسِ قوْلَهُمْ ٭ ولا يُنْكِرونَ القولَ حين نقولُ
فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا ٭ كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيـلُ
وأسْيافُنا في كلِّ شَرْقٍ ومغرِبٍ ٭ بها مِنْ قِراعِ الدارِعِينَ فُلولُ

فقال : أحسنت ، اجلس ، بهذا بلغتُم ، سلْ حاجتك . قلت : يا أمير المؤمنين ، تكتب لى العطاء ثلاثين رجلا من أهلى . قال : نعم ، علىّ إذا وعدتُ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنك متمكّن من القُدرة وليس دونك حاجز عن الفعل ؛ فما معنى العِدة ؟ فنظر إلى ابن دأب كأنه يريد منه كلاماً فى فضل الموعد ، فقال ابن دأب :

حلاوةُ الفِعْلِ بوَعْدٍ يُنْجَزُ ٭ لاخيْرَ فى العُرْفِ كنَهْبٍ يُنْهَزُ

فضحك المهدى وقال :

الفعْـل أحسنُ ما يكو ٭ نُ إذا تقدَّمَهُ ضَمانُ

للمهلب يوصى بنيه

وقال المهلب بن أبى صفرة لبنيه : يا بَنِىّ ، إذا غدا عليكم الرجل وراح مُسَلِّما فكفى بذلك تقاضيا .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

أرُوحُ بتَسْليمى عليكَ وأغْتَدى ٭ وحسبُكَ بالتَّسْليمِ مِنِّى تقاضيا

وقال آخر :

كفاكَ مُخَبِّرًا وجْهِى بشَانى * وحسبُكَ أنْ أراكَ وأن ترانى

وما ظَنّى بمن يعنيه أمْرِى * ويعْلَمُ حاجتى ويَرى مكانى

العتابى

كتب العتابى إلى بعض أهل السلطان : أما بعد ؛ فإن سحاب وعدك قد أبرقت ، فليكن وبلها سالما من علل المَطْل . والسلام .

للجاحظ

وكتب الجاحظ إلى رجل وعَده : أما بعدُ فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن ثمرُها سالما من جوائح المَطْل . والسلام .

عبد الله بن طاهر ودعبل

ووَعَدَ عبد الله بن طاهر دِعْبلا بغلام ، فلما طال عليه تَصَدَّى له يوما وقد ركب إلى باب الخاصّة ، فلما رآه قال : أسأت الاقتضاء ، وجهلت المأخذ ، ولم تُحْسن النظر ، ونحن أولى بالفضل ؛ فلك الغلام والدابة متى ننزل إن شاء الله تعالى . فأخذ بعنانه دعبل وأنشده :

يا جَوادَ اللّسانِ مِنْ غيرِ فعْلٍ * ليْتَ فى راحتيْكَ جُودَ اللّسانِ

عيْنَ مِهْرانَ قد لطَمْتَ مِرارًا * فاتقِ ذا الجــلالِ فى مِهْران

عُرْتَ عيناً فدَعْ لمِهْرانَ عيناً * لا تَدَعْهُ يطوف فى العُمْيانِ

قال : فنزل له عن دابته ، وأمر له بالغلام .

أبان وخلف ابن خليفة

وسأل خلف بن خليفة أبَانَ بن الوليد جارية ، فوعده بها وأبطأت عليه ، فكتب إليه :

أرى حاجتى عِند الأميرِ كأنّها * تَهُمُّ زماناً عنــدَهُ بمُقام

وأحصَرُ من إذْكارِهِ إن لقِيتُه * وصدق الحياء مُلْجِمٌ بلِجامِ

أراها إذا كانَ النهارُ نَسيئةً * وباللّيلِ تُقْضَى عنْدَ كُلّ مَنامِ

فيارَبّ أخْرِجْها فإنك مُخْرِجٌ * مِنَ المَيْتِ حَيًّا مُفْصِحاً بكلامِ

فتَعلَمَ ما شُكْرى إذا ما قضَيْتَها * وكيْفَ صَلاتى عنْدَها وصيامى

لأبي العتاهية

وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بعِدَة ومَطَله بها :

لا يَجعلَ اللهُ لى إليكَ ولا * عندَكَ ما عِشتُ حاجةً أبدَا
ما جئتُ فى حاجةٍ أُسَرُّ بهـا * إلا تثاقلتَ ثمَّ قُلتَ غَــدَا

لدعبل

وكتب دعبل إلى رجل وعده وعداً وأخلفه :

أحسِبْتَ أرضَ اللهِ ضَيِّقَةً * عَنى فأَرْضُ الله لم تَضِقِ
وجعلتَنِي فَقْعاً بِقَرْقَرَةٍ * فوَطِئْتَنى وطْئاً على حَنَقِ
فإذا سألتكَ حاجة أبداً * فاضْرِبْ بها قُفْلاً على غَلَقِ
وأعِــدَّ لى غُلاً وجامِعةً * فاجْمَعْ يَدَىَّ بهـا إلى عُنُقِى
ما أطولَ الدُّنيا وأوْسَعَها * وأدلَّنى بمَسالِكِ الطُّرُقِ

لابن عبدربه

ومن قولنا فى رجل كتب إلىّ بِعِدَةٍ فى صحيفة ومطلنى بها :

صَحِيفَـةٌ طابَعُهـا اللُّومُ * عُنْوانُهـا بالجَهْـلِ مَختومُ
يُهدَى لها والخُلْفُ فى طَيِّها * والمَطْلُ والتَّسْويفُ واللُّومُ
مَن وجهُه نحْسٌ ومَن قُرْبُهُ * رِجْسٌ ومَنْ عِرْفانُهُ شُومُ
لا تهتَضِمْ إنْ بِتَّ ضَيْفاً لهُ * فخُبْزُهُ فى الجَوْفِ هاضُومُ
تَكْلِمُهُ الألحاظ مِنْ رِقَّةٍ * فهو بِلَحْظِ العيْنِ مَكْلُومُ
لا تَأْتَدِمْ شيئاً على أكْلِه * فإنه بالجوعِ مَــأْدومُ

وقلت فيه :

صحيفةٌ كُتِبَتْ ليْتٌ بهـا وعسى * عُنْوانُها راحةُ الرَّاجى إذا يئسا
وعدٌ له هاجِسٌ فى القلبِ قد بَرِمَتْ * أحْشاءُ صدرى به مِن طولِ ما هَجَسا
بَراعةٌ غَرَّنى منهـا ومِيضُ سنى * حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتَبِسا
فصادَفَتْ حَجَراً لو كنتَ تَضْرِبُهُ * مِن لُؤْمِه بعصا موسى لمـا انْبَجَسا
كأنما صِيغَ مِنْ بُخْلٍ ومِن كَذِبٍ * فكان ذاكَ له روحاً وذا نَفَسا

وقلت فيه :

رجاءٌ دون أقربِه السَّحابُ ☆ ووعْدٌ مثلَ ما لَمَعَ السرابُ
وتَسْويفٌ يَكِلُّ الصبرُ عنه ☆ ومَطْلٌ ما يقومُ له حِسابُ
وأيام خلت من كل خير ☆ ودنيا قد تَوَزَّعها الكلاب

لطيف الاستمناح

الحكماء

قالت الحكماء : لطيف الاستمناح سبب النجاح ، والأنفس ربما انطلقت وانشرحتْ بلطيف السؤال ، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل ؛ كما قال الشاعر :

وجفَوْتَني فقطَعْتُ عنك فوائدى ☆ كالدَّرِّ يَقْطَعُه جَفاء الحالِب

العتابي

وقال العتابي : إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان فأجمل فى الطلب إليه ، وإياك والإلحاحَ عليه ؛ فإنّ إلحاحك يَكْلِمُ عِرْضَكَ ويُريق ماء وجهك ، فلا تأخذُ منه عِوَضا لما يأخذ منك ؛ ولعلّ الإلحاح يجمع عليك إخلاقَ ماءِ الوجه ، وحرمانَ النجاح ؛ فإنه ربما مَلَّ المطلوبُ إليه حتى يستخف بالطالب .

الحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

تأنَّ مواعيــدَ الكرامِ فرُبَّما ☆ حملْتَ من الإلحاحِ سَمْحاً على بُخْلِ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

إنْ كنت طالبَ حاجةٍ فتجمَّلِ ☆ فيها بأحسنِ ما طَلَبْتَ وأجْمِلِ
إنَّ الكريمَ أخا المروءة والنُّهَى ☆ مَنْ ليس فى حاجاته بِمُثَقِّلِ

بين مروان ابن أبي حفصة وابن يزيد

وقال مروان بن أبى حفصة : لقيت يزيد بن مَزْيد وهو خارج من عند المهدى فأخذت بعنان دابّته وقلت له : إنى قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف . قال : هاتِ لله أبوك . فأنشأت أقول :

يا أكرم الناس من عُجْم ومن عرب ☆ بعد الخليفة يا ضرغامة العرب
أفنيت مالك تعطيــه وتُنْهِبه ☆ يا آفة الفضة البيضاء والذهب
إن السنان وحَدَّ السيف لو نطقا ☆ لأخْبرا عنك فى الهيجاء بالعجب

عبد الملك ونفر من بني أمية

المدائني قال : قَدم قوم من بني أُمية على عبد الملك بن مروان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، نحن من تعرف ، وحقُّنا ما لا يُنكر ، وجئناك من بعيد ، ونمُتُّ بقريب ، ومهما تُعطنا فنحن أهلُه .

الرشيد وعبد الملك ابن صالح

دخل عبدُ الملك بن صالح على الرشيد فقال : أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة ؟ قال : بل بالقرابة والخاصة . قال : يداك يا أمير المؤمنين أطْلَقُ من لساني بالمسألة ، فأعطاه وأجزل له .

عبد الملك وأبو الريان

ودخل أبو الرّيان على عبد الملك بن مروان ، وكان عنده أثيراً ، فرآه خائراً ، فقال : يا أبا الريّان ، مالك خائرا ؟ قال : أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قال : نُسْأل ما لا نقدر عليه ونَعتذر فلا نُعْذَر . قال عبد الملك : ما أحسنَ ما اسْتَمْنَحْتَ واعْتَرَرْتَ[1] يا أبا الريّان . أعطوه كذا وكذا .

الحجاج والشعبي

العتّابي قال : كتب الشّعبي إلى الحجاج يسأله حاجة ، فاعتل عليه ، فكتب إليه الشّعبي : والله لا عَذَرْتُك وأنت والي العراقين وابنُ عظيم القَريتين . فقضى حاجته . وكان جدّ الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي .

معاوية وابن زرارة

العتبي قال : قدم عبد العزيز بنُ زرارة الكلابي على أمير المؤمنين معاوية فقال : إني لم أزل أهزّ ذوائب الرّحال إليك ، فلم أجد مُعَوَّلا إلا عليك ، أمتطي الليل بعد النهار ، وأسِمُ المجاهلَ بالآثار ، يقودني إليك أملٌ ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يُعذر ، وإذا بلغتك فَقَطْني . فقال : احطط عن راحلتك .

يزيد بن المهلب وكريز

ودخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال : أصلح الله الأمير ، أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك ، ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغُر عنك وأنتَ أكبرُ منه ، ولا العجب أن تفعل ، ولكن العجب ألاّ تفعل . قال : سل حاجتك . قال : حملت عن عشيرتي عَشْر ديات . قال : قد أمرتُ لك بها وشفعتُها بمثلها .

---

(١) اعترّ : أتاه طالباً معروفه .

حاتم الطائي وسائل حاجة

العتبي عن أبيه قال : أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال : إنها وقعت بيني وبين قوم ديات ، فاحتملتها في مالي وأملي ، فعدِمْتُ مالي وكنتَ أملي ، فإن تحملها عني فرُبَّ همّ قد فرجتَه ، وغمّ كفيتَه ، ودين قضيتَه ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك ، ولم أيأس من غدِك . فحملها عنه .

خالد القسري وسائل

المدائني قال : سأل رجل خالداً القسري حاجة ، فاعتل عليه ، فقال له : لقد سألتُ الأمير من غير حاجة . قال : وما دعاك إلى ذلك ؟ قال : رأيتك تُحب مَن لك عنده حُسْنُ بَلاء ، فأردتُ أن أتعلّق منك بحبل مودة . فوصله وحباه وأدْنَى مكانَه .

المنصور والهجري

الأصمعيّ قال : دخل أبو بكر الهَجريّ على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين نَغَضَ فمي ، وأنتم أهلَ البيت بركة ، فلو أذِنْتَ لي فقبّلتُ رأسك لعل الله يُشدّد لي منه ! قال : اختر منها أو من الجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين . أهونُ عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألّا تبقى حاكّة في فمي . فضحك المنصور وأمر له بجائزة .

أبو دلف وجار له

وذكروا أن جاراً لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دَين فادح ، حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم ألفي دينار ؛ فقالوا له : إنّ دارك تساوي خمسمائة . قال : وجِوارى من أبي دُلف بألف وخمسمائة ! فبلغ أبا دلف ؛ فأمر بقضاء دينه وقال له : لا تَبِعْ دارَك ولا تَنتقل من جوارنا .

قيس بن سعد وامرأة

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت : أشكو إليك قلة الجِرْذان . قال : ما أحسن هذه الكِناية ! املأوا لها بيتها خُبزاً ولحماً وسمنا .

المنصور وأزهر السمان

إبراهيم بن أحمد عن الشّيباني قال : كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستترا ، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث ، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر ، فرحّب به وقرّبه ، وقال له : ما حاجتك يا أزهر ؟ قال : داري متهدمة ، وعليّ أربعة آلاف درهم ، وأريد لو أن ابني محمداً بَنَى بعِياله . فوصله باثني عشر ألفا ، وقال : قد قضينا حاجتك يا أزهر ؛ فلا تأتنا طالبا . فأخذها وارتحل . فلما كان بعد سنة أتاه ، فلما رآه أبو جعفر قال :

ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : جئتك مسلما . قال : إنه يقع فى خَلَد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً . قال : ما جئت إلا مسلّما . قال : قد أمرنا لك باثنى عشر ألفا ، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلّما . فأخذها ومضى ؛ فلما كان بعد سنة أتاه ، فقال : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : أتيت عائداً ، قال : إنه يقع فى خلدى أنك جئت طالباً . قال : ما جئتُ إلا عائداً . قال : قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً ، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلما ولا عائداً . فأخذها وانصرف ؛ فلما مضت السنة أقبل ، فقاله له : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : دعاء كنتُ أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين ، جئت لأكتبه . فضحك أبو جعفر وقال : إنه دعاء غير مُستجاب ، وذلك أنى قد دعوت الله به ألا أراك فلم يَسْتَجِبْ لى ، وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا وتعال متى شئت ، فقد أعْيَتْنى فيك الحيلة .

ابن المهلب وأعرابى

أقبل أعرابى إلى داود بن المهلب فقال له . إنى مدحتك فاستمع . قال : على رِسْلِك ! ثم دخل بيته وتقلّد سيفه وخرج ، فقال : قُل ، فإن أحسنتَ حكّمناك ، وإن أسأت قتلناك ! فأنشأ يقول :

أمِنْتُ بِداودٍ وجودِ يَمِينِــــهِ * من الحَدَثِ المخشِىِّ والبُؤْسِ والفقْرِ
فأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبْوَةً * منَ الحدَثانِ إذْ شَدَدْتُ به أَزْرِى
له حُكْمُ لُقمانٍ وصورَةُ يوسُفٍ * وحُكْمُ سُلَيْمانٍ وعَدْلُ أبِى بكْرِ
فتًى تَفْرَقُ الأموالُ من جُودِ كَفِّه * كما يَفْرَقُ الشيطانُ من لَيْلةِ القدرِ

فقال : قد حكمناك ؛ فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألفا ، فقال له جلساؤه : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك فى ماله ما يفى بقدْرِه ! قال له داود : أنت فى هذه أشعرُ منك فى شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

الرشيد وإسحاق الموصلى

الأصمعى قال : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأنشده :

وآمِرَةٍ بالبُخلِ قلتُ لها اقصرى * فليس إلى ما تأمُرينَ سـبيلُ

فِعَالى فعَالُ المُكْثِرِينَ تَجمُّلاً * ومالى كما قد تَعلَمِينَ قليلُ
فكيفَ أخافُ الفقرَ أو أُحْرَمُ الغِنَى * ورأىُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

فقال له الرشيد : لله دَرُّ أبيات تأتينا بها ! ما أحسنَ أصولها وأبْيَنَ فصولها، وأقل فضولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال : والله لا أخذت منها درهما واحدا ! قال : ولم ؟ قال : لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خيرٌ من شعرى ! قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعى : فعلمت والله أنه أصْيَدُ لدراهم الملوك منى .

معاوية وزيد ابن منية

العتبى عن أبيه قال : قدم زيد بن مُنية من البصرة على معاوية ، وهو أخو يعلى بن مُنية صاحب الجمل ؛ جمل عائشة رضى الله عنها ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ؛ وكانت ابنة يعلى عند عتبة بن أبى سفيان ؛ فلما دخل على معاوية شكا دَيْنَه ، فقال : يا كعب ، أعطه ثلاثين ألفا . فلما ولَّى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الْحَقْ بصهرك - يعنى عُتبة - فقدم عليه مصر . فقال : إنى سرت إليك شهرين ، أخوض فيهما المتالف ، ألبس أردية الليل مَرَّة ، وأخوض فى لُجَج السراب أخرى ، مُوقَراً من حُسن الظن بك ، وهارباً من دهر قَطِم ، ومن دين لَزِم ، بعد غِنًى جدَعْنا به أنوفَ الحاسدين . فقال عتبة : إن الدهر أعاركم غنى ، وخلطكم بنا . ثم استردّ ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضَيْعَةَ معه ، وأنا رافع يدى ويدك بيد الله ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ابن سويد وأبو ساسان

إبراهيم الشيبانى قال : قال عبد الله بن على بن سُويد بن مَنْجوف : أعدَمَ أبى إعدامةً بالبصرة وأنفضَ ، فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلا . فبينا هو يشكو تعزُّر الأشياء عليه ، إذ عدا غلامُه على كسوته وبغلته فذهب بهما . فأتى أبا ساسان حُضين بن المُنذر الرقاشى فشكا إليه حاله ، فقال له : والله يابن أخى ، ما عمُّك ممن يحمل محاملَك ، ولعلى أن أحتال لك . فدعا بكسوة حسنة فألبسنى إياها ، ثم قال : امض بنا . فأتى باب والى خراسان ، فدخل وتركنى بالباب ، فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال : أين علىّ بن سُويد ؟ فدخلت إلى الوالى ، فإذا حُضين

على فراش إلى جانبه ، فسلمت على الوالى فردّ علىّ ، ثم أقبل عليه حُضين فقال : أصلح الله الأمير ، هذا على بن سُويد بن مَنجوف ، سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها ، وأكثر الناس مالا حاضراً بالبصرة وفى كل موضعٍ ملكتْ به بكرُ ابن وائل مالا ، وقد تحمّل بى إلى الأمير فى حاجة . قال : هى مقضية . قال : فإنه يسألك أن تمُدّ يدك فى ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت . قال : لا والله لا أفعل ذلك به ، نحن أولى بزيادته . قال : فقد أعفيناك من هذه إذْ كرهتَها ، فهو يسألك أن تحمّله حوائجك بالبصرة . قال : إن كانت حاجة فهو فيها ثقة ، ولكن أسألك أن تكلّمه فى قبول معونة منا ؛ فإنا نحب أن يُرَى على مثله من أثرنا . فأقبل علىّ فقال : يا أبا الحسن ، عزمتُ عليك ألّا تردّ على عمّك شيئاً أكرمك به . فسكتُّ . قال : فدعا لى بمال ودوابّ وكساً ورقيق ، فلما خرجت قلت : أبا ساسان ، لقد أوقفتنى على خطة ما وقفتُ على مثلها قط . قال : اذهب إليك يابن أخى ، فعمُّك أعلم بالناس منك : إن الناس إن علموا لك غِرارةً من مال حَشَوْا لك أخرى وإن يعلموك فقيراً تعدّوا عليك مع فقرك .

المهدى وأبو دلامة

إبراهيم الشيبانى قال : ولد لأبى دلامة ابنة ليلا ، فأوقد السّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق ، فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدى فاستأذن عليه ، وكان لا يحجب عليه ، فأنشده :

لو كان يقعُدُ فوقَ الشمسِ من كَرَمٍ * قومٌ لقِيلَ اقْعُدوا يا آل عبّاسِ
ثم آرتَقوا من شُعاع الشمس فى دَرَجٍ * إلى السماء فأنتمْ أكرَمُ الناسِ

قال له المهدى : أحسنت والله أبا دلامة ، فما الذى غدا بك إلينا ؟ قال : وُلدت لى جارية يا أمير المؤمنين . قال : فهل قلت فيها شعرا ؟ قال : نعم قلت :

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكنْ قد تَضُمُّكِ أمُّ سَوْءٍ * إلى لَبّاتِها وأبٌ لئيمُ

قال فضحك المهدى وقال : فما تريد أن أعينك به فى تربيتها أبا دلامة ؟ قال : تملأ هذه يا أمير المؤمنين . وأشار إليه بالخريطةِ بين إصبعيه . فقال المهدى :

وما عسى أن تحمل هـذه ؟ قال : من لم يقنع بالقليـل لم يقنع بالكثير . فأمر أن تُملأ مالا ، فلما نُشرت أخذتْ عليهم صحنَ الدار ، فدخل فيها أربعة آلاف درهم .

وكان المهدى قد كسا أبا دلامة ساجا ، فأُخذ به وهو سكران ، فأُتى به إلى المهدى ؛ فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يحبس فى بيت الدّجاج ؛ فلما كان فى بعض الليل وصحا أبو دلامة من سُكره ورأى نفسه بين الدّجاج ، صاح : يا صاحب البيت ! فاستجاب له السجان ، قال : مالك ياعدو الله ؟ قال : ويْلَك ! من أدخلنى مع الدّجاج ؟ قال : أعمالك الخبيثة ! أُتى بك أميرُ المؤمنين وأنت سكران ، فأمر بتمزيق ساجك وحبْسِك مع الدّجاج . قال له : ويلك ! أوَ تقدر على أن تُوقد لى سراجا وتجيئنى بدواة وورق ولك سَلَبى هـذا . فأتاه بدواة وورق ؛ فكتب أبو دُلامه إلى المهدىّ :

أَمِن صهْباء صافيـةِ المِزاج ٭ كأنّ شعاعَها لهبُ السّراجِ
تَهَشُّ لهـا النفوسُ وتشتهيها ٭ إذا بَرَزت تَرقرقُ فى الزُّجاجِ
وقد طبخت بنـار الله حتى ٭ لقد صارت من النُّطف النِّضاجِ
أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسى ٭ علامَ حبستَنِى وخرقت ساجى
أُقادُ إلى السجونِ بغير ذنب ٭ كأنى بعضُ عُمـال الخَراجِ
ولو معهم حُبستُ لهانَ وجدى[1] ٭ ولكنى حُبستُ مع الدَّجاجِ
دَجاجات يُطيفُ بِهنّ ديك ٭ يُنادى بالصياح إذا يُناجى
وقد كانت تُخبّرُنى ذنوبى ٭ بأنى مِن عذابك غيرُ ناجى
على أنى وإن لاقيتُ شرًّا ٭ لخيْرِك بعد ذاك الشرّ راجى

ثم قال أوصِلها إلى أمير المؤمنين . فأوصلها إليه السجّان ، فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخله عليه ، فقال له : أين بت الليلة أبا دُلامة ؟ قال : مع الدجاج يا أمير المؤمنين . قال : فمـا كنتَ تصنع ؟ قال : كنت أُقاقى معهن حتى أصبحْت . فضحك المهدى

(١) فى بعض الاصول « ذاكم » .

وأمر له بصلة جزيلة ، وخلع عليه كسوة شريفة .

بين أبي دلامة وعيسى بن موسى

وكتب أبو دُلامة إلى عيسى بن موسى وهو والى الكوفة رُقعة فيها هذه الأبيات :

إذا جئت الأميرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرَّحيمِ
فأما بعدَ ذاك فلِى غريمٌ * من الأنصارِ قُبِّحَ منْ غريمِ
لَزومٌ ما علِمتُ لِبابِ دارى * لُزُومَ الكلبِ أصحاب الرَّقيمِ
له مِائةٌ علىَّ ونِصفُ أُخْرَى * ونِصفُ النصفِ فى صكٍّ قديم
دراهِمُ ما انتفعْتُ بها ولكن * وَصَلْتُ بها شُيوخَ بنى تميمِ
أتونى بالعشيرة يسألونى * ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

قال : فبعث إليه بمائة ألف درهم .

أبو دلف وأبو دلامة

ولقى أبو دُلامة أبا دُلف فى مَصادٍ له وهو والى العراق ، فأخذ بعِنان فرسه وأنشده :

إنى حَلفْتُ لئِنْ رأيتُكَ سالمًا * بقُرَى العراقِ وأنتَ ذُو وَفْرِ
لتُصَلِّيَنَّ عَلى النبىِّ مُحمَّدٍ * ولتَملأنَّ دراهماً حِجْرِى

فقال : أمّا الصلاة على النبىّ فنعم ، صلى الله عليه وسلم . وأما الدراهم ، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى . قال له : جُعلتُ فِداك . لا تَفْرِق بينهما . فاستلفها له وصُبّت فى حِجره حتى أثقلته .

أبو دلامة والمهدى

ودخل أبو دُلامة على المهدى ، فأنشده أبياتاً أعجب بها ، فقال له : سَلْنى أبا دُلامة واحتكم وأفرِط ما شئت . فقال : كَلبٌ يا أمير المؤمنين أصطاد به . قال : قد أمرنا لك بكَلب ، وهاهنا بلغت همتك ، وإلى هاهنا انتهت أُمنيتك ؟ قال : لا تعجَل علىّ يا أمير المؤمنين ، فإنه بقى علىّ . قال : وما بقى عليك ؟ قال : غلامٌ يقود الكلب . قال : وغلام يقود الكَلب . قال : وخادِم يَطبخ الصَّيد . قال : وخادم يطبخ الصيد . قال : ودار تَسكنها . قال : ودار تَسكنها . قال : وجارية تأوى إليها .

قال : وجارية تأوى إليها . قال : قد بقى الآن المعاش . قال : قد أقطعناك ألفى جريب عامرة وألفى جريب غامرة . قال : وما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال : التى لا تَعْمُر . قال : أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من فيافى بنى أسد . قال : قد جعلتُها كلَّها لك عامرة . قال : فيأذن لى أمير المؤمنين فى تقبيل يده ؟ قال : أما هذه فدعها . قال : ما منعتَنى شيئاً أيسرَ على أمّ ولدى فقداً منه .

أبو دلامة والمنصور

ودخل أبو دُلامة على أبى جعفر المَنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة ، وكان قد أخذ أصحابَه بلباسها وأخذهم بلُبس دراريع ، عليها مكتوب بين كتفى الرجل : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم . فدخل عليه أبو دُلامة فى ذلك الزّىّ ، فقال له : كيف أصبحت آبا دُلامة ؟ قال : بِشَرّ حال يا أمير المؤمنين . قال : كيف ذلك ؟ ويلك . قال : وما ظنُّك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهُه فى وسطه ، وسيفُه على اسْتِه ، وقد نَبَذ كتاب الله وراء ظهره ؟ قال : فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك ، وأمر لأبى دُلامة بصلة .

هو والمنصور أيضاً

وأوصل أبو دُلامة إلى العبّاس بن منصور رقعةً فيها هذه الأبيات :

قِفْ بالديار وأىَّ الدهرِ لم تَقِفِ * على منازلَ بينَ النَّهْلِ والنجفِ
وما وُقوفُكَ فى أطْلال منزلة * لولا الذى استحدثتْ فى قلبكَ الكَلِفِ
إنْ كنتَ أصبَحْتَ مشْغوفاً بجاريَةٍ * فلا وربِّكَ لا يشفيكَ من شَغَفِ
ولا يَزِيدُكَ إلا العَلَّ مِن أسَفٍ * فهل لقلبِكَ مِن صبْرٍ على الأسفِ
هذى مقالةُ شَيْخٍ مِنْ بنى أسدٍ * يُهدِى السَّلامَ إلى العبّاسِ فى الصُّحُفِ
تَخُطُّها من جوارى المصْرِ كاتبةٌ * قد طالما ضُرِبت فى اللام والألفِ
وطالما اختلَفَتْ صَيْفاً وشاتِيَةً * إلى مُعَلِّمِها باللَّوْحِ والكَتِفِ
حتى إذا ما استوَى الثَّدْيانِ وامْتلأت * منها وخِيفَتْ على الإسرافِ والقَرَفِ
صِينَتْ ثلاثَ سِنِين ما ترَى أحداً * كما تُصانُ بِبَحْرٍ دُرَّةُ الصَّدَفِ

بينا الفتى يَتَمَشّى نحوَ مَسْجِدِهِ * مُبادِراً لِصلاةِ الصُّبْحِ بالسُّدَفِ
حانتْ لهُ نَظْرَةٌ منها فأبصَرَها * مُطِلّةً بين سِجْفَيْها مِنَ الغُرَفِ
فَخَرَّ في التُّرْبِ ما يَدْرِي غَداتَئِذٍ * أَخَرَّ مُنْكَشِفاً أو غيرَ مُنْكَشِفِ
وجاءهُ القَوْمُ أفواجاً بمائِهِمُ * لِيَنْضَحُوا الرجُلَ المَغْشِيَّ بالنطَفِ
فوَسْوَسُوا بِقُرْآنٍ في مَسَامِعِهِ * خوفاً من الجنّ والإنسان لم يَخَفِ...
... شيئاً ، ولكنه مِنْ حُبِّ جاريةٍ * أمْسَى وأصبح منْ موْتٍ على شرفِ
قالوا لك الخيْرُ ما أبصرتَ قلتُ لهم * جِنّيَّةٌ أقصَدَتْنِي من بني خَلَفِ
أبصرْتُ جاريةً مَحْجوبةً لهمُ * تطلّعَتْ من أعالي القصرِ ذي الشُّرَفِ
فقلت : أيُّكُمُ واللهُ يأجُرُهُ * يُعيرُ قُوَّتَهُ منّي إلى ضَعَفِ
فقامَ شَيْخٌ بَهِيٌّ مِنْ تِجارِهِمُ * قد طالَما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِفِ
فابتاعَها لي بألْفَيْ أَحْمَرٍ فَغَدَا * بها إليَّ فألقاها على كَتِفِي
فبِتُّ ألثِمها طوْراً وتلثِمُني * طوْراً ونفعلُ بعضَ الشيءِ في اللُّحُفِ
بِتْنا كذلك حتى جاءَ صاحِبُها * يَبْغِي الدنانيرَ بالميزان ذي الكِفَفِ
وذاك حقٌّ على « زَنْدٍ » وكيف بِهِ * والحقُّ في طرفٍ والعينُ في طرف
وبين ذاك شهودٌ لم أُبالِ بهِمْ * أكُنْتُ مُعْتَرِفاً أم غيرَ مُعْتَرِفِ
فإنْ تَصِلْني قَضَيْتُ القومَ حَقَّهُمُ * وإن تَقُلْ لا فَحَقُّ القوم في تَلَفِ

فلما قرأ العباس الأبيات أُعجِب بها واستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية . واسم أبي دلامة زَنْد .

جعفر بن يحيى وعبد الملك بن صالح

إبراهيم بن المهدي قال : قال لي جعفر بن يحيى يوماً : إني استأذنت أمير المؤمنين في الحِجامة وأردتُ أن أخلوَ وأفِرَّ من أشغال الناس وأتَرَوَّح ، فهل أنت مساعدي قلت : جعلني الله فِداك ، أنا أسعد الناس بمساعدتك وآنَسُ بمُخالاتك . قال : بكِّرْ إليَّ بُكُور الغراب . قال فأتيت عند الفجر الثاني ، فوجدت الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعد ينتظرني للميعاد . قال فصلينا ثم أفضْنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة

فأُتى بحَجّام فحجَّمنا فى ساعة واحدة ، ثم قُدِّم إلينا طعامٌ فطَعِمْنا ، فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المُنادمة ، وضُمّخنا بالخَلُوق ، وظَلِلنا بأسَرِّ يومٍ مرَّ بنا ، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب . فقال : إذا جاء عبد الملك القَهرمانى فأذنْ له . فنسى الحاجب . وجاء عبدُ الملك بن صالح الهاشمى على جلالته وسنّه وقَدره وأدبه ، فأذِن له الحاجب . فما راعنا إلا طالعةُ عبد الملك . فتغير لذلك جعفرُ بن يحيي وتنغص عليه ما كان فيه . فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحالة ، دعا غلامَه فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامتَه ، ثم جاء ووقف على باب المجلس ، وقال : آصنعوا بى ما صنعتم بأنفسكم . قال : فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة ، ودعا بالطعام فطَعِم ، ثم جاء بالشراب فشرِبَ ثلاثاً ، ثم قال : ليُخفِّف عنّى فإنه شيء ما شربتُه قط . فتهلل وجهُ جعفر وفرح . وكان الرشيد قد عَتَب على عبد الملك بن صالح ووجد عليه ، فقال له جعفر بن يحيي : جعلنى الله فداك ، قد تفضَّلتَ وتطوّلت وأسعدْت ، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتى ، أو تحيط بها نِعمتى ، فأقضيها لك مكافأةً لما صنعْت؟ قال : بلى ، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ علىّ فسَلْهُ الرضا عنى . قال : قد رضى عنك أمير المؤمنين . ثم قال : علىَّ أربعة آلاف دينار : قال : حاضرة ، ولكن من مال أمير المؤمنين أحَبُّ إليك . قال : وابنى إبراهيم أُحب أن أشُدّ ظهره بصِهرٍ من أولاد أمير المؤمنين . قال . قد زوّجه أمير المؤمنين عائشة . قال : وأُحب أن تخفق الألويةُ على رأسه . قال : قد ولّاه أمير المؤمنين مِصر . قال : وانصرف عبد الملك ونحن نعجبُ من إقدامه على قضاء الحوائج من غير آستئذان أمير المؤمنين . فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دُعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك ، فعقد النكاح وحُملت البدَرُ إلى منزل عبد الملك ؛ وكتب سِجِلُّ إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه ، نزل ونزلنا بنزوله ؛ فالتفت إلينا ، فقال : تعلقت قلوبكم بأوّلِ أمرِ عبد الملك فأحببتم معرفةَ آخرِه ، وإنى لما دخلت على أمير المؤمنين مَثَلتُ بين يديه وابتدأت القصة من أولها ؛ فجعل يقول : أحسَنَ واللهِ ، فما صنعتَ؟

فأخبرته بما سأل وبما أجبته به ، فجعل يقول فى ذلك : أحسنت : أحسنت ! وخرج إبراهيم والياً على مصر .

ذو حاجة على باب ملك من الأكاسرة

وقدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة ، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه ، فتلطف فى رقعة أوصلها إليه ، وفيها أربعة أسطر :

فى السطر الأول : الضُّر والأمل أقدمانى عليك .

والسطر الثانى : الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة .

والسطر الثالث : الانصراف بلا فائدة فتنةٌ وشماتةٌ للعدو .

والسطر الرابع : فإما نعمٌ مثمرة ، وإما لا مُرِيحةٌ .

فلما قرأها وقّع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها .

يحيى بن خالد وشاعر

وقد دخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن بَرْمك فأنشده :

سألتُ النَّدَى هل أنت حُر؟ فقال لا * ولكنَّنى عبدٌ ليَحْيى بنِ خالدِ
فقلتُ شِراءً قال لا بل وِرَاثةً * توارَثَنى عن والدٍ بعدَ والدِ

فأمر له بعشرة آلاف .

خالد القسرى وأعرابى

ودخل أعرابىّ على خالد بن عبد الله القسرىّ فأنشده :

أخالدُ إنى لم أزُرْكَ لخلَّةٍ * سِوى أننى عافٍ وأنتَ جوادُ
أخالدُ بيْنَ الحمدِ والأجرِ حاجتى * فأيُّهما تأْتى فأنتَ عِمادُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

العباس القائد وابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى ـ ودخلتُ على أبى العبّاس القائد فأنشدتُه :

اللهُ جَرَّد للنَّدَى والبـاسِ * سيْفاً فقلَّدَهُ أبا العبّاسِ
مَلِك إذا اسْتَقْبلْتَ غُرَّةَ وجهه * قَبضَ الرَّجاءُ إليكَ روحَ الياسِ
وجهٌ عليه منَ الحياءِ سَكينةٌ * ومَحبَّةٌ تَجْرى من الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبْدَهُ * ألقى عليه محبَّةً للناسِ

ثم سألتُه حاجة فيها بعضُ الغِلظ ، فتلكأ علىّ . فأخذت سَحاءةً من بين يديه

فوقّعتُ فيها على البديهة :

ما ضرَّ عندك حاجتى ما ضرَّها * عُذراً إذا أعطيْتَ نفسكَ قدْرَها
انظرْ إلى عَرْضِ البلادِ وطولِها * أوَ لستَ أكرمَ أهلها وأبرَّها
حاشى لجودِك أنْ يُوعِّرَ حاجتى * ثقتى بجودِك سَهَّلَتْ لى وَعْرَها
لايجتنى حُلْوَ المحامدِ ماجِدٌ * حتى يذوقَ من المطالبِ مُرَّها

فقضى الحاجة وسارع إليها .

المتوكل وعبدالله ابن يحيى

وأبطأ عبدُ الله بن يحيى عن الديوان ، فأرسل إليه المتوكل يتعرف خبره ، فكتب إليه :

عليلٌ من مكانيْنِ * مِنَ الإفلاسِ والدَّيْنِ
ففى هٰذيْنِ لى شُغْلٌ * وحَسْبى شُغْلُ هٰذيْنِ

فبعث إليه بألف دينار .

الفضل بن يحيى ومستمنح

عبد الله بن منصور قال : كنت يوماً فى مجلس الفضل بن يحيى ، فأتاه الحاجب فقال : إن بالباب رجلا قد أكثر فى طلب الإذن وزعَم أن له يداً يَمُتُّ بها قال : أدْخِلْه . فدخل رجل جميل الوجه رَثُّ الهيئة ، فسلّم فأحسَن . فأومأ إليه بالجلوس فجلس ؛ فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام ، قال له : ماحاجتك ؟ قال له : قد أعربتْ بها رثاثةُ هيئتى ، وضعفُ طاقتى ! قال : أجلْ ، فما الذى تَمُتُّ به ؟ قال : ولادةٌ تقرب من ولادتك ، وجوار يدنو من جوارِك ، واسم مشتق من اسمك . قال : أمّا الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت ، وقد يُوافق الاسمُ الاسم ، ولكن ماعِلْمُكَ بالولادة ؟ قال : أعلمتْنى أمى أنها لما وضعتْنى قيل إنه وُلد الليلةَ ليحيى بن خالد غلام وسُمّى الفضل ؛ فسمّتنى فُضَيْلاً ، إعظاماً لاسمك أن تُلحِقَنى بك . فتبسّم الفضل وقال : كم أتى عليك من السنين ؟ قال : خمسٌ وثلاثون . قال : صدقت ، هذا المقدار الذى أتيْت عليه ؛ فما فعلت أُمّك ؟ قال : توفيت رحمها الله ، قال : فما منعك عن اللُّحوق بنا فيما مضى ؟ قال : لم أرض نفسى للقائك ، لأنها كانت فى عامّية وحداثة تُقعِدنى عن لقاء الملوك . قال : ياغلام

أعطه لكل عام مضى من سِنيه ألفاً ، وأعطه من كُسوتنا ومراكبنا ما يصلح له . فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله .

من حبيب إلى ابن أبي دواد

وكتب حبيب بن أوس الطائى إلى أحمد بن أبى دُواد :

اعــلمْ وأنتَ المرءُ غيرَ مُعلَّمٍ * وافهمْ جُعِلْتُ فداكَ غيرَ مُفهَّمِ
أنّ اصطناع العُرْفِ مالم تُولِهِ * مُستكمِلا كالثوبِ ما لم يُعلَمِ
والشُّكرُ مالم يُستَتَرْ بصَنيعةٍ * كالخَطِّ تَقرؤهُ وليس بمُعْجَمِ
وتفنُّنى فى القولِ إكثارٌ وقد * أَسْرَجْتَ فى كرَمِ الفعالِ فألْجِمِ

وقال دعبل بن على الخزاعى فى طاهر بن الحسين صاحب خراسان :

أياذا اليمينَيْنِ والدَّعْــوتَيْنِ * ومن عنده العُرْفُ والنّــائلُ
أتَرْضَى لمِثْــلِى أنى مُقيم * ببابِكَ مُطَّرَحٌ خامِــلُ
رَضيتُ من الوُدِّ والعائِداتِ * ومن كل ما أمَّلَ الآمِلُ
بتَسليمةٍ بيْنَ خمسٍ وسِتٍّ * إذا ضمّــكَ المجلسُ الحافِلُ
وما كنتُ أرضى بذا مِن سِواكَ * أيَرضَى بذا رَجُــلٌ عاقلُ
وإن نابَ شُغْلٌ ففى دونِ ما * تُدبِّرُهُ شُغُــلٌ شاغلُ
عليكَ السلامُ فإنى امرُؤٌ * إذا ضــاقَ بى بلدٌ راحِلُ

بين زياد وضبى

الأصمعى قال : نظر زياد إلى رجل من ضَبّة يأكل أكلا قبيحاً ، وهو أقبح الناس وجهاً ، فقال : يا أخا ضَبّة ، كم عيالك ؟ قال : سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً ، وهن آكَلُ منى . فضحك زياد وقال : لله درك ! ما ألطفَ سؤالك ! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادماً ، وعجّلوا له ولهن بأرزاقهن . فخرج الضّبى وهو يقول :

إذا كنتَ مُرْتادَ السّماحةِ والنّدَى * فنــادِ زِياداً أوْ أخاً لزيادِ
يُجبْكَ امرُؤٌ يُعطِى على الحمدِ مالَهُ * إذا ضَنَّ بالمعروفِ كُلُّ جَوادِ
وما لِىَ لا أُثنِى عليكَ وإنمــا * طَرِيفىَ من مَعروفِكُمْ وتِلادِى

دعبل وبعض أمراء الرقة

ووقف دعبل ببعض أمراء الرقّة ، فلما مثل بين يديه قال : أصلح الله الأمير ، إنى لا أقول كما قال صاحب مَعْن :

بأىِّ الخلّتَيْن عليك أُثنى * فإنى عندَ مُنْصرَفى مَسُولُ
أبالحسنى وليس لها ضِياءٌ * علىَّ فمَنْ يُصَدِّقُ ما أقولُ
أمِ الأخرى ولستَ لها بأهْلٍ * وأنتَ لكلِّ مَكْرُمَة فعُولُ

ولكنى أقول :

ماذا أقولُ إذا أتيتُ مَعاشِرى * صِفْراً يَداى منَ الجواد المُجْزِلِ
إنْ قلتُ أعْطانى كذَبْتُ وإن أقُلْ * ضَنَّ الأميرُ بمالِهِ لم يَجْمُلِ
ولأنتَ أعلمُ بالمكارِمِ والعُلا * مِنْ أنْ أقولَ فعلتَ ما لم تَفعلِ
فاخْتَر لنفسكَ ما أقولُ ، فإننى * لا بُدَّ مُخْبِرُهم وإن لم أُسْأَلِ

قال له : قاتلك الله ! وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بشر بن مروان وابن عبدل

العُتبى قال : دخل ابن عَبْدل على عبد الملك بن بشر بن مروان لما ولى الكوفة ، فقعد بين السماطين ثم قال : أيها الأمير ، إنى رأيت رُؤيا فأْذَنْ لى فى قَصَصِها . فقال : قل . فقال :

أغفَيْت قبل الصُّبحِ نومَ مُسَهَّدٍ * فى ساعةٍ ماكنتُ قبلُ أنامُها
فرأيتُ أنكَ رُعْتَنِى بوَليدةٍ * مَفلوجَةٍ حَسَنٍ علىَّ قيامُها
وببذْرة حُمِلَت إلىّ وبغْلةٍ * شَهْباء ناجيَةٍ يَصِرُّ لجامُها

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان : كل شىء رأيت فهو عندى إلا البغلة ، فإنها دهماء فارهة . قال : امرأتى طالق ثلاثا إن كنتُ رأيتُها إلا دهماء ، إلا أنى غلطت .

على الأرمنى والبطين

الشيبانى عن البطين الشاعر قال : قدمت على علىّ بن يحيى الأرمنىّ فكتبتُ إليه :

رأيتُ فى النَّوْم أنى راكبٌ فرساً * ولِى وصيفٌ وفى كفِّى دنانيرُ
فقال لمْ قومٌ حِذْقٌ ومَعْرفة * رأيتَ خيراً وللأحلام تعْبيرُ

رُؤياكَ فَسِّرْ غداً عندَ الأميرِ تجدْ ٭ تعبيرَ ذاكَ وفى الفألِ التَّباشيرُ
فجئتُ مُسْتَبْشِراً مُسْتَشعِراً فَرَحاً ٭ وعندَ مِثْلِكَ لى بالفعلِ تَيْسيرُ

قال : فوقّع لى فى أسفل كتابى : « أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ثم أمر لى بكل شىء ذكرته فى أبياتى ورأيته فى منامى .

لبشار

وقال بشار العقيلى :

حتى متَى ليْتَ شِعْرى يابن يَقْطِينِ ٭ أُثنِى عليْكَ بما لاَ منك تُوليِنى
أمَا عَلِمتَ جَزاكَ اللهُ صالحةً ٭ عنى وزادَكَ خيْراً يابن يَقْطِينِ
أنى أُريدُكَ للدُّنيا وزينتِها ٭ ولا أُريدُكَ يوْمَ الدِّين للدِّين

لبعض الشعراء

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

يابنَ العلاءِ ويابنَ القَرْمِ مِرْداسِ ٭ إنى لأُطْرِيكَ فى أهلى وجُلاَّسِى
أُثنى عليكَ ولى حالٌ تُكذِّبُنِى ٭ فيما أقولُ فأَسْتَحْيِى من النَّاسِ
حتى إذا قيلَ : ماأعْطاكَ مِن صَفَدٍ ٭ طأطأتُ مِن سوءِ حالى عندها راسِى

الأخذ من الأمراء

لعثمان فى جائزة السلطان

حدّثنا جعفر بن محمد ، عن يزيد بن سِمْعان ، عن عبد الله بن ثَوْر ، عن عبد الحميد بن وهب ، عن أبى الخَلاّل ، قال : سألت عثمان بن عفّان عن جائزة السلطان ، فقال : لحمٌ طرىٌّ ذكى .

عكرمة والجائزة

جعفر بن محمد ، عن يحيى بن محمد العامرىّ ، عن المُعتمر ، عن عِمْران بن حُدَير ، قال : انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة ، فرأى الرجل عليه عمامة متخرِّقة ، فقال الرجل : عندنا عمائم ، ألا نبعث إليك بعمامة منها ؟ قال عكرمة : إنا لا نقبل من الناس شيئاً ، إنما نقبل من الأمراء .

الحسن البصرى وخميصته

وقال هشام بن حسان : رأيتُ على الحسن البصرى خَميصةً لها أعلام يصلّى فيها ، أهداها إليه مَسلمة بن عبد الملك .

الرسول صلى الله عليه وسلم وخفان أهداهما النجاشى

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس خُفَّين أسودين أهداهما إليه النجاشى صاحب الحبشة .

وقال نافع : كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفِتْنة ، مثل المختار وغيره .

جائزة الرشيد لأبن أنس

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه دَيْناً لزمه فأمر له بألف دينار عَيْن . فلما وضع يديه للقيام ، قال : يا أمير المؤمنين ، وزوّجتُ ابنى محمداً فصار علىّ فيه ألفُ دينار . قال : ولابنه محمد ألف دينار .

قال : فلقد مات مالك وتركها لوارثه فى مِزْود .

وقال الأصمعى : حدّثنى إسحاق بن يحيى بن طلحة قال : كان الربيع بن خُثَيم فى ألف ومائة من العطاء فكلم فيه أبى معاويةَ فألحقه بألفين ؛ فلما حضر العطاء نودى الربيعُ بن خُثَيم ، فقيل له : فى ألفين . فقعد ، فنظروا فوجدوا على اسمه مكتوبا : كَلَّم فيه يحيى بنُ طلحة أميرَ المؤمنين فألحقه بألفين .

إبراهيم بن أدهم ورجل أراد أن يهب له

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم : يا أبا إسحاق ، كنتُ أريد أن تقبل منى هذه الجُبة كُسوةً . قال : إن كنتَ غنيا قبلتُها منك ، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلها منك . قال : فإنى غنىّ . قال : وكم مالك ؟ قال : ألفا دينار . قال : فأنتَ تودُّ أنها أربعة آلاف ؟ قال : نعم . قال : فأنت فقير ، لا أقبلها منك .

ابن الأغلب وابن الفرات فى مال قسم عليهم

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله ، بمال يقسم على الفقهاء ، فكان منهم من قَبل ومنهم من لم يقبل ، فكان أسدُ بن الفُرات فيمن قَبل ، فجعل زيادة الله يَغْمِص على كل من قَبِل منهم ، فبلغ ذلك أسدَ بن الفرات ، فقال : لا عليه ، إنما أخذنا بعضَ حقوقنا والله سائلُه عما بقى !

لذى الرمة

وقد فخرت العربُ بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتموّلونه ، فقال ذو الرمة :

وما كان مالى من تُراثٍ ورِثْتُهُ ٭ ولا دِيةٍ كانتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ
ولكن عطاءُ اللهِ من كلّ رحلةٍ ٭ إلى كلّ مَحْجُوبِ السُّرادق خِضْرِمِ

لبعض الشعراء يهجو مروان بن أبي حفصة

وقال آخر يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخذه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

عَطايا أمير المؤمنينَ، ولم تكنْ * مُقَسَّمةً مِنْ هؤُلا وأولئكا
وما نِلْت حتى شبتَ إلا عطيّةً * تَقومُ بها مَصْرورةً في رِدائكا

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ابن الخطاب وابن خذيم

ذَكر عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن خِذْيم منهم. فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا أعطيتَ فأغْنِ

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدٌ من العرب فأعطاهم وفضلَ رجلا منهم؛ فقيل له في ذلك، فقال: كل القوم عِيالٌ عليه.

الرسول صلى الله عليه وسلم والعباس بن مرداس

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين المؤلّفةَ قلوبُهم، فأعطى الأقرعَ ابن حابس التميمي. وعُيينة بن حصن الفَزاري، مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بن مرداس السُّلمي خمسين؛ فشق ذلك عليه، فقال أبياتا. فأتاه بها وأنشده إياها وهي:

أيَذهبُ نَهبي ونَهبُ العُبيـــدِ * بينَ عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ
ولا كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ * يَفُوقانِ مِرْداسَ في مَجْمَعِ
وما كنتُ غيْرَ امرِئٍ منهمُ * ومَن تَضَعِ اليومَ لم يُرْفَعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال: اقطع عنى لسان العباس. فأعطاه حتى أرضاه.

الرسول صلى الله عليه وسلم وصفوان بن أمية

وقال صفوان بن أميـة: لقد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما خَلق الله خلقاً أبغضَ إليّ منه فما زال يُعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحبَّ إليَّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلّفة قلوبُهم.

شكر النعمة

لسليمان التيمى

سُليمان التّميميّ قال : إن الله أنعم على عباده بقدْر قُدرته ، وكلّفهم من الشكر بقدر طاقتهم .

لبعضهم

وقالوا : مكتوبٌ فى التوراة : اشكرْ لمن أنعَمَ عليك ، وأنعمْ على من شكرك .

وقالوا : كفر النعمة يُوجب زوالها ، وشكرُها يوجب المزيد فيها .

وقالوا : مَن حمدك فقد وفّاك حقّ نعمتك .

فى الحديث

وجاء فى الحديث : مَن نَشر معروفاً فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره .

ابن عباس وشكر النعم

وقال عبد الله بن عباس : لو أن فرعونَ مصرَ أسدى إلىّ يداً صالحة لشكرته عليها .

لبعضهم

وقالوا : إذا قَصُرَتْ يداك عن المكافأة فليَطُلْ لسانك بالشكر .

وقالوا : ما نحل الله تعالى عبادَه شيئا أقلَّ من الشكر ، واعتبر ذلك بقول الله عز وجل : ﴿ وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ .

الواقدى ويحيى البرمكى فى قوم جاءوا يشكرونه

محمد بن صالح الواقدى قال : دخلت على يحيى بن خالد البرمكى ، فقلت : إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفا . فقال : يا محمد ، هؤلاء يشكرون معروفا ، فكيف لنا بشكر شكرهم .

للنبى صلى الله عليه وسلم فى شكر النعمة وكفرها

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما أنعم الله على عبده نعمةً فرأى عليه أثرَها إلا كُتِبَ : حبيبَ الله شاكرا لأنعُمِه . وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرَها عليه إلا كتب : بغيضَ الله كافرا لأنْعُمِه .

بين عدى بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز

وكتب عدىّ بن أرطاة إلى عُمَر بن عبد العزيز : إنى بأرض كَثُرتْ فيها النِّعم ، وقد خِفْت على مَن قِبَلى من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه فكتب إليه عمر رضى الله عنه : إن الله تعالى لم يُنعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثرَ مما أخذوا . واعتبر ذلك لقول الله تعالى : ﴿ ولقد آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً وقَالَا الْحَمْدُ لِلهِ ﴾ . فأى نعمة أفضل مما أوتى داودُ وسليمان .

بين النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة فى أبيات لابن جناب

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها تنشد أبيات زُهير ابن جَنَاب :

ارْفعْ ضَعيفَكَ لا يحُرْ بك ضَعْفُهُ * يوماً فتُدرِكَهُ عواقِبُ ما جَنَى
يَجْزيك أو يُثْنِى عليك فإنّ مَنْ * أثنى عليك بما فعلتَ كَمَنْ جَزَى

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : صدق يا عائشة ، لا شكَرَ الله مَن لا يَشكر الناس .

لبعض الشعراء فى شكر النعمة

الخُشنى قال : أنشدنى الرياشى :

إذا أنا لم أشكُرْ على الخير أهْلَهُ * ولم أذْمُمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذَمَّمَا
ففيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشَّرَّ باسْمِهِ * وشَقَّ لِيَ اللهُ المسامعَ والفَمَا

وأنشدنى فى الشكر :

سأشكُرُ عَمْراً ما تَراخَتْ مَنِيَّتِى * أيادِىَ لم تُمْنَنْ وإن هى جَلَّتِ
فَتًى غيرَ محجوبِ الغِنَى عن صَدِيقِهِ * ولا مُظْهِرَ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِى من حيث يَخْفَى مكانُها * فكانت قَذَى عَيْنَيْهِ حتى تَجَلَّتِ

قلة الكرام فى كثرة اللئام

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة .

للحكماء

وقالت الحكماء : الكرام فى اللئام كالغرة فى الفرس .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

تُفاخِرُنى بِكَثْرتِها قُرَيط * وقلّ والِدَ الحَجَلَ الصقورُ
فإنْ أَكُ فى شِرَارِكُمُ قليلًا * فإنى فى خيارِكم كثيرُ
بُغاثُ الطَّيْرِ أكْثَرُها فِراخًا * وأم الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

للسموأل

وقال السموأل :

تُعَيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا * فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا * عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

لحبيب

وقال حبيب :

ولقد نكونُ ولا كريمَ نناله * حتى نخوضَ إليه ألفَ لئيمِ

لابن أبي حازم

وقال ابن أبي حازم :

وقالوا : لو مَدَحتَ فتى كريماً * فقلتُ وكيف لي بفتى كريمِ
بَلَوتُ ومرَّ بي خمسونَ حولاً * وحسبُكَ بالمُجرِّبِ من عليمِ
فلا أحدٌ يُعَـدُّ ليومِ خيرٍ * ولا أحدٌ يعودُ على عديمِ

لدعبل

وقال دِعْبل :

ما أكثرَ الناسَ لابلْ ما أقلَّهُمُ * والله يعلمُ أنّى لم أقلْ فنَدَا
إنى لأُغلقُ عينى ثم أفتحُها * على كثيرٍ ولكنْ ما أرى أحَدَا

لحبيب الطائى

وأحسن ماقيل فى هذا المعنى قول حبيب الطائى :

إن الجيادَ كثيرٌ فى البلادِ وإنْ * قلُّوا ، كما غيرُهُمْ قلٌّ وإن كثُرُوا
لا يَدْهَمَنَّكَ من دَهْمائهمْ عَجَبٌ * فإنَّ جُلَّهُمُ أو كُلَّهُم بَقَرُ
وكلما أضحت الأخطارُ بينَهُمُ * هلْكَى تبيَّنَ مَنْ أضحى له خَطَرُ
لولم تُصادفْ شِيَاتُ البَهْمِ أكثرَ ما * فى الخيل لم تُحمد الأوضاحُ والغُرَرُ

لكسرى فى الشح

الأصمعى قال : قال كسرى : أى شىء أضرّ ؟ فأجمعوا على الفقر . فقال كسرى : الشحّ أضرّ منه ، لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع .

من جاد أولا وضنّ آخراً

أعرابى وبصرى

نزل أعرابىّ برجل من أهل البصرة ، فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك ، فقال الأعرابى :

تَسَرَّى فلما جاذَبَ المَرْءَ نفسَه * رأى أنّه لا يستقيمُ له السَّرْوُ

وكان يزيد بن منصور يُجرى لبشّار العُقيلى وظيفةً فى كل شهر ، ثم قطعها

عنه ؛ فقال :

أَبا خالدٍ مازلتَ سابِحَ غَمْرَةٍ * صغيراً فلما شِبْتَ خَيَّمتَ بالشَّاطى
جَرَيْتَ زماناً سابقا ثم لم تَزَلْ * تأَخَّرُ حتى جئتَ تَقْطُو مع القاطى
كسِنَّوْرِ عبدِ اللهِ بيعَ بِدِرْهَمٍ * صغيرا ، فلما شَبَّ بيعَ بِقيراطِ

لمسلم فى محمد ابن منصور

وقال مُسلم بن الوليد صريع الغوانى لمحمد بن منصور بن زياد :

أبا حَسنٍ قد كنتَ قدَّمْتَ نعمة * وأَلحقْتَ شُكْراً ثم أمسكتَ وانِيا
فلا ضَيرَ لم تَلْحقْك مِنى مَلامةٌ * أَسأتَ بنا عَوْداً وأحسنْتَ بادِيا
فأُقسِمُ لا أَجزيكَ بالسُّوءِ مثْلَهُ * كفى بالذى جازَيْتنى لك جازِيَا

لسليمان الأعمى فى سليمان بن على

وقال سليمان الأعمى ، وهو أخو صريع الغوانى ، فى سليمان بن على :

ياسوءة يُكبِر الشيطانُ إن ذُكرتْ * منها العجائبَ جاءت من سُليمانا
لا تَعجبنَّ بخير زلَّ عن يده * فالكوكبُ النحس يسقى الأرض أحيانا

من ضنّ أولا ثم جاد آخراً

للحارث المخزومى فى عبد الملك

قدِم الحارث بن خالد المخزومىّ على عبد الملك فلم يصلْه ، فرجع وقال فيه :

صحِبْتُكَ إذ عَيْنى عليها غِشاوةٌ * فلما انْجلَت قطَّعتُ نفسى أَلومُها
حَبَسْتُ عليكَ النَّفْسَ حتى كأنما * بِكفَّيْكَ يَجرى بُؤسُها ونعيمُها

فبلغ قولُه عبدَ الملك ، فأرسل إليه فردّه وقال : أرأيت عليك غضاضةً من مُقامك ببابى ؟ قال : لا ، ولكنى اشتقتُ إلى أهلى ووطنى ، ووجدت فضلا من القول فقلت ، وعلىَّ دَين لَزِمنى . قال : وكم دَيْنُك ؟ قال ثلاثون ألفا . قال : فقضاء دينك أَحبُّ إليك أم ولايةُ مكة ؟ قال : بل ولاية مكة . فولّاه إياها .

عتيبة والحطيئة

وقدم الحطيئةُ المدينةَ فوقف إلى عُتيبة بن النّهاس العجلىّ ، فقال : أعطنى . فقال : مالكَ عندى حقٌّ فأُعطيَكه ، وما فى مالى فَضْلٌ عن عيالى فأعودَ به عليك . فخرج عنه مُغضبا ، وعرّفه به جلساؤه ، فأمر بردّه ، ثم قال له : ياهذا ، إنك وقفتَ إلينا فلم تَستأنس ولم تُسلِّم ، وكتمتَنا نفسَك ، كأنك الحُطيئة ؟ قال : هو ذلك . قال : اجلس فلك

عندنا كلُّ ما تحب ، فجلس فقال له : مَن أشعرُ الناس ؟ قال الذى يقول :

ومنْ يَجعلِ المعروفَ مِن دونِ عِرْضِهِ ۞ يَفِرْهُ ومَن لا يَتّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

يعنى زهيراً . قال : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

من يسأل الناس يحرموه ۞ وســـائلُ الله لا يخيبُ

يعنى عبيداً . قال : ثم من ؟ قال : أنا . . .

فقال لوكيله : خُذ بيد هذا فامض به إلى السوق ، فلا يُشيرَنَّ إلى شىء إلا اشتريتَه له . فمضى معه إلى السوق ، فعرض عليه الخزّ والقَز ، فلم يلتفت إلى شىء منه . وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية ، فاشترى له منها حاجته ؛ ثم قال : أمسِك . قال : فإنه قد أمرنى أن أبسُط يدى بالنفقة . قال : لا حاجة لى أن يكون له على قومى يد أعظم من هذه . ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتَ فلم تَبخلْ ولم تُعْطِ طائِلاً ۞ فَسِيّانِ لاذَمٌ عليكَ ولا حَمْدُ

وأنت امرُؤٌ لا الجُودُ منك سَجِيَّةٌ ۞ فتُعطِى وقد يُعدِى على النائِلِ الوُجْدُ

من مدح أميراً فخيبه

سعيد بن سلم وأعرابى

قال سعيد بن سَلْم : مدحنى أعرابىّ فأبلغ ، فقال :

ألا قُلْ لِسارى اللّيلِ لاتَخشَ ضِلَّةً ۞ سَعيدُ بنُ سَلْمٍ نُورُ كلِّ بلادِ

لنا سيِّدٌ أرْبَى على كلِّ ســيدٍ ۞ جوادٌ حثا فى وجهِ كل جَوادِ

قال : فتأخّرت عنه قليلاً ، فهجانى فأبلغ ، فقال :

لِكلِّ أخى مَدْحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ ۞ وليس لمدحِ البـاهِلىِّ ثوابُ

مَدَحْتُ سَعيداً والمديحُ مهزَّةٌ ۞ فكان كصَفْوانٍ عليه تُرابُ

أبو دلف والحسن ابن رجاء

ومدح الحسنُ بن رجاء أبا دلف فلم يُعطه شيئا : فقال :

أبا دُلَفٍ ما أكذبُ الناسِ كلِّهم ۞ سِوايَ فإنى فى مَديحكَ أكْذَبُ

لبعض الشعراء

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

إنى مَدحتُك كاذِباً فأثبْتَنِى ۞ لمّا مَدحتُك مايُثابُ الكاذِبُ

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

لئنْ أخطأتُ فى مَدْحِيـكَ ما أخطأتَ فى مَنْعِى
لقد أحْلَلْـتُ حاجاتِى * بِوَادٍ غيرِ ذِى زَرْعِ

حبيب الطائى وعياش

ومدح حبيب الطائىّ عيّاش بن لهيعة ، وقدم عليه مصرَ واستسلفه مائتى مثقال ، فشاور فيها زوجته ، فقالت له : هو شاعر ، يمدحك اليومَ ويهجوك غدا ؛ فاعتلّ عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته ، فقال فيه :

عَيّاشُ ، إنكَ لَلَّئِيم وإننى * مُذْصِرْتَ مَوْضِعَ مطلبى لَلَئِيمُ

ثم هجاه حتى مات ، وهجاه بعد موته فقال فيه :

لا سُقِيَتْ أطلالكَ الدّاثِرهْ * ولا انقضَت عَـثْرَتُكَ العاثِرَهْ
يا أسدَ الموتِ تَخَلَّصْتَهُ * مِن بَينِ فَكّىْ أسد القاصره[1]
ما حفرةٌ واراك ملحودُها * بَبَرّةِ الرَّمس ولا طاهره

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى ـ وسألتُ بعض موالى السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه ، فقلت :

حاشا لمثلِكَ أن يَفُكَّ أسيرًا * أو أنْ يكونَ مِن الزّمانِ مُجيرا
لَبِسَتْ قَوافى الشّعرفيكَ مَدارِعًا * سُوداً وضَلّت أوجُهاً وصُدورا
هلاّ عَطفتَ برحمةٍ لمـا دعَت * ويْلاً عليك مَدائحى وثُبورا
لو أنّ لُؤمَكَ عادَ جوداً عُشْرُهُ * ما كان عندَكَ حاتمٌ مَذْكورا

ربيعة الرقى ويزيد بن حاتم

قال : ومدح ربيعة الرقى يزيد بن حاتم الأزدى ، وهو والى مصر ، فاستبطأه ربيعة ، فشخص عنه من مصر وقال :

أرانى ولا كُفْرانَ لله راجعاً * بِخُفَّىْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتِمِ

فبلغ قولُه يزيدَ بن حاتم ، فأرسل فى طلبه فرُدّ إليه . فلما دخل عليه قال له :

(١) القاصرة : مكان فى الطريق إلى مصر ، يروون أن أسداً فيه أكل عتبة بن أبى لهب .

أنت القائل :

* أرانى ولا كفران لله راجعا *

قال : نعم . قال : فهل قلت غير هذا ؟ قال : لا والله . قال : اتزجمن بُخُفَّىْ حنين مملوءة مالا فأمر بخلع نعليه ومُلئتا له مالا ؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولى يزيد بن أُسَيد السُّلمى مكانه :

بكى أهلُ مِصْرٍ بالدُّموع السَّواجِمِ * غَداةَ غَدَا منها الأغرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول :

لشتّان ما بَيْنَ اليَزيدَيْنِ فى النَدَى * يَزيد سُليمٍ والأغرِّ ابن حاتِمِ
فَهَمُّ الفتى الأزْدِىِّ إنفاقُ مالِهِ * وهمُّ الفتى القيسى جَمْعُ الدَّراهِمِ
فلا يَحْسَبِ التَّمْتامُ أَنِّى هَجَوْتُه * ولكنّنى فضَّلْتُ أهلَ المكارِمِ

أجواد أهل الجاهلية

من أجواد الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجودُ فى الجاهلية ثلاثةُ نفر : حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى ، وهَرِم بن سنان المُرِّى ، وكعب بن مامَةَ الإيادى .

شىء عن حاتم

ولكن المضروب به المثلُ حاتمٌ وحده ، وهو القائل لغلامه يسار ، وكان إذا اشتد البرد وكَلِب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً فى يَفَاع من الأرض لينظُر إليها من أضلّ الطريق ليلاً فيصمِد نحوه ، فقال فى ذلك :

أَوْقِدْ فإنَّ اللَّيْل ليلٌ قَرُّ * والريحُ يا موقد ريح صِرُّ
علَّ يَرى نارَكَ مَنْ يَمُرُّ * إن جلَبتْ ضيفاً فأنت حُرُّ

وقالوا : لم يكن حاتم مُمسكا شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان لا يجود بهما .

ومرّ حاتم فى سفره على عَنَزة وفيهم أسير ، فاستغاث بحاتم ولم يحضُره فكاكُه ، فاشتراه من العنزيين وأطلقه وأقام مكانَه فى القيد حتى أدّى فداءه ..

وقالت نوار امرأة حاتم : أصابتنا سنة اقشعرّتْ لها الأرضُ واغبرّ أفقُ

السماء ، وراحت الإبلُ حُدْباً حَدابير ، وضنت المراضعُ على أولادها فما تبض بقطرة ، وحلَقت السنةُ المال وأيقنّا بالهلاك . فوالله إنا لفى ليلة صِنَّبْرٍ بعيدةِ ما بين الطرفين ، إذ تضاغى صِبْيَتُنا جوعا : عبدُ الله وعدىّ وسَفّانة : فقام حاتم إلى الصَّبيَّين وقمتُ أنا إلى الصَّبية ، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأة من الليل ، وأقبل يعلّلنى بالحديث . فعرفت ما يريد فتناومتُ ، فلما تهوّرت النجوم إذا شىء قد رفع كِسْر البيت ثم عاد ، فقال : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتُك من عند صِبية يتعاوَون عُواء الذئاب ، فما وجدتُ مُعَوَّلًا إلا عليك يا أبا عدىّ ، فقال : أعجِليهم فقد أشبعكِ الله وإياهم : فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى بجانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِئالُها ؛ فقام إلى فرسه فوجأ لبَّته بمُدْية فخر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة فقال لها : شأنَك ؛ فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول : هُبُّوا أيها القوم ، عليكم بالنار . فاجتمعوا والتفع فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، فلا والله إن ذاق منه مُزْعة وإنه لأحوَجُ إليه منّا ؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلّا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مَهْلًا نَوَارُ أقِلِّى اللَّوْمَ والعَذلَا * ولا تقولى لشَىْءٍ فاتَ ما فعَلا
ولا تقولى لمالٍ كنتُ مُهْلِكَهَ * مهْلًا وإن كنتُ أُعطِى الأنسَ والخَبَلَا
يَرَى البَخيلُ سبيلَ المالِ واحِدةً * إن الجوادَ يرى فى مالِه سُبُلَا

ورئى حاتم يوما يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدلّ عليه أضيافه وهو يقول :

أقول لابنى وقد سُطْتُ يديه * بكلبة لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها فإن لها * عندى يداً لا أزال أحمدها
تدل ضيفى علىّ فى غلس الليـل إذا النار نام مُوقدها

ذكرت طيئ عند عدىّ بن حاتم أن رجلا يعرف بأبى الخَيْبرىّ مر بقبر حاتم فنزل به وجعل ينادى : أبا عدى : أقرِ أضيافك . قال : فيقال له : مهلا ما تُكلم

من رِمّة بالية ؟ فقال : إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قراه ، كالمستهزئ فلما كان في السحر وثب أبو خيبرى يصيح : واراحلتاه : فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ قال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتى وأنا أنظر إليها . فتأملوا راحلته فإذا هى لا تنبعث . فقالوا : قد والله أقراك . فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبينما هم فى مسيرهم إذ طالع عليهم عدىّ ابن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره ، فقال إن حاتما جاء فى النوم فذكر لى قولك وأنه أقراك وأصحابك راحلتك ، وقال لى أبياتاً ردّدها علىّ حتى حفظتها ، وهى :

أبا الخَيْبَرِىّ وأنت امرؤ * حسود العشيرة شتّامها
فماذا أردت إلى رِمّة * بِدَاوِيةٍ صَخِبٍ هامُها
أتبغى أذاها وإعسارها * وحولك غوث وأنعامها
وإنا لنطعم أضيافنا * من الكُوم بالسيف نعتامها

وأمرنى بدفع راحلة عوض راحلتك ، فخذها ؛ فأخذها .

ولحاتم بن عبد الله أيضا :

أماوِىّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ * وقد عَذَرَتنا فى طِلابِكُمُ العُذْرُ
أماوِىّ إنّ المالَ غادٍ ورائحٌ * ويَبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِّكرُ
أماوىّ إما مانعٌ فمبيّن * وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ الزَّجْر
أماوىّ إنى لا أقولُ لِسائلٍ * إذا جاء يومًا حَلّ فى مالِىَ النَّذْرُ
أماوىّ ما يُغْنِى الثَّراءُ عن الفَتَى * إذا حَشْرَجَت يومًا وضاقَ بها الصَّدْرُ
أماوىّ إن يُصْبِحْ صداىَ بقَفْرةٍ * من الأرضِ لا ماءٌ لَدَىَّ ولا خمرُ
تَرىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرّنى * وأنّ يَدِى مما بَخِلْت به صِفْرُ
إذا أنا دَلاّنى الذين يَلونَنى * بمُظْلِمةٍ لجٍّ جَوانبُها غُبْرُ
وراحوا سراعًا يَنْفُضون أكفَّهُمْ * يقولون قد أدْمَى أظافِرَنا الحَفْرُ
أماوىّ إن المالَ مالٌ بَذَلْتَه * فأوّلُه شُكْرٌ وآخِرُه ذِكْرُ .

وقد يَعلَمُ الأقوامُ لو أنّ حاتِماً * أرادَ ثراء المالِ كان له وَفْرُ
فإنى وجدّى رُبَّ واحــدِ أُمّهِ * أَجرْتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أَسْرُ
ولا أظلم ابن العمّ إن كان إخوتى * شُهوداً وقد أَوْدَى بإخوتِه الدَّهرُ
غَنِينا زَمانا بالتَّصَعْلُك والغِنى * وكلاًّ سَقاناه بكاسيهما الدهرُ
فما زادَنا بَأْوًا[1] على ذى قرابةٍ * غِنانا ، ولا أزرَى بأحلامِنا الفَقْرُ

* * *

شيء عن هرم

وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذى يقول فيه :

متى تُلاقِ على عِــلّاتِه هَرِماً * تَلْقَ السَّماحةَ فى خَلْقٍ وفى خُلُقِ

وكان سنان أبو هرم سيدَ غَطَفان ، وماتت أمه وهى حامل به ، وقالت : إذا أنا مت فشُقّوا بطنى فإن سيد غطفان فيه . فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سنانا . وفى بنى سنان يقول زُهير :

قوم أبوهم سِنانٌ حين تَنسُبُهم * طابوا وطابَ مِنَ الأولادِ ماوَلَدوا
لوكان يَقعُد فوقَ الشمس مِن كَرَمٍ * قومٌ بأوّلِهمْ أو مَجدِهمْ ، قَعَدوا
جِنٌّ إذا فَزِعوا إنسٌ إذا أمِنوا * مُرَزّءون بَهالِيلٌ إذا قُصدوا
مُحَسَّدون على ماكان من نِعَمٍ * لا يَنزِعُ اللهُ منهم مالَهُ حُسِدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان :

وأبيَض فيّــاضٍ يَداهُ غَمامَة * على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ نوائــله
تَراه إذا ما جِئْته مُتهــلِّلاً * كأنك تُعْطِيهِ الذى أنت سائله
أخو ثِقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ * ولكنه قد يُتلِفُ المالَ نائله

أخذ الحسن بن هانئ هذا المعنى فقال :

فتًى لا تغول الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِهِ * ولكنْ أيادٍ عُوَّدٌ وبوادِى

(١) فخراً واستعلاء.

وقال زهير فى هرم بن سنان وأهل بيته :

إليك أعْمَلْتُها فُتْلاً مَرافِقُها ٭ شهريْن يجهض من أرحامها العَلَقُ
حتى دَفعْنَ إلى حُلوٍ شمائلهُ ٭ كالغيْثِ يَنبُتُ فى آثارِهِ الورَقُ
من أهلِ بيْتٍ يَرى ذو العرشِ فضلَهُم ٭ يُبنى لهم فى جِنانِ الخُلْدِ مُرْتَفَقُ
المطعمون إذا ما أزمةٌ أزمتْ ٭ والطّيّبون ثيابا كلما عَرِقوا
كأنّ آخرَهُمْ فى الجُودِ أوّلُهُمْ ٭ إنّ الشَّمائلَ والأخلاقَ تتَّفِقُ
إن قامَرُوا قَمَروا أوْ فاخروا فخروا ٭ أو ناضلوا نَضلوا أو سابقوا سبَقوا
تنافَس الأرْض موْتاهم إذا دُفِنوا ٭ كما تَنُوفس عندَ الباعةِ الورِق

وقال فيهم أيضاً :

وفيهم مقامات حسانٌ وجوهُهم ٭ وأندية ينتابها القول والفعل
على مُكثِريهم حق من يعتَفيهمُ ٭ وعند المُقلّين السماحة والبذل
فما كان من خير أتوه فإنما ٭ توارثه آباء آبائهم قَبْلُ
وهل يُنبت الخَطِّىَّ إلا وشيجُه ٭ وتُغرس إلا فى منابتها النخل

٭ ٭ ٭

شيء عن كعب ابن مامة

وأما كعب بن مامة الإيادىّ فلم يأت عنه إلا ما ذُكر من إيثاره رفيقه النَّمَرىّ بالماء حتى مات عطشا ونجا النَّمرىّ ، وهذا أكثر من كل ما أُتى لغيره.

وله يقول حبيب :

يَجودُ بالنّفْسِ إن ضنّ البخيلُ بها ٭ والجُودُ بالنّفْسِ أقصى غايةِ الجودِ

وله ولحاتم الطائى يقول :

كعْبٌ وحاتمٌ اللذانِ تقسَّما ٭ خِطَط العُلا مِنْ طارِف وتليدِ
هذا الذى خلَفَ السّحابَ وماتَ ذا ٭ فى الجد ميتةَ خِضْرِمٍ صِنْديدِ
إلا يكنْ فِيها الشّهيدَ فقوْمُهُ ٭ لا يَسْمَحُون به بألف شهيدِ

أجواد أهل الإسلام

عدتهم

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا فى عصر واحد ، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم .

أجواد الحجاز

فأجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد : عُبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

أجواد البصرة

وأجواد البصرة خمسة فى عصر واحد وهم : عبد الله بن عامر بن كريز ، وعُبيد الله بن أبى بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومُسلم بن زياد ، وعُبيد الله بن معمر القُرشى ثم التيمى . وطلحة الطلحات ، وهو طلحة بن عبدالله ابن خلف الُخزاعى ، وله يقول الشاعر يرثيه ، ومات بسجستان وهو والٍ عليها .

نضَّرَ اللهُ أعظُمًا دفنُوها ٭ بسجِسْتانَ طلْحَةَ الطَّلَحاتِ

أجواد الكوفة

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة فى عصر واحد ، وهم : عتّاب بن ورقاء الرّياحى وأسماء بن خارجة الفَزارىّ . وعِكرمة بن رِبعى الفيّاض .

فمن جود عبيد الله بن عباس

شىء عن عبيدالله ابن عباس

أنه أول من فطر جيرانَه . وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حَيّا على طعامه ، وأول من أنهبه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وفى السّنةِ الشهباء أطْعَمْتَ حامِضًا ٭ وحُلْوًا ولَحْمًا تامِكا ومُمَزّعَا
وأنتَ ربيعٌ لليتــامَى وعِصْمَةٌ ٭ إذا المَحْلُ من جَوِّ السّماء تطلّعَا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحْمَةً ٭ وغَوْثًا ونورًا للخلائق أجْمَعَا

ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال : يابن عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت إليها . فصعّد فيه بصره وصوّبه ، فلم يعرفه ، ثم قال له : مايَدُكَ عندنا ؟ قال : رأيتك واقفاً بزَمْزَم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك ، فظلّلتك بطرف كسائى حتى شربت . قال : إنى لأذكر

ذلك وإنه يتردد بين خاطرى وفكرى . ثم قال لقيِّمه : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا . فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد ولده سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم شفع بك وبأبيك .

ومن جوده أيضاً : أنّ معاوية حبس عن الحسين بن علىّ صِلاتِه حتى ضاقت عليه حاله ، فقيل [له] : لو وجّهت إلى ابن عمك عبيد الله ، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف درهم . فقال الحسين : وأين تقع ألف ألف من عُبيد الله ؟ فوالله لَهُو أجوَدُ من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر . ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حَبْسَ معاوية عنه صِلاتِه وضيقَ حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم . فلما قرأ عبيد الله كتابه ، وكان من أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً ، انهملت عيناه ثم قال : ويلك يا معاوية مما اجترحتْ يداك من الإثم حين أصبحت لين المهاد رفيع العماد ، والحسينُ يشكو ضيقَ الحال وكثرةَ العيال . ثم قال لقهرمانه : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضّة وذهب وثوب ودابة ، وأخبِرْه أنى شاطرتهُ مالى ، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر . فقال له القيم : فهذه المُؤن التى عليك من أين تقوم بها ؟ قال : إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمر يُقيم حالك ! فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال : إنا لله ! حَمّلتُ والله على ابن عمى وما حسبتُه يتسع لنا بهذا كله . فأخذ الشطر من ماله . وهو أول مَن فعل ذلك فى الإسلام .

ومن جوده أن معاوية بن أبى سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النّيروز حُللًا كثيرة ومِسْكا وآنية من ذهب وفضة ، ووجّهها مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل فى نفسك منها شىء ؟ قال : نعم والله ، إنّ فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام . فضحك عُبيد الله وقال : فشأنَك بها فهى لك . قال : جُعلتُ

فداك ، أخاف أن يبلغ ذلك معاويةَ فيجدَ علىّ . قال : فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن ، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا . فقال الحاجب : والله لَهذه الحيلةُ فى الكرم أكثرُ من الكرم ، ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه – يعنى معاوية – فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه ، قال : دع عنك هذا الكلام ، فإنا قوم نَفِى بما وعدنا ولا ننقض ما أكّدنا .

ومن جوده أيضاً أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له : تَصدّق ، فإنى نُبِّئتُ أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه ! فقال له : وأين أنا من عُبيد الله ؟ قال أين أنت منه فى الحَسب أم كثرةِ المال ؟ قال : فيهما . قال : أما الحَسب فى الرجل فمروءتُه وفعلُه ، وإذا شئتَ فعلت ، وإذا فعلت كنت حَسيبا . فأعطاه ألفى درهم واعتذر له من ضيق الحال ؛ فقال له السائل : إن لم تكن عُبيد الله بن عباس فأنت خير منه ، وإن كنت هو فأنت اليوم خيرٌ منك أمس . فأعطاه ألفاً أخرى . فقال السائل : هذه هِزّةُ كريم حسيب ، والله لقد نقرتُ حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك ، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحى .

ومن جوده أيضاً : أنه جاءه رجل من الأنصار فقال : يابن عم رسول الله ، إنه وُلد لى فى هذه الليلة مولود ، وإنى سمّيته باسمك تبركا منى به ، وإن أمه ماتت . فقال عبيد الله : بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة . ثم دعا بوكيله فقال : انطلق الساعةَ فاشتر للمولود جارية تَحضنه ، وادفع إليه مائتى دينار للنفقة على تربيته . ثم قال للأنصارى . عُدْ إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا وفى العيش يُبس وفى المال قِلّة . قال الأنصارى : لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا ، ولكنه سبقك فصرتَ له تاليا ، وأنا أشهد أنّ عفوَك أكثرُ من مجهوده ، وطَلّ كرمك أكثر من وابله .

جود عبد الله بن جعفر

شىء عن عبدالله ابن جعفر

ومن جُود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبى عمّار دخل على نخّاس يعرض قِيانا له ؛ فعلق واحدةً منهن ، فشُهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس

ومُجاهد يعذلونه ، فكان جوابه أن قال :

يَلُومُنِي فِيكِ أقْوامٌ أجالِسُهمْ . فما أُبالِي أطارَ اللَّوْمُ أمْ وقَعَا

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر ، فلم يكن له همّ غيره ، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم ، وأمر قيِّمة جواريه أن تزيّنها وتحلّيها ، ففعلت ؛ وبلغ الناسَ قدومُه فدخلوا عليه ، فقال : مالى لا أرى ابن أبى عمار زارَنا ؟ فأُخبِر الشيخُ ، فأتاه مسلّما . فلما أراد أن ينهض آستجلسه ، ثم قال : ما فَعَل حُبُّ فلانة ؟ قال : فى اللحم والدم والمخ والعَصب . قال : أتعرفها لو رأيتها ؟ قال : لو أُدْخِلتُ الجنةَ لم أنكرها . فأمر بها عبدُ الله أن تخرج إليه ، وقال له : إنما اشتريتها لك ، ووالله مادنوتُ منها ، فشأنك بها مباركا لك فيها . فلما ولّى قال : يا غلام ، احمل معه مائة ألف درهم يَنعم بها معها . قال : فبكى عبد الرحمن فرحا وقال : يأهل البيت ، لقد خصّكم الله بشرف ما خَصّ به أحداً قبلكم من صُلب آدم ، فتهنئكم هذه النعمة ، وبورك لكم فيها .

ومن جوده أيضاً أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيما ، فقيل له : إنها لا تعرفك وكان يُرضيها اليسير . قال : إن كان يرضيها اليسير فإنى لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى .

جود سعيد بن العاص

شىء عن سعيد ابن العاص

ومن جود سعيد بن العاص أنه مرض وهو بالشام ، فعاده معاوية ومعه شُرَحبيل بن السِّمْط ، ومُسلم بن عُقبة المُرى ، ويزيد بن شجرة الرّهاوي . فلما نظر سعيد معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظاماً لمعاوية ، فقال له معاوية : أقسمتُ عليك أبا عثمان ألّا تتحرك ، فقد ضَعُفْتَ بالعلة . فسقط ؛ فتبادر معاويةُ نحوه حتى حنا عليه ، وأخذ بيده فأقعده على فراشه وقعد معه ، وجعل يُسائله عن عِلّته ومَنامه وغذائه ، ويصف له ما ينبغى أن يتوقّاه ، وأطال القُعود معه ؛ فلما خرج التفت إلى شُرحبيل بن السِّمط ، ويزيد بن شجرة ، فقال : هل رأيتما خَللا فى مال أبى عثمان ؟ فقالا : ما رأينا شيئاً ننكره . فقال لمُسلم بن عقبة : ماتقول ؟

قال : رأيت . قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت على حَشَمه ومواليه ثياباً وَسِخة ، ورأيتُ صحن داره غيرَ مكنوس ، ورأيت التجّار يُخاصمون قَهرمانه . قال : صدقت ، كل ذلك قد رأيتُه . فوجه إليه مع مُسلم بثلثمائة ألف ، فسبق رسولٌ يبشّره بها ويُخبره بما كان . فغضب سعيد وقال للرسول : إن صاحبك ظن أنه أحسنَ فأساء ، وتأول فأخطأ ؛ فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركتِه آتسخ ثوبه ، وأما كَنْس الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل دارَه مِرآتَه ، وتَزْيِنَتَه لُبْسَه ، ومعروفَه عِطره ، ثم لا يبالى بمن مات هُزْلا من ذى لحُمة أو حُرمة . وأما مُنازعة التجار قهرمانى فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه ؛ لم يجد بُدًا من أن يكون ظالمـاً أو مظلوماً . وأما المـال الذى أمر به أمير المؤمنين فوصلته كل ذى رحم قاطعة وهنأته كرامتُه المُنعَم بها عليه ، وقد قَبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف ، ولشُرحبيل بن السّمط بمثلها ، وليزيد بن شَجرة بمثلها ، وفى سعة الله وبَسْط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلنا .

فركب مُسلم بن عُقبة إلى معاوية فأعلمه ، فقال : صدق آبن عمى فيما قال ، وأخطأت فيما انتهيت إليه ، فاجعل نصيبك من المال لروْح بن زِنْباع عقُوبةً لك ، فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها ، كما أنه من فعل خيرا كوفئ عليه .

ومن جوده أيضا أن معاوية كان يُداول بينه وبين مروان بن الحكم فى ولاية المدينة ، فكان مروان يُقارضه ، فلما دخل على معاوية قال له : كيف تركت أبا عبد الملك ؟ يعنى مروان . قال : تركته منفِّذا لأمرك ، مُصلحا لعملك . قال معاوية : إنه كصاحب الخُبْزَة : كُفِى إنضاجها فأكلها ! قال : كلا يا أمير المؤمنين ؛ إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا ، ولا يحصدون إلا ما زرعوا . قال : فما الذى باعد بينك وبينه ؟ قال خِفْتُه على شرفى وخافنى على مثله . قال : فأى شىء كان له عندك ؟ قال : أَسُوؤُهُ حاضرا وأَسُرُّه غائبا . قال : يا أبا عثمان ، تركتنا فى هذه الحروب . قال : حملتَ الثقل وكُفيتَ الحزم . قال : فما أبطأ بك ؟ قال غَناؤك غنى أبطأنى عنك ، وكنتُ قريبا لو دعوتَ لأجبناك ، ولو أمرتَ لأطعناك . قال :

ذلك ظنُّنا بك . فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يأهل الشام ، هؤلاء قومى وهذا كلامهم . ثم قال : أخبرْنى عن مالِك ، فقد نُبِّئت أنك تَتَحَرَّى فيه . قال : يا أمير المؤمنين ، لنا مالٌ يَخْرُج لنا منه فَضْل ، فإذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قِلّته ، وإن كان كثيرا فكذلك ، غير أنا لاندخر منه شيئا عن مُعْسِر ولا طالب ولا مستحمل ، ولا نستأثر منه بِفِلْذة لحم ولا مُزعة شحم . قال : فكم يدوم لك هذا ؟ قال من السَّنة نِصْفَها . قال : فما تصنع فى باقيها ؟ قال : نجد من يُسلفنا ويُسارع إلى معاملتنا . قال : ما أحدٌ أحْوَج إلى أن يصلح من شأنه منك . قال : إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين ، ولو زدت فى مالى مثلَه ما كنتُ إلا بمثل هذه الحال . فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم ، وقال : اشترِ بها ضيعة تُعينك على مروأتك . فقال سعيد : بل أشترى بها حمداً وذكرا باقيا . أُطعم بها الجائع ، وأُزوج بها الأيِّم ، وأفكّ بها العانى ، وأواسى بها الصديق ، وأصلح بها حال الجار فلم تأت عليه ثلاثة أشهرٍ وعنده منها درهم . فقال معاوية : ما فضيلةٌ بعد الإيمان بالله هى أرفعُ فى الذكر ولا أنبه فى الشرف من الجود ، وحَسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته .

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعىّ ، قال : كان سعيد بن العاص يسمُر معه سماره إلى أن ينقضى حينٌ من الليل ، فانصرف عنه القوم ليلةً ورجلٌ قاعد لم يقم ، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال : حاجتَك يا فتى ؟ فذكر أنّ عليه ديناً أربعةَ آلافِ درهم ، فأمر له بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثرَ من عطائه .

جود عبيد الله بن أبى بكرة

ومن جود عبيد الله بن أبى بكرة أنه أدلى إليه رجل بحرمة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فقال : أصلحك الله ، ما وصلنى أحدٌ بمثلها قط ، ولقد قطعتَ لسانى عن شكر غيرك ، وما رأيتُ الدنيا فى يد أحد أحسنَ منها فى يدك ، ولو لا أنت لم تبق لها بهجةٌ إلا أظلمتْ ، ولا نورٌ إلا انطمس . شىء من عبيد الله ابن أبى بكرة

جود عبيد الله بن معمر القرشى التيمى

شيء عن عبيد الله ابن معمر

ومن جود عبيد الله بن معمر القرشى، أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدّبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت فى جميع ذلك، ثم إنّ الدهر قَعَد بسيّدها ومال عليه. وقَدِمَ عبيدُ الله بن مَعمر البصرة من بعض وجوهه، فقالت لسيدها: إنى أريد أن أذكر لك شيئا أستحى منه، إذ فيه جفاء منى، غير أنه يُسَهّلُ ذلك علىّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاحتياج وضيق الحال، وهذا عُبيد الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمتَ شرفه وفضلَه وسعة كفِّه وجودَ نفسه، فلو أذنتَ لى فأصلحت من شأنى ثم تقدمتَ بى إليه وعرضتَنى عليه هدية، رجوتُ أن يأتيك من مُكافأته ما يُقيلك الله به ويُنهِضُك إن شاء الله. قال: فبكى وجداً عليها وجزعا لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبدا. ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدى عبيد الله فقال: أعزك الله، هذه جاريةٌ ربّيتها ورضيتُ بها لك، فاقبلْها منى هدية. فقال: مثلى لا يَستهدى من مثلك؛ فهل لك فى بيعها فأُجْزِلَ لك الثمن عليها حتى ترضى؟ قال: الذى تراه. قال: يُقْنِعُك منى عَشْرُ بِدَرٍ فى كل بدرة عشرةُ آلاف درهم؟ قال: والله ياسيدى ما امتدّ أملى إلى عُشْرِ ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور. فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدى الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلى الحجاب. فقال سيدها: أعزك الله! لو أذنتَ لى فى وداعها! قال: نعم. فوقفت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوحُ بحُزْنٍ من فِراقِكَ مُوجِعٍ * أقاسِى به ليْلًا يُطيلُ تفكُّرى
ولولا قُعودُ الدهرِ بى عنك لم يكن * يُفرِّقُنا شىءٌ سوى الموتِ فاعْذُرى
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا * ولا وصْلَ إلا أنْ يشاء ابنُ مَعْمَرِ

قال عبيد الله بن معمر: قد شئتُ ذلك، فخذ جاريتك وبارك الله لك فى المال. فذهب بجاريته وماله فعادَ غنيّا.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون فى الجُود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسَمَّينا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شُهروا بالجود وعُرفوا بالكرم، وحُمدت أفعالهم، وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى:

الطبقة الثانية من الأجواد

فنهم الحكم بن حَنْطَب

شىء عنه قيل لنصيب بن رباح: خَرِفَ شِعرُك أبا محجن! قال: لا، ولكن خَرِفَ الكرم؛ لقد رأيتُنى ومدحتُ الحكمَ بن حنطب، فأعطانى ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابى الحكم بن حَنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابى، فقال: ما يُبكيك يا أعرابى؟ لعلك استقللت ما أعطيناك! قال: لا والله، ولكنى أبكى لِما تأكلُ الأرضُ منك، ثم أنشأ يقول:

وكأنّ آدمَ حين حانَ وفاتُهُ ٭ أوْصاكَ وهوَ يَجودُ بالحَوْباءِ
بِبَنيهِ أنْ تَرْعاهمُ فرَعَيْتَهُم ٭ فكفَيْتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناءِ

العتبى قال: أخبرنى رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحَكَم بن حنطب وهو مُمْلِقٌ فأغنانا! قال له: كيف أغناكم وهو مُملق؟ قال: علّمنا المكارمَ، فعاد غنيُّنا على فقيرنا.

ومنهم معن بن زائدة

شىء عنه وكان يقال فيه: حدِّث عن البحر ولا حَرَج، وحدِّث عن معن ولا حَرَج:

وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطِه فرسا وبِرْذَوْناً وبَغلا وعَيْرًا وبَعيرا وجارية. وقال: لو عرفتُ مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك.

العتبى قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان ابن أبى حفصة فأخذ بعضادتى الباب، فأنشده شعره الذى قاله فيه:

فما أحجَمَ الأعداءُ عنكَ بَقيَّةً ٭ عليكَ، ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مطمَعا
لهُ راحتانِ الحَتْفُ والجُودُ فيهما ٭ أبَى اللهُ إلّا أنْ يضُرَّ وينفَعا

ومنهم يزيد بن المهلب

شيء عنه

وكان هشام بن حسّان إذا ذكره قال : والله إن كانت السفنُ لتجْرى فى جوده .

وقيل ليزيد بن المهلّب : مالك لا تبنى دارا ؟ قال : منزلى دار الإمارة أو الحبس .

ولما أُتى يزيدُ بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب ، نال منه بعضُ جلسائه فقال له : مَهْ ! إن يزيد بن المهلّب طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما .

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلّب فى الحبس فأنشده :

صَحَّ فى قَيْدِكَ السماحَةُ والمجْ ـ ـدُ وفَكُّ العُناة والإفضالُ

قال : أتمدحنى وأنا فى هذه الحال ؟ قال . أصبتُك رخيصاً فاشتريتك . فأمر له بعشرة آلاف .

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير : أَغْرَم ديتَك خمسين مرة . قال : ليس عندى ما أغْرَم . قال : والله لتَغْرَمَنّ ديتك مائة مرة . قال يزيد بن المهلّب : أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين . قال : اغرم . فغرمها عنه مائة ألف .

العتبى قال : أخبرنى عَوانة قال : استعمل الوليدُ بن عبد الملك عثمان بن حيّان المُرّى على المدينة وأمره بالغِلظة على أهل الظِّنّة ؛ فلما استُخْلِف سليمان أخذه بألفى ألف درهم ؛ فاجتمعت القيسية فى ذلك فتحمّلوا شطرها وضاقوا ذرعا بالشطر الثانى . ووافق ذلك استعمالُ سليمانَ يزيد بن المهلب على العراق . فقال عمر بن هبيرة : عليكم بيزيد بن المهلّب ، فما لها أحدٌ غيره ! فتحملوا إلى يزيد وفيهم عُمر بن هُبيرة ، والقَعقاع بن حبيب ، والهُذيل بن زُفر بن الحارث ، وانتهوا إلى رُواق يزيد . قال يحيى بن أقتل ـ وكان حاجباً ليزيد بن المهلب وكان رجلا من الأزد ـ فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرّب ورحّب ، ثم دعا بالغداء ، فأُتوا بطعامٍ ما أنكروا منه أكثرُ مما عرفوا ، فلما تغَدّوْا تكلم عثمان بن حيّان وكان لَسناً

مفوّها ، وقال : زادك الله فى توفيقك أيها الأمير ، إن الوليد بن عبد الملك وجّهنى إلى المدينة عاملا عليها ، وأمرنى بالغلظة على أهل الظنّة والأخذ عليهم ؛ وإن سليمان أغرمنى غُرماً ، والله ما يَسَعُه مالى ولا تحمله طاقتى ؛ فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خفّ عليك ، وما بقى والله ثقيلٌ علىّ . ثم تكلم كل منهم بما حضره ، وقد اختصرنا كلامهم .

فقال يزيد بن المهلب : مرحباً بكم وأهلا ، إن خير المال ما قُضى فيه الحقوقُ وحُمِلت به المغارم ، وإنما لى من المال ما فَضَلَ عن إخوانى ، وأيمُ اللهِ لو علمتُ أن أحدا أملأ بحاجتكم منى لهديتُكم إليه فاحتكموا وأكثِروا . فقال عثمان بن حيان : النصف أصلح الله الأمير . قال : نعم وكرامة ، اغدُوا على مالِكم فخذوه .

فشكروا له وقاموا فخرجوا . فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هُبيرة : قبّح الله رأيكم ، والله ما يبالى يزيد أنِصفها تحمّل أم كلّها . فمن لكم بالنصف الباقى ؟ قال القوم : هذا والله الرأىُ ! وسمع يزيدُ مُناجاتهم ، فقال لحاجبه : انظر يا يحيى إن كان بقى على القوم شىء فليرجعوا ، فرجعوا إليه وقالوا : أقِلْنا قال : قد فعلت . قالوا : فإن رأيت أن تحملها كلَّها فأنت أهلُها ، وإن أبيْتَ فما لها أحد غيرك ، قال : قد فعلت .

وغدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان فقال : يا أمير المؤمنين ، أتانى عثمان بن حيّان وأصحابه . قال : أمْسِكْ فى المال ؟ قال : نعم . قال سليمان : والله لآخذنّهُ منهم . قال يزيد : إنى قد حملتهُ . قال : فأدّه : قال يزيد والله ما حملته إلا لأؤدّيه ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن هذه الحَمَالة وإن عظُم خطبُها ، لَحَمْدُها والله أعظمُ منها ، ويدى مبسوطة بيدك ، فابسطها لسؤالها . ثم غدا يزيد بالمال على الخُزّان فدفعه إليهم . فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال ، فقال : وفت يمينُ سليمان ، احملوا إلى أبى خالد ماله .

فقال عدى بن الرقاع العاملى :

وللهِ عَيْنا مَنْ رأى كَحَمَالةٍ * تَحمَّلَها كَبْشُ العِـــراقِ يَزيدُ

الأصمعى قال : قدم على يزيد بن المهلّب قومٌ من قُضاعة من بنى ضبّة ، فقال رجل منهم :

واللهِ ما نَدْرى إذا ما فاتَنا * طَلَبٌ إليكَ مَن الّذِى نَتَطَلَّبُ ؟

ولقدْ ضَرَبْنا فى البلادِ فلمْ نَجِدْ * أحداً سِواكَ إلى المكارِمِ يُنْسَبُ

فاصبرْ لعادَتِنا التى عوَّدْتَنا * أوْ لا فأرْشِدْنا إلى مَنْ نَذْهَبُ ؟

فأمر له بألف دينار ؛ فلما كان فى العام المقبل وفد عليه فقال :

مالى أرَى أبوابَهُمْ مَهْجُـــورةً * وكأن بابَكَ مَجْمَعُ الأسْواقِ

أرَجَوْكَ أمْ خافُوكَ أمْ شامُوا النَّدَى * بِيدَيْكَ فاجْتَمَعُوا مِنَ الآفاقِ

إنّى رأيْتُكَ للكارِمِ عاشِـــقاً * والمَكْرُماتُ قَليـــلةُ العُشّاقِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

ومر يزيد بن المهلّب فى طريق البصرة بأعرابيّة ، فأهدت إليه عنزا ، فقبلها وقال لابنه معاوية : ماعندك من نفقة ؟ قال : ثمانمائة درهم . قال : ادفعها إليها ! قال إنها لا تعرفك ويُرضيها اليسير قال : إن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى ، وإن كان يُرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير .

ومنهم يزيد بن حاتم

شىء عنه

وكتب إليه رجل من العلماء يستوصله ، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه : «أما بعد ، فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً ، لا أُكثّرها آمتناناً ، ولا أقلّلها تجبّراً ، ولا أستثيبك عليها ثناء ، ولا أقطع لك بها رجاء ، والسلام» .

وكان ربيعة الرَّقى قد قدم مصر فأتى يزيدَ بن حاتم الوردى فلم يُعطه شيئا ، فشغل عنه ببعض الأمر ، فخرج وهو يقول :

أُرانى ولا كفرانَ للهِ راجِعًا * بِخُفَّىْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتِمِ

فسأل عنه يزيد ، فأُخبر أنه قد خرج وقال كذا ، وأنشد البيت ؛ فأرسل فى طلبه فأُتى به ، فقال : كيفَ قلت ؟ فأنشده البيت ؛ فقال شُغِلنا عنك ! ثم أمر بخُفَّيْهِ نخلِعَتا من رجليه ومُلِئتا مالًا ، وقال : ارجع بهما بدلا من خُفَّىْ حُنَين ! فقال فيه لما عُزل عن مصر وولى مكانه يزيد بن حاتم :

بكَى أهلُ مِصْرٍ بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ٭ غداةَ غدَا منها الأغرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول :

لشتَّانَ ما بَينَ اليزيدَيْنِ فى النَّدى ٭ يَزيدَ سُلَيْمٍ والأغرِّ ابنِ حاتِمِ
فَهمُّ الفَتى الأزدىِّ إتلافُ مالِه ٭ وهَمُّ الفتى القيْسىِّ جَمْعُ الدَّراهِمِ
فلا يَحْسَبِ التَّمتَامُ أنِّى هَجوْتُهُ ٭ ولكنَّنى فضَّلتُ أهلَ المَكارِمِ [1]

وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه ، فلما بلغ مصر وجده قد مات ؛ فقال فيه :

لئن مِصْرُ فاتتْنى بما كُنْتُ أرتَجى ٭ وأخلَفَنى منها الذى كُنْتُ آمُلُ
فما كُلُّ ما يَخْشَى الفتَى بمُصِيبه ٭ ولا كُلُّ ما يَرْجُو الفتَى هُوَ نائِلُ
وما كان بيْنِى لوْ لقِيتُكَ سالِماً ٭ وبيْنَ الغِنى إلّا ليالٍ قلائلُ

ومنهم أبو دُلف

واسمه القاسم بن إسماعيل ، وفيه يقول علىُّ بن جَبلة :

إنما الدنْيا أبو دُلَفٍ ٭ بين مَبْدَاهُ ومُحْتضَرِهْ
فإذا ولَّى أبو دُلَفٍ ٭ ولَّتِ الدنيا على أثَرِهْ

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة :

الله أجرَى من الأرزاق أكثَرها ٭ على العبادِ ، على كَفَّىْ أبى دلَفِ
بَارَى الرياحَ فأعطَى وهْىَ جارية ٭ حتى إذا وقفَتْ أعطى ولم يقِفِ

(١) تقدم هذا الخبر.

ما خطَّ «لا» كاتباهُ فى صحيفتِهِ * يوماً كما خُطَّ «لا» فى سائرِ الصُّحُفِ

فأعطاه ثلاثين ألفا.

ومدحه آخر فقال فيه :

يُشْبِهُه الرَّعْدُ إذا الرعدُ رَجَفْ * كأنهُ البَرْقُ إذا البرقُ خَطفْ
كأنه الموتُ إذا الموتُ أَزِفْ * تَحمِلُهُ إلى الوغى الخيْلُ القُطُفْ
إن سارَ سارَ المجدُ أو حَلَّ وقَفْ * انظر بعينَيكَ إلى أسْنَى الشَّرَفْ
هـــل ناله بقُدْرةٍ أو بِكُلَفْ * خَلْقٌ من الناسِ سِوى أبى دُلَفْ

فأعطاه خمسين ألفاً .

ومن أخبار معن بن زائدة

شىء عنه

قال شَراحيل بن معن بن زائدة : حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضى ، وكنت كثيرا ما أسايره ، إذ عرض له أعرابىّ من بنى أسد فأنشده شعرا مدحه فيه وأفرط ، فقال له هارون : ألم أنْهَكَ عن مثل هذا فى مدحك يا أخا بنى أسد ؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل فى أب هذا :

بَنو مطر يوم اللقــاءِ كأنهمْ * أُسودٌ لهـا فى غِيلِ خِفّانَ أَشْبُلُ
هم يَمنعون الجـارَ حتى كأنما * لجـارِهِمُ بيْنَ السِّماكيْنِ مَنزِلُ
بَهاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأوّلهمْ فى الجــاهليَّةِ أوّلُ
وما يَستطيعُ الفاعلون فَعالَهمْ * وإن أحسَنوا فى النائباتِ وأجْمَلوا
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعوا * أجابوا وإن أعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

ومنهم خالد بن عبد الله القسرى

شىء عنه

وهو الذى يقول فيه الشاعر :

... إلى خالدٍ حتى أُنِخْنَ بخالدٍ * فنِعْمَ الفتى يُرْجى ونِعمَ المُؤمَّلُ

بينا خالد بن عبد الله القسرى جالس فى مظلة له ، إذ نظر إلى أعرابى يخبّ به بعيره مُقبِلًا نحوه ؛ فقال لحاجبه . إذا قدم فلا تحجبْه . فلما قدم أدخله عليه ، فسلّم وقال :

أَصْلحَكَ اللهُ قلَّ ما بيَدى ٭ فما أُطِيقُ العِيالَ إذ كَثُروا
أناخَ دهْــرٌ أَلْقى بكَلْكَلِه ٭ فأَرْسَلونى إليكَ وانْتظروا

فقال خالد : أرسلوك وانتظروا ؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرُّهم . وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة .

ومنهم عدىّ بن حاتم

شىء عنه

دخل عليه ابن دارة فقال : إنى مدحتُك . قال : أَمْسِك حتى آتيك بمالى ثم امدحْنى على حَسبه ، فإنى أكره ألّا أُعطيك ثمنَ ما تقول ، لى ألفُ شاة ، وألفُ درهم ، وثلاثةُ أعبد ، وثلاث إماء ، وفرسى هذا حُبس فى سبيل الله ، فامدحنى على حسب ما أخبرتك . فقال :

تَحِنُّ قَلُوصِى فى مَعَــدٍّ ، وإنما ٭ تُلاقى الرَّبيعَ فى ديارِ بنى ثُعَــلْ
وأبقَى الليالى مِن عَدِىِّ بن حاتمٍ ٭ حُساماً كنَصْل السيف سُلَّ مِنَ الخِلَلْ
أبوكَ جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبــارُهُ ٭ وأنت جَوادٌ لستَ تُعْذَر بالعِلَلْ
فإنْ تَفعلوا شرًّا فمثلُكمُ اتَّقى ٭ وإن تفعلوا خــيرا فمثلُكمُ فَعَلْ

قال له عدى : أمسك ؛ لا يبلغُ مالى أكثرَ من هذا .

أصفاد الملوك على المدح

بين الرشيد وباهلى

سعيد بن مُسلم الباهلى قال : قدمْ على الرشيد أعرابى من باهلة وعليه جُبة حِبَرة ، ورداء يَمَان قد شدَّه على وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قد عصبها على فَوْدَيه وأرخى لها عَذَبة من خَلْفه ، فمَثَلَ بين يدى الرشيد ، فقال سعيد : يا أعرابى ، خذ فى شَرفِ أمير المؤمنين . فاندفع فى شعره . فقال الرشيد :

يا أعرابى ، أسمعك مُستحسِنا وأُنكرك متَّهما ؛ فقل لنا بيتين فى هذين - يعنى محمداً الأمينَ وعبدَ الله المأمونَ ابنيه ، وهما عن حفافيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حملتنى على الوعْرِ القَرْدَد ورجعتنى عن السَّهْل الجَدَد ، وروعةُ الخلافة ، وبُهْرُ الدرجة ، ونفورُ القوافى على البديهة ؛ فأرْوِدْنى تتألف لى نوافِرُها ويسكن روعى . قال : قد فعلتُ ، وجعلتُ اعتذارَك بدلا من امتحانك . قال : يا أمير المؤمنين ، نفّست الخناق ، وسهلت ميدان السباق ؛ فأنشأ يقول :

بَنَيْتَ لعبـــدِ اللهِ ثمّ محمـدٍ ﴿ ذُرَا قُبّةِ الإسلام فاخضرّ عودُها
هما طُنُباها ، باركَ اللهُ فيهما ﴿ وأنتَ أميرَ المؤمنينَ عمودُها

فقال الرشيد : وأنت يا أعرابى ، بارك الله فيك ! فَسَلْ ولا تكن مسألتُك دون إحسانك . قال الهُنَيْدَةَ يا أمير المؤمنين . فأمر له بمائة ناقة وسبع خِلَع .

المهدى ومروان ابن أبى حفصة

وقال مَروان بن أبى حفصة : دخلت على المهدىّ فاستنشدنى ، فأنشدته الشعر الذى أقول فيه :

طرقتْكَ زائرةً فحىِّ خيالَهـا ﴿ بَيضاء تَنشُرُ بالحياء دلالَها
قادتْ فؤادَكَ فاستَقادَ ومِثلُها ﴿ قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

حتى انتهيت إلى قولى :

شَهدتْ من الأنفالِ آخرُ آية[1] ﴿ بتُراثِهِمْ فرجوْتُمُ إبطالَها
هل تَطمِسونَ منَ السماء نجومَها ﴿ بأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرون هِلالَها
أو تجحدون مَقالةً عن ربِّكُمْ ﴿ جِـــبريلُ بَلّغَها النبىَّ فقالَها

قال : وأنشدته أيضاً شعرى الذى أقول فيه :

يابن الذى وَرِثَ النبىَّ محمداً ﴿ دون الأقاربِ منْ ذوى الأرحامِ
الوحىُ بَيْنَ بَنِى البَناتِ وبينَكُمْ ﴿ قَطعَ الخِصام فلاتَ حين خِصامِ

---

(١) يريد قوله تعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) .

ما للنساء مع الرِّجالِ فريضةٌ ۞ نَزَلت بِذلك سورةُ الأنعامِ
أنى يكون وليسَ ذاك بكائنٍ ۞ لِبَنِى البناتِ وِراثةُ الأعمامِ
ألغَى سِهامَهمُ الكتابُ فحاوَلوا ۞ أن يَشْرَعوا فيها بغيرِ سِهامِ
ظَفِرَتْ بَنو ساقى الحَجيجِ بحقّهم ؛ وغُرِرْتُمُ بتوهُّمِ الأحلامِ

قال مروان بن أبى حفصة : فلما أنشدت المهدىّ الشعرين قال : وجب حقُّك على هؤلاء ـ وعنده جماعة من أهل بيته ـ قد أمرتُ لك بثلاثين ألفاً ، وفَرَضْتُ على موسى خمسةَ آلاف ، وعلى هارون مثلَها ، وعلى علىّ أربعة آلاف ، وعلى العبّاس كذا ، وعلى فلان كذا فحَسَبْتُ سبعين ألفاً . قال : فأمر بالثلاثين ألفاً فأتى بها ، ثم قال : اغدُ على هؤلاء وخُذ ما فَرضتُ لك . فأتيت موسى فأمر لى بخمسة آلاف ، وأتيت هارون فأمر لى بمثلها ، وأتيت عليا ، قال : قَصَّر بى دون إخوتى فلن أُقصِّر بنفسى . فأمر لى بخمسة آلاف فأخذت من الباقين سبعين ألفاً .

عبد الملك وأعشى ربيعة

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان ، وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان : فقال له عبد الملك : ماذا بقى يا أبا المغيرة ؟ قال : مضى ما مضى وبقى ما بقى . وأنشأ يقول :

وما أنا فى حَقى ولا فى خُصومتى ۞ بمُهْتَضَمٍ حَقى ولا قارِعٍ سِنّى
ولا مُسلِمٍ مَوْلاى مِن سوءِ ماجَنَى ۞ ولا خائفٍ مولاى من سوء ما أَجْنِي
وفَضْلِىَ فى الأقوامِ والشِّعرِ أننى ۞ أقولُ الذى أعْنى وأَعْرِفُ ما أَعنى
وأنّ فؤادى بين جَنْبَىَّ عالمٌ ۞ بما أبصَرَتْ عيْنى وما سَمِعَتْ أُذْنى
وإنى وإنْ فَضلتُ مروانَ وابنَهُ ۞ على الناسِ، قد فَضَّلْتُ خيْرَ أبٍ وابْن

فضحك عبد الملك وقال للوليد وسليمان : أتلومانى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف .

عبد الرحمن ابن الحكم والفرزدق

العتبي قال : دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفى بن أم الحكم ، فقال له عبد الرحمن : أبا فراس ، دعنى من شعرك الذى لا يأتى آخره حتى يُنْسَى أوله ، وقل فىّ بيتين يتناقلان أفواهَ الرواة ، وأُعطيكَها عطيةً لم يُعطِكها أحدٌ قبلى .

فغدا عليه وهو يقول :

وأنت ابن بَطْحاوَىْ قُرَيشٍ فإن تَشَأْ * فكن مِنْ ثَقيفٍ سَيْلِ ذى حَدَبٍ غَمْر
وأنت ابن فَرْعٍ ماجدٍ لعَقيلةٍ * تلقَّتْ له الشمسُ المُضيئة بالبدر

قال : أحسنت ، وأمر له بعشرة آلاف .

الفضل بن يحيى وفتى من التجار

أبو سويد قال : أخبرنى الكوفى قال : اعترض الفضلَ بن يحيى بن خالد فى وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شَخَص إلى الكوفة فقُطع به وأُخِذ جميعُ ما كان معه ، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال :

سأُرْسِلُ بيْتاً ليس فى الشِّعْرِ مِثْلَه * يُقَطِّعُ أعْناقَ البيوتِ الشَّوارِدِ
أقامَ النَّدى والبأسُ فى كلِّ منزلٍ * أقامَ به الفضلُ بنُ يحيى بنِ خالِد

قال فأمر له بمائة ألف درهم .

زبيدة وابن أبى حفصة فى أبيات مدح بها الأمين

العتبى : قال أبو الجنوب مروان بن أبى حفصة أبياتاً ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمدا ، وفيها يقول :

لله دَرُّكِ يا عَقيلةَ جعفرٍ * ماذا وَلَدْتِ من العُلا والسُّوددِ
إن الخلافةَ قد تَبيَّنَ نورُها * للناظرينَ على جَبينِ محمدِ

فأمرت أن يُملأ فمُهُ دُرًّا .

الحسن بن سهل وعلى بن جبلة

وقال الحسن بن رجاء الكاتب : قَدِم علينا على بن جبلة إلى عسكر الحسن ابن سهل ، والمأمونُ هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل ، المعروفة ببوران ، ونحن إذ ذاك نُجرى على نَيِّف وسبعين ألف فلّاح . وكان الحسن بن سهل مع المأمون يتصبّح ؛ فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه ، فلما قدم على بن جبلة نزل بى ، فقلتُ له : قد قوى شُغل الأمير . قال : إذاً لا أُضيع معك ! قلت : أجل . فدخلت على الحسن بن سهل فى وقت ظُهوره فأعلمتُه مكانه ؛ فقال : ألا ترى ما نحن فيه ؟ قلت : لستَ بمشغولٍ عن الأمر له . فقال . يُعطَى عشرة آلاف إلى أن نتفرّغ له . فأعلمتُ على بن جبلة ؛ فقال فى كلمة له :

أعطَيْتَنى ياوَلِيَّ الحقِّ مُبتدئًا * عَطِيَّةً كافأتْ حَمْدى ولم تَرَنى

ما شِمْتُ بَرْقَكَ حتى نِلْتُ رَيِّقَهُ * كأنما كنت بالجَدْوَى تُبادِرُنى

ابن طوق ورجل عرض له

عرض رجل لابن طَوْق وقد خرج متنزها فى الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته ، فأخذها فإذا فيها :

جعلتُك دُنْيايَ فإنْ أنتَ جُدْتَ لِي * بخَيْرٍ وإلّا فالسّلامُ على الدُّنيا

فقال : والله لأصدقنّ ظنّك . فأعطاه حتى أغناه .

عبدالله بن طاهر ودعبل بن على

عرض دعبل بن على الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراسانى وهو راكب فى حرّاقه له فى دجلة ، فأشار إليه برقعة ، فأمر بأخذها ، فإذا فيها :

عجِبْتُ لحرّاقةِ بنِ الحُسَـيْنِ كيفَ تسيرُ ولا تَغْرَقُ

وبَحْرانِ مِنْ تَحْتِها واحِدٌ * وآخرُ مِنْ فوْقِها مُطْبِقُ

وأعجبُ مِنْ ذاكَ عِيدانُها * إذا مسّها كيْف لا تُورِقُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس .

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها :

طلَعتْ قناتكَ بالسّعادةِ فوْقَها * معْقودةً بلواء مُلْكٍ مُقْبِلِ

تَهتزُّ فوْقَ طريدَتيْنِ كأنّما * تَهْفو يُقَصُّ لها جناحا أجْدَلِ

ربحَ البخيلُ على احتيالِ عِرْضَهُ * بِنَدى يدَيْكَ ووجْهِكَ المُتهلِّلِ

لو كانَ يعْلَمُ أنّ نيلَكَ عاجِل * ما فاضَ مِنْهُ جَدْوَلٌ فى جدْوَلِ

فأمر له بخمسة آلاف .

عبدالله بن طاهر وشاعر

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده :

إذا قِيلَ : أىّ فتًى تعلَمونَ * أهَشُّ إلى البأسِ والنائلِ

وأضْرَبَ لِلْهامِ يومَ الوغَى * وأطْعَمَ فى الزمَنِ الماحِلِ ؟

أشارَ إليك جَميعُ الأنامِ * إشارةَ غرْقَى إلى ساحِلِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

أحمد بن مُطير قال : أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنتُ مدحت بها بعض

الوُلاة ، وهي :

له يومُ بُؤْسٍ فيهِ للناسِ أَبْؤُس ٭ ويومُ نعيمٍ فيـهِ للناسِ أَنْعُمُ
فيقطُر يومَ الجودِ من كفِّهِ النَّدى ٭ ويقطُر يومَ البؤسِ من كفِّه الدَّمُ
فلوْ أنَّ يوم البُؤسِ لَمْ يـثْنِ كفَّهُ ٭ على الناسِ لم يُصْبِحْ على الأرضِ مُجْرِمُ
ولو أنَّ يوم الجودِ فرَّغ كفَّهُ ٭ لبذْلِ النَّدى ما كانَ بالأرضِ مُعْدِمُ

فقال لى عبد الله : كم أعطاك ؟ قلت : خمسة آلاف . قال : فقبلتها ؟ قلت نعم . قال لى : أخطأت ؛ ما ثمن هذه إلا مائةُ ألف .

أبو جعفر وحماد عجرد

ودخل حماد عجرد على أبى جعفر بعد موت أبى العبّاس أخيه فأنشده :

أبوكَ بعدَ أبى العبَّاسِ إذْ بانا ٭ يا أكرمَ الناسِ أعْراقاً وعيدَانا
لو مجَّ عود على قوم عُصارتَهُ ٭ لَمجَّ عودُك فينا المِسْكَ والبانَا

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

سعيد بن خالد وموسى شهوات

القحذمى قال : جاء موسى شَهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، فقال : إن هنا جارية تعشَّقْتُها ، وأبوا أن ينقصُونى عن مائتى دينار . فقال : بورك فيه فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد ، وأمّه عائشة بنت طلحة الطلحات فدعا بِمِطْرَف خَزٍّ فبسطه وعقد فى كل ركن من أركانه مائة دينار ، وقال لموسى خذ المُطرف بما فيه . فأخذه ، ثم غدا عليه فأنشده :

أبا خالدٍ أعنى سعيدَ بنَ خالدٍ ٭ أخا العُرْف ، لا أعنى ابن بنتِ سعيدِ
ولكنَّنى أعنِي ابنَ عائشة الذى ٭ أبو أبَوَيهِ خالدُ بنُ أسـيدِ
عَميدَ النَّدى ما عاشَ يرْضَى به النّدى ٭ فإن ماتَ لم يَرْضَ النّدى بعَميدِ
دعُوهُ دعُوه إنّكمْ قد رقدْتمُ ٭ وما هو عنْ أحسابِكمْ برَقُودِ

للزبيرى فى آل مروان

العتبى قال : سمعت عمى ينشد لأبى العباس الزبيرى :

وكلُّ خليفةٍ وولِيِّ عهْـدٍ ٭ لكمْ يا آلَ مَرْوانَ الفِـداءُ
إمارتُكمْ شفاءٌ حَيثُ كانتْ ٭ وبعضُ أمارةِ الأقوامِ داءُ

فأنتمْ تُحسِنُون إذا مَلَكْتُم * وبعضُ القومِ إن مَلكوا أساءوا
أأجعلُكمْ وغيرَكمْ سَواءً * وبينكمُ وبينهُمُ الهَــواءُ
هُمُ أرضٌ لأرجُلكمْ وأنتمْ * لأيديهِمْ وأرجُلِهمْ سَماءُ

فقلت له : كم أعطى عليها ؟ قال : عشرين ألفاً .

أبو مسلم ورؤبة

الأصمعي قال : حدثني رؤبة قال : دخلت على أبي مُسلم صاحب الدعوة ، فلما أبصرني نادى : يارؤبة . فأجبته :

لَبَّيْكَ إذْ دعوْتني لبيْكا * أحْمَدُ ربًّا ساقني إليْكا
الحمدُ والنِّعمَةُ في يَدَيْكا

قال : بل في يدي الله تعالى . قلت له : وأنت إذا أنعمتَ أجدت . ثم قلت : يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد ؟ قال : نعم ؛ فأنشدته :

ما زال يأتي المُلْكَ في أقطارِهِ * وعنْ يَمينِهِ وعنْ يسارِهِ
مُشَمِّرا لا يصطَلي بِنارِهِ * حتى أقرَّ المُلْكَ في قرارِهِ

فقال : يا رؤبة ، إنك أتيتنا وقد شفَّ المالُ واستنفده الإنفاق ، وقد أمرنا لك بجائزة ، وهي تافهة يسيرة ، ومنك العوْد وعلينا المُعوَّل ، والدهر أطْرَقُ مُستَتِبٌّ (١) ، فلا تجعل بيننا وبينك الأسِدّة . قال رؤبة : فقلت : الذي أفادني الأميرُ من كلامه أكثرُ من الذي أفادني من ماله .

هشام ونصيب

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده :

إذا استبقَ الناسُ العُلا سَبَقْتَهُمُ * يَمينُكَ عفْوا ثمّ صَلَّتْ شِمالُكا

فقال هشام : بلغتَ غاية المدح فسَلْني . فقال : يا أمير المؤمنين ، يداك بالعطيّة أطلق من لساني بالمسألة . قال : لا بُد أن تفعل . قال : لي ابنة نفَضْتُ عليها من سوادي فكسَدها ، فلو أنفقها أميرُ المؤمنين بشيء يجعله لها . قال : فأقطعها أرضا ، وأمر لها بحلي وكسوة . فنفقت السوداء .

---

(١) الأطرق والمستتب : من أوصاف البعير ، وهو الضعيف الذليل .

عبد الله بن جعفر ونصيب

الرياشي عن الأصمعي قال : مدح نُصيب بن رباح عبد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكُسوة شريفة ورواحل مُوقَرة بُرًّا وتمراً ؛ فقيل له : أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود ؟ قال : أما لئن كان عبداً إن شعره فى لحُرّ ؛ ولئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض ، وإنما أخذ مالًا يَفنى وثياباً تَبلى ورواحلَ تنضى ، وأعطى مديحاً يُرْوى وثناء يَبقى .

هشام وأبو النجم

وذكروا عن أبى النجم العِجْلى أنه أنشد هشاماً شعره الذى يقول فيه :

• الحمد لله الوهوب الُمجزل

وهو من أجود شعره ، حتى آنتهى إلى قوله :

• والشمس فى الجوّ كعين الأحول •

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فطُرِد . فأمّل أبو النجم رجعته ، فكان يأوى إلى المسجد ، فأَرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه : أَبغِنى رجلا عربيا فصيحاً يُحدثنى وينشدنى . فطَلَب له ما سأل ، فوجد أبا النجم ، فأتى به ، فلما دخل عليه قال : أين تكون منذ أقصيناك ؟ قال : حيث ألفانى رسولك . قال : فمن كان أبا النجم مَثْواك ؟ قال : رجلين ، أتغدّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر . قال : فما لَكَ من الولد ؟ قال : ابنتان ، قال أزَوّجْتَهما ؟ قال : زَوّجْتُ إحداهما . قال : فَبِمَ أوصيتَها ليلةَ أهديتَها ؟ قال : قلت لها :

سُبّى الحماةَ وابهتِى عليها • وأن أبت فازْدَلفى إليها
ثم اقْرَعِى بالعودِ مِرْفقَيْها • وجدّدى الُخلف به عليها
• لا تخبرى الدهرَ بذاكِ ابنَيْها •

قال : فهل أوصيتها بعد هذا ؟ قال : نعم :

أوْصيْتُ من بَرّةَ قلباً بَرًّا • بالكلبِ خيرًا والحماةِ شرًّا
لا تَسأمى خَنْقاً لها وجَرًّا • والحىّ عُمّيهمْ بشرّ طُرًّا
وإن كَسَوْكِ ذَهَبا ودُرًّا • حتى يَرَوْا حُلْوَ الحياةِ مُرًّا

قال هشام : ماهكذا أوصى يعقوبُ ولده . قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ، ولا ولدى كولده . قال : فما حال الأخرى ؟ قال هى ظلّامة التى أقول فيها :

كأنّ ظَــلّامةَ أُختَ شَيْبانْ ∗ يَتيمـــة ووالِداها حَيّــانْ

الرَّأْسُ قَمْلٌ كُلُّهُ وصِئْبانْ ∗ وليس فى الرِّجْلَيْن إلا خيطانْ

∗ فَهْىَ التى يُذْعَرُ مِنها الشَّيْطانْ ∗

قال هشام لحاجبه : مافعلتَ بالدنانير التى أمرتُك بقبضها ؟ قال : هى عندى ، وهى خمسمائة دينار . قال له : ادفعها لأبى النّجم ليجعلها فى رجلَىْ ظلّامة مكان الخيطين .

مروان بن محمد وطريح وذو الرمة

أبو عبيدة قال : حدّثنى يونس بن حبيب قال : لما اسْتُخْلِفَ مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة ، فتقدم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفى ، خال الوليد بن يزيد ، فقال : الحمد لله الذى أنعم بك على الإسلام إماما ، وجعلك لأحكام دينه قِواما ، ولأمة محمد المصطفى جُنّة ونظاما . ثم أنشده شعره الذى يقول فيه :

تُسوءِ عِداكَ فى سَدادٍ ونَعْمَةٍ ∗ خِلافتُنا تِسْعِين عاما وأشْهُرا

فقال مروان : كم الأشهر ؟ قال : وفاء المائة بأمير المؤمنين ، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة فى النصرة والتمكين . فأمر له بمائة ألف درهم .

ثم تقدم إليه ذو الرّمة متحانياً كِبْرة ، قد انحلّت عمامتُه مُنحدرة عن وجهه ، فوقف يُسوّيها ، فقيل له : تقدّم . قال : إنى أُجل أميرَ المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحا بلَوْثة عمامتى . فقال مروان : ما أمّلتُ أنه أبقَتْ لنا منك مَىّ ولا صَيْدَحُ [1] فى كلامك إمتاعا . قال : بلى والله يا أمير المؤمنين ؛ أردُ منه قَراحا ، والأحسن امتداحا ، ثم تقدم فأنشد شعراً يقول فيه :

فقلتُ لها سِيرِى ، أمامَكِ سيِّدٌ ∗ تفرَّعَ مِن مَرْوانَ أو من مُحَمّدِ

(١) مىّ : صاحبته . وصيدح : ناقته .

فقال له : مافعلت مَى ؟ فقال :

طُوِيتْ غَدائرُها بِبُرْد بِلًى ° ومَحا التُّرابُ مَحاسنَ الخدّ

فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد ، فقال : أما ترى القوافى تنثال انثيالا ؟ يُعطَى بكل مَن سَمّى من آبائى ألفَ دينار . قال ذو الرمة : لو علمتُ لبلغتُ به عبدَ شمس .

المنصور وابن هرمة

الربيع حاجب المنصور قال : قلت يوما للمنصور : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم . فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فإنما هو كلب من الكلاب ؛ ولا بالحيّة ، فإنما هى دُويّبة مُنتنة تأكل التراب ؛ ولا بالجبل ، فإنما هو حجر أصم ؛ ولا بالبحر ، فإنما هو غُطامط لجب ؛ ومن ليس فى شعره هذا فليدخل ؛ ومن كان فى شعره فلينصرف . فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة ، فإنه قال له . أنا له ياربيع ؛ فأدخلنى . فأدخله ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور : ياربيع ، قد علمتُ أنه لا يُجيبك أحدٌ غيره ؛ هات يابن هرمة . فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

له لحظاتٌ عن حفافَىْ سَرِيرِهِ ° إذا كَرَّها فيها عَذابٌ ونائلُ

لهم طِينة بيْضاء من آل هاشمٍ ° إذا اسْوَدَّ من كُوم الترابِ القبائلُ

إذا ما أبى شيئاً مضى كالذى أبى ° وإنْ قال إنى فاعلٌ فهْوَ فاعِلُ

فقال : حسبك ! هاهنا بلغْت ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم . فقمتُ إليه وقبلتُ رأسه وأطرافه ثم خرجت ، فلما كدت أن أخفى على عينيه سمعته يقول : ياإبراهيم ! فأقبلت إليه فزعا ، فقلت : لبيك فداك أبى وأمى . قال : احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها ! فقلت : بأبى وأمى أنت ، أحفظُها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتَم الجهبذ .

جعفر وابن الجهم

على بن الحسين قال : أنشد على بن الجهم جعفراً المتوكل شعره

الذى أوله :

* هى النفسُ ما حَمَّلْتَها تتحمَّلُ *

وكان فى يد المتوكل جوهرتان ، فأعطاه التى فى يمينه ؛ فأطرق متفكّراً فى شىء يقوله ليأخذ التى فى يساره ، فقال : مالك مفكراً ؟ إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى ! خُذها لا بُورك لك فيها ! فأنشأ يقول :

بِسُرَّمَنْرَا إمامُ عَـدْلٍ * تَغْرفُ مِن بَحْرِهِ البحارُ
يُرْجى ويُخْشى لكلّ أمرٍ * كأنّهُ جَنَّـةٌ ونارُ
المُلْكُ فيـه وفى بَنِيهِ * ما اخْتلَفَ الليلُ والنّهارُ
يَداه فى الجودِ ضَرَّتانِ * عليه كِلْتاهُما تَغار
لم تَأتِ منه اليمينُ شيئاً * إلا أتت مِثْلَه اليسارُ

لبعض الشعراء فى الهول

وقال آخر فى الهَوْل :

إذا سَأَلت النّدى عن كلّ مَكْرُمَةٍ * لم تُلفِ نِسْبتَها إلا إلى الهول
لو زاحَمَ الشمسَ ألقَى الشمسَ مُظْلِمةً * لو زاحم الصُّمَّ ألجاها إلى المَيْلِ
أمضى منَ الدهْرِ إنْ نابَتْهُ نائبةٌ * وعندَ أعدائِهِ أمْضى منَ السَّيْلِ

عبدالله بن طاهر وأبو يزيد الشاعر

ودخل شاعر من أهل الرى . يقال له أبو يزيد ، على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده :

اشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُرْتفقاً * من شادمِهْرَ ودَعْ غُمدانَ لليمنِ[1]
فأنت أوْلى بتاجِ المُلْكِ تَلْبَسُه * من هَوْذَةَ بنِ علىٍّ وابنِ ذى يزنِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

ودخلت ليلى الأخيليّة على الحجّاج فأنشدته :

إذا وَرَدَ الحَجّاجُ أرضاً مريضةً * تَتبَّعَ أقصى دائهـا فَشفاها

(١) مرتفقا : ثابتا دائما . وشادمهر : موضع بنيسابور . وفى بعض الأصول « شاذياخ » وهى نيسابور .

شَفاها من الداءِ العُضال الذى بها * غُـلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَـقاها

فقال لهـا : لا تقولى غلام ، ولـكن قولى : همام . ثم قال : أى النساء أحبُّ إليك أُنْزِلُكِ عندها ؟ قالت : ومَن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أُم الجُلاس بنت سعيد بن العاص الأُموية ، وهند بنت أسماء بن خارجة الفَزارية ، وهند بنت المهلب بن أبى صفرة العتكيّة . قالت : القيسية أحبّ إلىّ . فلمـا كان من الغد دخلت عليه . قال : ياغلام ، أعطِها خَمسمائة . قالت : أيها الأمير ، أحسبها أُدْماً . قال قائل : إنما أمر لك بشاء . قالت : الأمير أكرمُ من ذلك . فجعلها إبلًا على آستحياء ، وإنما كان أمر لها بشاء أوّلا .

كِتَابُ الجُمانة

في الوفود

فرش كتاب الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه :

قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاد على مراتبهم ومنازلهم ، وما جَروا عليه ، وما نَدبوا إليه من الأخلاق الجميلة ، والأفعال الجزيلة . ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الخلفاء والملوك ؛ فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حَفْل ؛ يُتَخَيَّر لها الكلام ، وتُستهذب الألفاظ ، وتُستجزل المعاني . ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدَهم وزعيمَهم الذي عن قُوّته ينزعون ، وعن رأيه يُصدرون ؛ فهو واحد يَعدل قبيلة ، ولسان يُعرب عن ألسنة ، وماظنّك بوافد قوم يتكلّم بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته ، أو بين يدى ملك جبار في رغبة أو رهبة ، فهو يوطد لقومه مرّة ويتحفّظ من أمامه أخرى . أتُراه مدّخراً نتيجة من نتائج الحكمة ، أو مُستبقياً غريبة من غرائب الفِطنة ؛ أم تظن القوم قدّموه لفصل هذه الخُطة إلا وهو عندهم في غاية الحَذاقة واللَّسن ، ويَجمع الشعر والخطابة . ألا ترى أنّ قيس بن عاصم المِنقريّ لمّا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بَسَط له رداءه وقال : هذا سيد الوَبَر . ولما تُوفى قيس بن عاصم قال فيه الشاعر(1) :

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ * ورحمتُهُ ما شاءَ أن يَتَرَحّما
تحيّة من ألبَسْتَه منك نِعمةً * إذا زار عن شَحْطٍ بلادَكَ سَلّما
وما كانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ * ولكنه بُنْيانُ قومٍ تهدّما

---

(1) هو عبدة بن الطبيب

وفود العرب على كسرى

كسرى والنعمان

ابن القطامى عن الكلبىّ قال : قَدم النعمانُ بن المُنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم . فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارسَ ولا غيرها ، فقال كسرى وأخذته عزةُ الملك : يانعمان ، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرتُ فى حال من يقدَم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظٌ فى اجتماع أُلفتها ، وعِظَم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بُنيانها ؛ وأنّ لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها ويردّ سفيهها ويُقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطِبّها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيّب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وفروسيّتها وهمتها ، وأنّ لها مُلكاً يجمعها . والترك والخزَر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلّة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم مُلوك تضمّ قواصيهم وتُدبّر أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خِصال الخير فى أمرِ دينٍ ولا دُنيا ، ولا حزم ولا قُوة ، مع أن ممــا يدل على مهانتها وذُلّهــا وصِغَرِ همتها ، محلّتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مَطاعم الدنيا وملابسها ، ومشاربها ولهوها ولذّاتهــا ، فأفضلُ طعام ظَفِرَ به ناعمُهم لحومُ الإبل التى يعافها كثيرٌ من السباع لثِقلها وسوء طعمها وخوف دائها ، وإنْ قَرَى أحدهم ضيفاً عدّها مَكْرُمة ، وإن أطعمَ أكلة عدّها غنيمة ؛ تنطق بذلك أشعارُهم ، وتفتخر بذلك رجالُهم ، ما خلا هذه التّنوخيّة التى أسس جدّى اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنَعَها من عدوّها ؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإنّ لهــا مع ذلك آثاراً ولَبُوسا ، وقُرى وحُصونا ، وأموراً تُشبه بعض أمور الناس ـ يعنى اليمن ـ ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : أصلح الله الملك ، حقّ لأُمةٍ الملكُ منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها . إلا أنّ عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك ، فى غير ردٍّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمّننى من غضبه نطقتُ به .

قال كسرى : قل فأنت آمن .

قال النعمان : أمّا أُمتك أيها الملك فليست تُنازَع فى الفضل ، لموضعِها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطةِ محلِّها ، وبُحْبُوحَةِ عِزِّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأُمم التى ذكرتَ ، فأىّ أمة تَقْرِنها بالعرب إلا فَضَلَتْها .

قال كسرى : بماذا ؟

قال النعمان : بعزّها ومَنَعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأَنَفَتِها ووفائها :

فأما عِزُّها ومَنَعَتُها ؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونُهم ظهورُ خيلهم ، ومِهادُهم الأرض ، وسُقوفهم السماء ، وجُنّتهم السيوف ، وعُدّتهم الصبر. إذْ غيرُها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حُسْنُ وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلُهم فى ذلك على غيرهم من الهند ، والصين المُنحفة ، والترك المشوّهة ، والروم المقشّرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أُمة من الأمم إلا وقد جَهلتْ آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى إنّ أحدهم ليُسأَلُ عمن وراء أبيه دُنْيا فلا ينْسُبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمّى آباءه أباً فأباً ، حاطوا بذلك أحسابَهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ؛ ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يُدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها ، فإنّ أدناهم رجلاً الذى تكون عنده البكرةُ والناب عليها بلاغُه فى حُموله وشِبعه وريّه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفى بالفِلْذة ويجتزئ بالشّربة

فيعقِرها له ويَرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكسبه حُسْنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورَونق كلامهم وحُسنه ووزنه وقوافيه ، مع مَعرفتهم بالأشياء ، وضَربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيْلهم أفضلُ الخيل ، ونساؤهم أعفُّ النساء ، ولباسُهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جِبالهم الجَزْع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سَفْر ، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قفر .

وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسّكون به ، حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرماً ، وبلدا محرماً ، وبيتاً محجوجاً يَنسكون فيه مناسكَهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجلُ قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه ، فيَحجزه كرمُه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها ، فإنّ أحدهم يلحظ اللحظة ويُومئ الإيماءة فهى ولَثٌ وعُقدة لا يحلّها إلا خروج نفْسه ، وإنّ أحدَهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدَينه فلا يغْلَق رهنُه ولا تُخفر ذمته ؛ وإن أحدهم ليبلُغه أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب ، فلا يَرضَى حتى يُفنى تلك القبيلة التى أصابتْه أو تفنى قبيلتُه لِما أُخفِر مِن جِواره ؛ وإنه ليلجأ إليهم المجرمُ المُحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفُسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفَةً من العار وغيْرة من الأزواج .

أما قولك : إنّ أفضل طعامهم لحومُ الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمَدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبُها لحوما ، وأرقّها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مَضغة ، وإنه لا شىء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمُها إلا آستبان فضلُها عليه .

وأما تحاربُهم وأكلُ بعضِهم بعضا ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ؛

فإنما يفعل ذلك مَن يفعله من الأمم إذا أنِستْ من نفسها ضَعفاً وتخوّفت نُهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهلُ بيتٍ واحد يعْرَفُ فضلُهم على سائر غيرهم ، فيُلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم : وأما العرب فإن ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا مُلوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطَف بالعسْف .

وأما اليمن التى وصفها الملك فإنما أتى جدَّ الملك وليُّها الذى أتاه عند غلبة الحَبَش له على ملك متَّسق ؛ وأمرٍ مجتمع ؛ فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا ، وقد تقاصر عن إيوانه ، وصغُر فى عينه ما شُيّد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولوَجد من يُجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لِما أجابه النعمانُ به ؛ وقال : إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته ، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمانُ الحيرةَ وفى نفسه مافيها مما سمع من كسرى من تَنَقّص العرب وتَهجين أمرهم ، بعث إلى أكثمَ بن صَيْفىّ وحاجبِ بن زُرارة التميميّين ، وإلى الحارث بن عُباد وقيس بن مسعود البكريّين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلقمة بن عُلاثة ، وعامر بن الطفيل العامريّين ، وإلى عمرو بن الشَّريد السُّلمى ، وعمرو بن معديكرب الزُّبيدى ، والحرث بن ظالم المُرّى ؛ فلما قدموا عليه فى الخَوَرْنَق ، قال لهم : قد عَرفتم هذه الأعاجمَ وقُرْبَ جوارِ العرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكونَ لها غور ، وأن يكونَ إنما أظهرها لأمرٍ أراد أن يتخذ به العرب خَوَلا كبعض طَماطمته فى تأديتهم الخَراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى ومارَدّ عليه ؛ فقالوا : أيها الملك ، وفّقك الله ، ما أحسنَ مارَدَدْت ، وأبلغَ ماحَجَجْتَه به ؛ فمُرْنا بأمرِك ، وادعُنا إلى ماشئت .

قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعَزَزْتُ بمكانكم وما يُتخوّف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبَّ إلىَّ مما سدّد الله به أمرَكم ، وأصلح به شأنَكم ، وأدام به عزَّكم ؛ والرأىُ أن تَسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتَنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نَطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أنّ العرب على غير ما ظنّ أو حدَّثته نفسُه ؛ ولا يَنطق رجل منكم بما يُغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثيرُ الأعوان مُتْرَف مُعْجَبٌ بنفسه ، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وَثَاقةُ حُلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظمة أخطاركم ؛ وليكن أولَ من يبدأ منكم بالكلام أكثمُ بن صيفى ، لِسَنِىّ حالِه ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتُكم بها ؛ فإنما دعانى إلى التّقدمة بينكم علمى بمَيْل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ؛ فلا يكوننّ ذلك منكم فيجدَ فى آدابكم مَطْعَنا ؛ فإنه ملك مُترَف ، وقادرٌ مسلّط .

ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلَل الملوك ، كل رجل منهم حُلّة ، وعمّمه عمامة ، وختّمه بياقوتة ؛ وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية وفرس نَجيبة ، وكتب معهم كتاباً :

أما بعد ، فإن المَلِك ألقَى إلىّ من أمر العرب ما قد عَلِم ، وأجبتُه بما قد فَهِم ، بما أحببتُ أن يكون منه على عِلْم ، ولا يتلجلج فى نفسه أن أُمة من الأُمم التى احتجزت دونه بمملكتها ، وحَمَتْ ما يليها بفضل قُوّتها ، تبلُغها فى شيء من الأمور التى يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة . وقد أوفدتُ أيها الملك رهطا من العرب ، لهم فضلٌ فى أحسابهم وأنسابهم وعُقولِهم وآدابِهم ؛ فليسمع الملك ، ولْيُغْمِضْ عن جفاءٍ إن ظهر من منطقهم ، وليُكرِمْنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتُهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم .

فخرج القوم فى أُهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم . فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرازبته ووجوهَ أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسىّ

عن يمينه وشماله ؛ ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وضعهم النعمانُ بها فى كتابه؛ وأقام التّرجمانَ ليؤدىَ إليه كلامَهم ، ثم أذن لهم فى الكلام .

فقام أكثمُ بن صيفىّ فقال : إن أفضلَ الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجالِ ملوكها ، وأفضل الملوك أعمُّها نفعا ، وخيرَ الأزمنة أخصبُها ، وأفضلَ الخطباء أصدقُها . الصدق مَنْجاة ، والكذب مَهْواة ، والشرُّ لجَاجة ، والحزم مَركَبٌ صعب ، والعَجز مركبٌ وطىء . آفةُ الرأى الهوى ، والعجزُ مِفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حُسن الظن وَرطة ، وسوء الظن عِصمة . إصلاح فساد الرعية خيرٌ من إصلاح فسادِ الراعى . من فَسدت بطانتُه كان كالغاصّ بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شَر الملوك من خافه البَرىء . المرء يَعجز لا المحالة . أفضلُ الأولادِ البَرَرَة . وخيرُ الأعوان من لم يُراء بالنصيحة . أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرتُه . يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ . حسبك من شرٍّ سماعُه . الصمت حكمٌ وقليل فاعلُه . البلاغة الإيجاز . من شدّد نفر ، ومن تراخى تألف .

فتعجب كسرى من أكثم ، ثم قال : ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثقَ كلامَك لولا وَضعُك كلامَك فى غير موضعه .

قال أكثم : الصدقُ يُنبئ عنك لا الوعيد .

قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكثم : رُبَّ قولٍ أنفذُ من صول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى ، فقال : وَرَى زَنْدُك ، وعلَت يدُك ، وهيبَ سلطانُك . إن العرب أمة قد غلُظت أكبادُها ، واستحصدت مِرَّتُها ، ومَنعت دِرَّتها ؛ وهى لك وامقةٌ ما تألفْتَها ، مُسترسِلة مالاَيَنْتَها ، سامعةٌ ما سامحتَها ، وهى العلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلالُ سلاسة . نحن وُفودها إليك ، وألسنتها لديك ؛ ذمّتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ؛ إن نَؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عمومُ مَحْمَدَتنا ، وإن نَذُم لم نَخُصّ بالذمّ دونها .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجرَ التلال بألوان صخرها .

قال حاجب : بل زئيرَ الأُسْدِ بصولتها .

قال كسرى : وذلك .

ثم قام الحارث بن عُبَاد البَكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها ، وعلوِّ ثنائها . من طال رِشاؤه كثُر مَتْحُه ، ومن ذهب ماله قلّ مَنْحُه . تناقُلُ الأقاويلِ يعرِّف اللُّب ؛ وهذا مقام سيوجِف بما يُنطقُ فيه الرَّكْب ، وتَعرف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب ؛ ونحن جيرانك الأدْنَوْن ، وأعوانك المُعينون ، خيولنا جَمّة ، وجُيوشنا فَخْمة ، إن استنجدتَنا فغيرُ رُبُض ، وإن استطرقتنا فغير جُهُض ، وإن طَلبتنا فغيرُ غُمُض ، لا نَنْثَنى لذُعر ، ولا نَتنكّر لدهر ، رِماحنا طِوال ، وأعمارنا قِصار .

قال كسرى : أنفسٌ عزيزة ، وأمة واللهِ ضعيفة .

قال الحارث : أيها الملك ، وأنى يكون لضعيفٍ عِزّة ، أو لصغيرٍ مِرَّة ؟

قال كسرى : لو قَصُر عُمرك لم تستولِ على لسانِك نفسُك .

قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حَمل نفسَه على الكَتيبة مغرِّرا بنفسه على الموت ، فهى مَنِيّةٌ استقبلها ، وحياةٌ استدبرها ؛ والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُما ، وأحبسها وهى تصرّف بهم ، حتى إذا جاشت نارها ، وسَعَرت لظاها ، وكَشفت عن ساقها ، جعلتُ مَقادَها رُمحى ، وبَرْقها سيفى ، ورَعدها زئيرى ، ولم أُقصّر عن خوض خُضاخضها ، حتى أنغمس فى غَمرات لُججها ، وأكون فُلْكا لفُرسانى إلى بُحبوحة كَبْشها ، فأستمطرها دما ، وأترك حُماتَها جَزَرَ السباع وكلِّ نَسْر قَشْعَم .

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟

قالوا : فَعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى : ما رأيتُ كاليوم وفداً أحْشَدَ ، ولا شهودًا أوْفَد .

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمى فقال : أيها الملك نعِمَ بالُك ، ودام فى السرور حالك ؛ إنّ عاقبة الكلام متدبّرة ، وأشكال الأمور مُعتبرَة ، وفى كثير ثَقْلة ، وفى قليل بُلْغة ، وفى الملوك سورةُ العِزّ ، وهذا منطق له ما بعده ، شَرُفَ فيه مَن شَرُف ، وخَمل فيه مَن خَمل ، لم نأت لضَيْمك ، ولم نَفِدْ لسُخطك ، ولم نتعرّض لرِفْدك . إنّ فى أموالنا مُرتقدا ، وعلى عزنا مُعتمدا ؛ إن أورينا نارا أثقبْنا ، وإن أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا ، إلا أنّا مع هذا لجِوارك حافظون ، ولمن رامك مكافحون ، حتى يُحمد الصَّدَر ، ويُستطاب الخَبر .

قال كسرى : ما يقوم قصدُ مَنطقك بإفراطك ، ولا مدحُك بذمّك .

قال عمرو : كفى بقليلِ قَصْدى هاديا ، وبأيسرِ إفراطى مُخبرا ، ولم يُلَمْ من عَزَفت نفسُه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ .

قال كسرى : ما كل ما يَعرف المرء ينطق به . اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكِلابىّ فقال : أحضَر اللهُ الملكَ إسعادا ، وأرشده إرشادا ؛ إنّ لكل منطق فُرصة ، ولكل حاجة غُصة ، وعِيُّ المنطق أشدُّ من عِيِّ السكوت ، وعِثار القول أنكى من عثار الوَعْث ، وما فُرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم مَن سَمِعَنى أنّنى له مُطيق أحبُّ إلىّ من تكلُّفى ما أتخوّف ويُتخوَّف منى . وقد أوفدَنا إليك مَلِكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونِعْمَ حاملُ المعروفِ والإحسان . أنفسُنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابُنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى : نطقتَ بعقل ، وسَموْتَ بفضل ، وعلوت بنُبل .

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامرىّ فقال : أنهجتْ لك سبلُ الرشاد ، وخضعت لك رقابُ العباد ؛ إن للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مَخارج ؛ وخير القول أصدقُه ، وأفضلُ الطلب أنجحُه . إنّا وإن كانت المحبّة أحضرتْنا ، والوفادة قرّبتنا ، فليس مَن حضَرك منا بأفضلَ ممن عَزب عنك ، بل لو قِسْتَ كلَّ رجل

منهم وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدتَ له فى آبائه دُنْياً أندادا وأكفاء ، كلهم إلى الفضلِ منسوب ، وبالشرف والسودد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يَحمى حِماه ، ويُروى نَداماه ، ويَذود أعداه ؛ لا تُخمَد ناره ، ولا يحترز منه جاره . أيها الملك ، من يَبْلُ العرب يعرف فضلَهم ؛ فاصطنع العرب ، فإنها الجبال الرواسى عزّا ، والبحور الزواخر طُمِيًّا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحَصَى عددا ؛ فإن تعرفْ لهم فضلهم يُعِزُّوك ، وإن تَستصرخهم لا يخذُلوك .

قال كسرى ـ وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه ـ : حسْبك ، أبلغْتَ وأحسنْت .

ثم قام قيس بن مسعود الشَّيبانى فقال : أطاب الله بك المَراشد ، وجنَّبك المصائب ، ووقاك مكروهَ الشَّصائب[1] ؛ ما أحقَّنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرَك ، ولا يَزرع لنا حقدا فى قلبك ؛ لم نقدَم أيها الملك لُمساماة ، ولم ننتسبْ لُمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتُك ومَن حَضَرك مِن وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحجمين ، وفى اليأس غيرُ مقصرين ؛ إن جُورينا فغير مسبوقين ، وإن سُومينا فغير مغلوبين .

قال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين . وهو يُعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السَّواد[2] .

قال قيس : أيها الملك ، ما كنتُ فى ذلك إلا كوافٍ غُدِر به ، أو كخافر أُخفر بذمته .

قال كسرى : ما يكون لضعيفٍ ضمان ، ولا لذليلٍ خِفارة .

قال قيس : أيها الملك ، ما أنا فيما خُفِر من ذمتى ، أحقُّ بإلزامى العارَ منك فيما قُتل من رعيتك ، وانتُهك من حُرْمتك .

قال كسرى : ذلك ، لأن مَن ائتمن الخانَةَ ، وآستنجد الأَثَمة ، ناله من الخطأ

---

(١) الشصائب : الشدائد .

(٢) يريد سواد العراق .

ما نالني ، وليس كلُّ الناس سواء ؛ كيف رأيت حاجب بن زُرارة لم يُحكِم قُواه فيُبْرِم ، ويعهد فيُوفى ، ويَعِد فيُنجز ؟

قال : وما أحقَّه بذلك وما رأيته إلا لى

قال كسرى : القوم بُزُلٌ فأفضلها أشدُّها .

ثم قام عامر بن الطُّفيل العامريّ فقال : كثُر فُنون المنطق ، وليس القول أعمى من حِنْدِس الظَّلماء ، وإنما الفخر فى الفَعال ، والعِزّ فى النجدة ؛ والسُّودَدُ مطاوعَةُ القدْرة . وما أعلمك بقدْرنا ، وأبصَرك بفضلنا ؛ وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تُحْدِث لنا أموراً لها أعلام .

قال كسرى : وما تلك الأعلام ؟

قال : مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يُذكر .

قال كسرى : وما الأمر الذى يُذْكر ؟

قال : مالى علم بأكثر مما خبّرنى به مُخبر .

قال كسرى : متى تكاهَنْتَ يا بن الطُّفيل ؟

قال : لستُ بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن .

قال كسرى : فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟

قال : ما هيبتى فى قَفاى بدون هَيبتى فى وجهى ، وما أذهبَ عينى عيْثٌ (١) ولكن مطاوعة العيث .

ثم قام عمرو بن معديكرب الزّبيدى فقال : إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النُّجْعة الارتياد ، وعفْو الرأى خيرٌ من استكراه الفكرة ، وتوقّف الخِبرة خيرٌ من اعتساف الحيرة ، فاجتَبِذْ طاعتَنا بلفظك ، واكْتَظِمْ بادِرَتَنا بحلْمك ، وألِنْ لنا كنفك يسلُسْ لك قيادُنا ، فإنّا أناس لم

(١) العيث . الإفساد

يُوقِسُ صَفاتَنا قِراعُ مناقيرِ من أراد لنا قضما ، ولكن منعْنا حِمانا مِن كل مَن رام لنا هَضْما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرّى فقال : إنّ من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملَق ، ومن خطلِ الرأى خفة الملك المُسلّط ، فإن أعلمْناك أن مواجهتَنا لك عن ائتلاف ، وانقيادَنا لك عن تَصافٍ ، ما أنت لقبولِ ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولْثِ العقود ، والأمر بيننا وبينك مُعتدل ، ما لم يأت من قِبلك ميلٌ أو زلل .

قال كسرى : من أنت ؟

قال : الحارث بن ظالم .

قال : إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر .

قال الحارث : إنّ فى الحق مَغضبة ، والسَّرْوُ التغافل ، ولن يستوجب أحدٌ الحلم إلا مع القدرة ، فلتُشْبِه أفعالُك مجلسَك .

قال كسرى : هذا فتى القوم .

ثم قال كسرى : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنّن فيه متكلّموكم ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثقّف أوَدَكم ، ولم يُحكِم أمركم ، وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أُجِزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به . وإنى لأكره أن أجبّه وفودى أو أُحنِق صدورهم ، والذى أُحبُّ هو إصلاح مُدْبِركم ، وتألف شواذّكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم ؛ وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب . وصفحت عما كان فيه من خَلل ؛ فانصرفوا إلى مَلِكِكم فأحسِنوا مُوازرته والتزموا طاعته ، وارْدَعُوا سُفهاءكم وأقيموا أودَهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتبي عن أبيه : أن حاجب بن زُرارة وفد على كسرى لما مَنع تميما من رِيف العراق ، فاستأذن عليه ، فأَوْصَل إليه فقال : أسيِّدُ العربِ أنت ؟ قال : لا . قال : فسيّد مُضر ؟ قال : لا . قال : فسيّد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا . ثم أذن له فدخل عليه . قال : من أنت ؟ قال : سيد العرب ! قال : أليس قد أوْصَلْتُ إليك : أسيّد العرب أنت ؟ فقلت : لا ، حتى اقتصرتُ بك على بنى أبيك ، فقلت : لا ؟ قال له : أيها الملك ، لم أكن كذلك حتى دخلتُ عليك ، فلما دخلتُ عليك صرتُ سيدَ العرب . قال كسرى : زِه ! املئوا فاه دُرّا . ثم قال : إنكم معشر العرب غُدُر ، فإن أذنتُ لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وأذيتمونى . قال حاجب : فإنى ضامن للملك ألّا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت؟ قال : أرْهَنكَ قوسى . فلما جاء بها ضَحِك مَن حوله وقالوا : لهذه العصا يفى ! قال كسرى : ما كان لِيُسْلِمها لشىء أبدا . فقبضها منه ، وأذِن لهم أن يدخلوا الريف .

ومات حاجب بن زرارة ، فارتحل عطارِد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوسَ أبيه ؛ فقال له : ما أنت الذى رهنتَها ! قال : أجل . قال : فما فعل ؟ قال : هلك ، وهو أبى ، وقد وفَى له قومُه ووفى هو للملك . فردها عليه وكساه حُلة .

فلما وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم عُطاردُ بن حاجب ، وهو رئيس تميم ، وأسلم على يديه ، أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يقبلها ؛ فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم .

ثم إن مضر أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، هلك قومك وأكلتهم الضَّبُع . يريدون الجوع ـ والعرب يسمُّون السَّنة الضَّبعَ والذئب . قال جرير :

• من ساقَه السنة الحصّاء والذِّيبُ •[1]

---

(١) صدره : « يأوى إليكم بلا منّ ولا جحد » .

فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فأُحْيُوا ، وقد كان دعا عليهم فقال : اللهم آشدُدْ وطأتك على مُضر ، وابعثْ عليهم سنين كسِنِي يوسف .

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال : حدثنا عبدُ الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المُزى ، قال : قال أبو سفيان : أهديتُ لكسرى خيلاً وأدَماً ، فقَبل الخيلَ وردّ الأدم ، وأُدْخِلتُ عليه فكأنّ وجهه وجهان من عِظَمه ، فألقى إليّ مخدّةً كانت عنده ، فقلت : واجُوعاه ! أهذه حظِّي من كسرى بن هُرمز ؟ قال : فخرجتُ من عنده ، فما أمرُّ على أحد من حَشَمه إلا أعْظَمها ، حتى دُفعتْ إلى خازن له : فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضةٍ وذهب .

قال الأصمعي : فحدثتُ بهذا الحديث النُّوشجان [1] الفارسي ، فقال : كانت وظيفة المخدّة ألفاً ، إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين .

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال : وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المُنذر ، قال : فلقيت رجلا ببعض الطريق ، فقال لي : أين تُريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فإنك إذا جئته متروكٌ شهرا ، ثم تُترك شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك ؛ فإن أنت خلوتَ به وأعجبتَه فأنت مُصيبٌ منه خيراً ، وإن رأيت أبا أُمامةَ النابغةَ فاظْعَن ؛ فإنه لا شيء لك ! قال : فقدمْتُ عليه ، ففعل بي ما قال ، ثم خلوتُ به وأصبتُ مالا كثيرا ونادمتُه فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القُبة ويقول :

أنامَ أمْ يَسْمَعُ [2] ربُّ القُبَّهْ ۞ يا أوْهَبَ الناسِ لعُنْسٍ صُلْبَهْ
ضرَّابَةٍ بالمِشْفَرِ الأذِبَّهْ ۞ ذاتِ هِبابٍ في يديها جَذْبَهْ

(١) في بعض الأصول : « أبا البورستان » .
(٢) في بعض الأصول : « تنام أم تسمع » .

فقال النعمان : أبو أمامة ، آئذنوا له فدخل فحيّاه وشرب معه ، ووردت النَّعَمُ السود . ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ أسودُ غيره ولا يَفتحل أحدٌ فحلًا أسود . فآستأذنه النابغة فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ٭ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السُّود برُعاتها ؛ فما حسدتُ أحدا قط حَسَدى له فى شعره وجزيلِ عطائه .

وفود قريش على سيف بن ذى يزن

بعد قتله الحبشة

نعيم بن حَمّاد قال : أخبرنا عبد الله بن المُبارك ، عن سُفيان الثَّورى ، قال : قال ابنُ عباس : لما ظَفِر سيفُ بن ذى يَزَن بالحبشة ، وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، أتته وفودُ العرب وأشرافُها وشعراؤها تُهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطَلبه بثأر قومه ، فأتاه وفدُ قريش ، فيهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، وأُميةُ بن عبد شمس ، وأسد بن عبد العُزّى ، وعبد الله بن جُدعان ، فقَدموا عليه وهو فى قصر له يقال له غُمْدان ، وله يقول أبو الصلت ، والد أمية ابن أبى الصلت :

لم يُدْرِك الثأرَ أمثالُ ابن ذى يَزَنٍ ٭ لجّجَ فى البحرِ للأعداءِ أحوالَا
أتى هِرَقْل وقد شالتْ نعامتُه ٭ فلم يَجِدْ عندهُ القولَ الذى قالَا
ثم انْثَنَى نحوَ كِسْرى بعد تاسِعةٍ ٭ من السِّنين لقد أبعدْتَ إيغالَا
حتى أتى بِبَنى الأحرارِ يقدُمُهُمْ ٭ إنكَ عَمْرِى لقد أسرَعْتَ إرْقالَا
مَنْ مِثْلُ كِسرى وبهرامَ الجُنودِ لَهُ ٭ ومِثْلُ وَهْرِزَ يوم الجيش إذ جالا
لله درُّهُمُ مِنْ عُصْبةٍ خرجُوا ٭ ما إن رأينا لهُمْ فى الناس أمثالَا
صِيداً جَحاجِحةً ، بِيضاً خَضارِمةً ٭ أُسداً تُرَبِّبُ فى الغاباتِ أشبالَا
أرسلتَ أُسداً على سُودِ الكِلابِ فقَدْ ٭ غادرْتَ أوجُهَهُمْ فى الأرضِ أفلالا

اشرَبْ هنيئاً عليْكَ التاجُ مُرْتفقاً * فى رأسِ غُمْدانَ دارًا مِنْكَ مِحْلالا
ثم آطْلِ بالمِسْكِ إذْ شالتْ نعامَتُهُمْ * وأسْبِلِ اليوْم فى بُرديْك إسْبالَا
تلك المكارِمُ لا قعبانِ مِن لَبَنٍ * شيبَا بِماءٍ فعادَا بعدُ أبْوالَا

فطلبوا الإذن عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا ، فوجدوه متضمِّخا بالعنبر ، يلمع وَبِيص المسك فى مفرقِ رأسه ، وعليه بُردانِ أخضران قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، وسيفهُ بين يديه ، والملوكُ عن يمينه وشماله ، وأبناء الملوك والمَقاوِل .

فدنا عبدُ المطلب فآستأذنه فى الكلام ، فقال له : قُل . فقال : إنّ الله تعالى أيها الملك أحلّك محلا رفيعا صَعْباً مَنيعا ، باذخاً شامخا ؛ وأنبتك مَنبِتا طابت أرومتُه ، وعزّتْ جُرثومته ، ونبل أصلُه ، وبَسَق فرْعُه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ؛ فأنت أبيْتَ اللّعنَ رأسُ العرب ، وربيعُها الذى به تُخْصِب ، ومَلكُها الذى به تنقاد ، وعمودُها الذى عليه العماد ، ومعقِلُها الذى إليه يلجأ العباد ، سَلَفُك خيرُ سلف ، وأنت لنا بعدهم خيرُ خلف ، ولن يَهلِك مَن أنت خَلَفُه ، ولن يَخْمُل من أنت سلفهُ . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمّته وسدَنة بيتِه ، أشخَصَنا إليك الذى أبهجك لكشف الكَرْب الذى فدَحنا ، فنحن وفْد التهنئة لا وفود المرزِئة .

قال : من أنت أيها المتكلم .

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم .

قال : ابنُ أختنا ؟ قال : نعم . فأدناه وقرّبه ؛ ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مَرحبا وأهلا ، وناقةً ورحْلا ، ومُسْتناخا سهلا ، ومَلِكا رِبَحْلا ، يُعطى عطاء جزْلا . فذهبت مثلا .

وكان أول ما تكلم به قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبِل وسيلتكم فأهْل الشرف والقباهة[1] أنتم ، ولكم القُربى ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتم .

قال : ثم استنهِضوا إلى دارِ الضيافةِ والوفود ، وأُجْرِيتْ عليهم الأنزال .

(١) فى بعض الأصول « الليل والنهار » .

فأقاموا ببابه شهرا لا يصِلون إليه ولا يأذن لهم فى الانصراف . ثم انتبه إليهم انتباهة ، فدعا بعبد المطلب من بينهم ، فخلا به وأدنى مجلسه ، وقال : ياعبد المطلب ، إنى مفوِّض إليك مِن سِرّ عِلمى أمراً لو غيرُك كانَ لم أَبُحْ له به ، ولكنّى رأيتك موضعه (١) فأطلعتُك عليه ؛ فليكن مَصونا حتى يأذن الله فيه ؛ فإنّ الله بالغُ أمرِه : إنى أجد فى العلم المخزون ؛ والكتاب المكنون الذى ٱدخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرفُ الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس كافة ، ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة .

قال عبد المطلب : مِثْلُك أيها الملك مَن بَرّ وسَرّ وبَشّر ، ماهُوَ ؟ فداك أهلُ الوَبَر ، زُمَرا بعد زُمَر .

قال ابن ذى يزن : إذا وُلد مولود بتِهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، إلى يوم القيامة .

قال عبد المطلب : أبيتَ اللعن ، لقد أُبتُ بخيرٍ ما آبَ به أحد ؛ فلولا إجلالُ الملِك لسألته أن يزيدنى فى البشارة ما أزداد به سرورا .

قال ابن ذى يزن : هذا حِينُه الذى يُولَد فيه أو قد وُلِد ، يموت أبوه وأمّه ، ويكفله جدُّه وعمه ؛ قد وجدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعلٌ له مِنّا أنصارا ، يُعِزُّ بهم أولياءه ، ويُذِلّ بهم أعداءه ، ويفتتح كرائم الأرض ، ويضرب بهم الناس عن عُرض ؛ يُخمِد النّيران ، ويكسر الأوثان ، ويَعبد الرحمن ، قولُه حَكَمٌ وفَصل ؛ وأمره حَزم وعدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويُبطله .

فقال عبدُ المطلب : طال عُمرك ، ودام مُلكك ، وعلا جَدُّك ، وعَز فخرك ؛ فهل المَلِك يَسُرُّنى بأن يُوضح فيه بعْضَ الإيضاح ؟

فقال ابن ذى يَزن : والبيت ذى الطُّنُب ، والعلاماتِ والنُّصب ، إنك ياعبد المطلب ، لجدُّه من غير كَذِب . فَخَرَّ عبدُ المطلب ساجدا .

(١) فى بعض الأصول : « معدنه » .

قال ابن ذى يزن: ارفع رأسك؛ ثَلِج صدرك، وعلا أمرك؛ فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك؟

قال عبدُ المطلب: أيها الملك، كان لى ابنٌ كنتُ له مُحِبّاً، وعليه حَدِباً مُشْفِقاً، فزوجتُه كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كلُّ ماذكرتَ من عَلامة؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمُّه.

قال ابن ذى يزن: إن الذى قلتُ لك كما قلت، فاحفظ ابنَك واحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطوِ ماذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لست آمَنُ أن تَدْخُلَهم النَّفاسة، من أن تكون لكم الرِّياسة، فيَبغون له الغوائل، ويَنصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أنى أعلم أن الموت مُجْتاحِى قبل مَبعثِه، لسرتُ بخيلى ورَجْلى حتى أصير بيثرب دارِ مُهاجَرِه؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دارُ هجرته، وبيتُ نُصرته؛ ولولا أنى أتوَقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنِّه أمره، وأوطأتُ أقدامَ العربِ عَقِبَه؛ ولكنى صارف إليك ذلك عن غير تقصير منى بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعْبد، وعشر إماء سُود، وخمسة أرطال فضة، وحُلَّتين من حُلَل اليمن، وكَرِش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئنى بما يكون من أمره.

فما حال الحولُ حتى مات ابنُ ذى يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يامعشر قريش، لا يَغبِطنى رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نَفاد، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ذكرُه وفخره لِعَقِبى. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عِكْرمة عن ابن عباس، قال: لما كان ليلةَ وُلد النبى صلى الله عليه وسلم، ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شُرفة؛ فعظُم

ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحبُ اليمن يُخبره أن بُحيرة ساوةَ غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحبُ السَّماوة يُخبره أن وادي السماوة آنقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبَرِيّة أن الماء لم يَجرِ تلك الليلة في بحيرة طبرية ؛ وكتب إليه صاحبُ فارس يُخبره أن بُيوت النيران خَمدت تلك الليلة ، ولم تَخمُد قبل ذلك بألف سنة . فلما تواترت الكُتب أبرز سريرَه وظهر لأهل مملكته ، فأخبرهم الخبر ؛ فقال المُوبذان : أيها الملك ، إني رأيت تلك الليلةَ رُؤيا هالتني . قال له : وما رأيتَ ؟ قال : رأيت إبلا صِعابا ، تقود خيلًا عِرابا ، قد اقتحمت دِجْلة ، وانتشرت في بلادنا . قال : رأيتَ عظيما ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، أرْسل إلى عاملك بالحيرة ، يُوجّه إليك رجلًا من علمائهم ، فإنهم أصحابُ علم بالحِدثان . فَبَعَثَ إليه عبدَ المسيح بن نُفيلة الغَساني : فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر . فقال له : أيها الملك . والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن جَهّزني إلى خالٍ لي بالشام ، يقال له سَطيح ، قال : جَهِّزوه . فلما قدم على سطيح وجده قد احْتُضِر ؛ فناداه فلم يُجبْه ، وكَلمه فلم يَرُدّ عليه ، فقال عَبد المسيح :

أَصَمُّ أَمْ يَسمَعُ غِطْرِيفُ اليَمَنْ * يا فاصِلَ الخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ ومَن
أَتاكَ شيخُ الحيِّ مِنْ آلِ سنَنْ * أَبْيَضَ فَضْفاضَ الرِّداءِ والبدنْ
رسولُ قيلِ العُجْمِ يَهْوِي لِلْوَتَنْ * لا يَرْهَبُ الوَعْدَ ولا رَيْبَ الزَّمَنْ

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مُشيح ، إلى سَطيح ، وقد أوفى على الضريح ؛ بعثك ملكُ بني ساسان ، لآرتجاج الإيوان ، وخُمودِ النيران ، ورُؤيا المُوابَذان ؛ رأى إبِلًا صعابا ، تقود خَيلا عِرابا ، قد اقتحمتْ في الواد ، وآنتشرت في البلاد ياعبدَ المسيح ، إذا ظهرت التِّلاوة ، وفاض وادي السَّماوة ، وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحبُ الهِراوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفُرس مقاما ، ولا الشام لسطيحٍ شاما . يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سُقوط الشُّرفات ، وكلَ ماهو آت آت . ثم قال :

إن كان مُلْكُ بني ساسانَ أفْرَطَهُمْ * فإنّ ذا الدَّهرَ أَطْوارٌ دَهاريرُ

مِنهُمْ بنو الصَّرْج بِهرامٌ وإخوتُهُ * والهُرْمُزانُ وسابُورٌ وسابورُ
فرُبَّما أصْبَحوا منهمْ بِمَنْزِلةٍ * يهابُ صَوْلَهُمُ الأُسدُ المهاصيرُ
حَثُّوا المَطِيَّ وجدُّوا فى رِحالِهمُ * فما يَقومُ لهم سرجٌ ولا كورُ
والناسُ أولادُ عَلَّاتٍ فمن عَلِموا * أن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشرُّ مَقْرونانِ فى قَرَنٍ * فالخير مُتَّبَعٌ والشرُّ محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره ، ففهمه ذلك . ثم تعزّى فقال : إلى أن يملك منّا أربعةَ عشرَ ملكاً يدور الزمان . فهلكوا كلهم فى أربعين سنة .

وفود همدان على النبى

صلى الله عليه وسلم

قدم مالك بن نَمَط فى وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقُوه مُقبِلًا من تَبوك ، فقال مالك بن نَمَط : يارسول الله نصيّة من همْدان ، من كل حاضر وباد ، أتَوْك على قُلُص نَوَاج ، متصلة بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، من مخلاف خارف ، ويام وشاكر عهدُهم لا يُنقض ، عن سُنّة ماحل [1] ولا سوداء عَنْقفير [2] ، ما أقامت لَعْلع ، وما جرى اليَعفورُ بصُلَّع [3]

فكتب إليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مِخلاف خارف ، وأهل جِنَاب الهَضْب ، وحِقَاف الرمل ، مع وفدها ذى المِشعار مالك بن نَمَط ومن أسلم من قومه ، أن لهم فِرَاعَها ووِهاطها وعَزَازَها ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون عِلافَها ، ويرعون عَفَاها ، لنا من دِفْئِهم وصِرامِهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ والنَاب والفصيل والفارِض الداجن والكبش الحَوَرِىّ ؛ وعليهم الصَّالغ والقارح .

(١) الماحل : الساعى بالنميمة والإفساد .
(٢) العنقفير : الداهية .
(٣) واليعفور : ولد الظبية . ولعلع : جبل . وصلع : الأرض لا نبات لها .

وفود النخع على النبي
صلى الله عليه وسلم

قدم أبو عمرو النَّخعى على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى رأيت فى طريقى هذه رُؤيا ، رأيت أتاناً تركتُها فى الحىّ ولدت جَدْيا أسْفَعَ أحوى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لك من أمة تركتها مُصِرَّة[1] حملا ؟ قال : نعم ، تركت أمة لى أظنها قد حملت ؟ قال : فقد ولدت غلاما وهو ابنك . قال : فما باله أسفع أحوى ؟ قال : ادُن منّى . فدنا منه ؛ فقال : هل بك بَرَصٌ تكتُمه ؟ قال نعم ، والذى بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علِم به . قال : فهو ذاك . قال : ورأيت النُّعمان بن المُنذر عليه قُرطان ودُمْلجان ومَسَكتان . قال : ذلك مُلك العرب عاد إلى أفضل زيِّه وبهجته . قال : ورأيت عجوزا شمطاء تخرج من الأرض قال : تلك بقيّة الدنيا . قال : ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يُقال له عمرو ، ورأيتها تقول : لظَى لظى ! بصيرٌ وأعمى ! أطعمونى ! آكلكم آكلكم ! أهلككم ومالكم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تلك فتنة فى آخر الزمان . قال : وما الفتنة يا رسول الله ؟ قال : يقتل الناس إمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطْباق الرأس ـ وخالف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه ـ يحسب المُسيء أنه محسن ، ودمُ المؤمن عند المؤمن أحلى من شُرب الماء .

وفود كلب على النبي
صلى الله عليه وسلم

قدِمَ قطَن بن حارثة العُليمى فى وفد كلب على النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر كلاما ، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا نُسخته :

هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر كلب وأحلافها ، ومن ظأَرَهُ الإسلام من غيرها ، مع قطن بن حارثة العُليمى ، بإقامة الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ،

(١) مصرة حملا ، أى ذات حمل محقق .

فى شدة عَقْدها ، ووفاء عهدها ، بمحضر شهود من المسلمين : سَعد بن عُبادة ، وعبد الله بن أُنيس ، ودِحْية بن خليفة الكلبى ، عليهم فى الحُمولةِ الراعية البِساطِ الظُّؤار ، فى كلّ خمسين ناقةٌ غيرُ ذات عوّار ، والحَمُولةُ المائرة لهم لاغيَة ، وفى الشَّوِىّ الوَرِىّ مُسِنَّة حامل أو حائل ، وفيما سقى الجدولُ من العين المَعين العُشْرُ من ثمرها مما أخرجت أرضُها ، وفى العِذْى شطرُه بقيمة الأمين ، فلا تُزاد عليهم وظيفة ولا يُفرَّق . يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله .

وكتب ثابت بن قيس بن شمّاس .

وفود ثقيف على النبى

صلى الله عليه وسلم

وفدت ثَقيف على النبى صلى الله عليه وسلم ، فكتب لهم كتابا حين أسلموا : ن لهم ذمة الله ، وأن واديهم حرام ، عِضاهُه وصَيْدُهُ وظُلْمٌ فيه ، وأن ما كان لهم ن دَين إلى أجل فبلغ أجلَه فإنه لِياطٌ مُبرَّأ من الله ورسوله ، وأن ما كان لهم من دَين ، رَهن وراء عُكاظ ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه ويُلَاطُ بعُكاظ ولا يؤخَّر .

وفود مذحج على النبى

صلى الله عليه وسلم

وفَد ظَبْيان بن حدّاد فى سراة مَذْحِج على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثناء على الله عزّ وجل بما هو أهله .

الحمد لله الذى صَدَع الأرض بالنبات ، وفتق السماء بالرَّجْع . ثم قال : نحن قوم من سَراة مذحج من يُحابِر بن مالك . ثم قال : فتَوَقَّلَتْ بنا القلاص ، من أعالى الحَوْف ورءوس الهضاب ، ترفعها عُرَر الرُّبا وتَخفِضُها بُطْنانُ الرقاق ، وتَلْحَفُها دياجى الدُّجى . ثم قال : وسروات الطائف كانت لبنى مهْلائيل بن قَيْنان : غَرَسُوا وديانَه وذلّلوا خِشَانَه ، ورَعَوا قُربانه . ثم ذكر نُوحا حين خرج من السفينة

بمن معه ، قال فكان أكثرَ بنيه بَناتا . وأسرعَهم نَباتا ، عادٌ وثمود ، فرماهم الله بالدَّمالق ، وأهلكهم بالصواعق . ثم قال : وكانت بنو هانئ من ثمود تسكن الطائف ، وهم الذين خطُّوا مَشاربها ، وأتَوْا جداولَها ، وأحيَوْا غِراسها ، ورفعوا عَريشها . ثم قال : وإن حِمْير ملكوا مَعاقل الأرض وقَرارَها ، وكُهول الناس وأغمارَها ، ورءوسَ الملوكِ وغِرارَها ، فكان لهم البَيضاء والسوداء ، وفارسُ الحمراء ، والجِزية الصفراء ؛ فبطِروا النِّعم ، وآستحقوا النِّقم ، فضرب الله بعضَهم ببعض . ثم قال : وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر ، ففتحوا فيها الشرائع ، وبنوا فيها المصَانع ، وآتخذوا الدَّسائع ؛ ثم ترامتْ مذحج بأسنّتها ، وتنزَّتْ بأعنّتها : فغلب العزيزُ أذلَّها ، وقتل الكثيرُ أقلَّها . ثم قال : وكان بنو عمرو بن جَذيمة يَخبِطون عَضيدها ، ويأكلون حَصيدها ، ويُرشِّحون خَضيدَها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنّ نعيم الدنيا أقلُّ وأصغرُ عند الله من خُرْءِ بُعَيضة ، ولو عَدَلت عند الله جَناحَ ذبابٍ لم يكن لكافر منها خَلاق ، ولا لمسلم منها لَحاق .

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ لقيط بن عامر بن المُنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبٌ له يقال له نَهِيكُ بن عاصم بن مالك بن المُنتفق .

قال لَقيط : فخرجتُ أنا وصاحبي حتى قَدِمنا المدينة لآنسلاخ رجب ، فأتينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فوافيناه حين آنصرف من صلاة الغَداة ؛ فقام فى الناس خَطيبا ، فقال : أيها الناس ، ألا إنى قد خَبأتُ لكم صَوْتى منذ أربعة أيام ، لتسمعوا الآن [1] ، ألا فهل من امرئ قد بَعثه قومُه ؟ ـ فقالوا : اعْلَمْ لنا ما يقول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـ ألا ، ثم لعله أن يُلهيه حديثُ نفسه

(١) فى بعض الأصول : « ألا لأسمعنكم اليوم » .

أو حديث صاحبه أو يلهيه ضالٌ ، ألا وإنى مسئول هل بلّغت ، ألا اسمعوا ألا اجلسوا .

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبى ، حتى إذا فرغ لنا فؤادُه وبصرُه ، قلت : يارسول الله ، ماعندك من علم الغيب ؟ فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه ، وعلم أنى أبتغى سَقَطه ؛ فقال : ضَنَّ رَبُّكَ بمفاتيح خمس من الغَيب لا يعلمهن إلا الله ـ وأشار بيده ـ قلت : وما هى ؟ قال : عِلْم المنيّة ، قد علم متى مَنيّةُ أحدكم ولا تعلمونه ؛ وعِلم مافى غد وما أنت طاعم غدا ، ولا تعلمه ، وعلم المَنِيّ حين يكون فى الرّحم ، قد علمه ولا تعلمونه ؛ وعِلم الغيث ، يُشرف عليكم آزلين مُسْنِتين (١) فيظلّ يضحك ، قد عَلِمَ أن عونكم قريب .

قال لقيط : قالت : لن نَعدم من رب يَضحك خيرا .

وعلم يوم الساعة . قلت : يارسول الله ، إنى سائلك عن حاجتى فلا تعجلنى .

قال : سَل عما شئت .

قال : قلت : يارسول الله ، علّمنا مما لا يعلم الناس ومما تَعْلم ؛ فإنا من قَبيل لا يصدّقون تصديقَنا أحدا ؛ من مذحج التى تدنو إلينا ، وخثعم التى توالينا ، وعشيرتنا التى نحن منها .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : تَلْبَثُون ما لبثتم ، ثم يُتَوَفَّى نبيُّكم ، ثم تلبثون حتى تُبعث الصيحة ، فلَعَمْرُ إلهك ماتدع على ظهرها من شىء إلا مات ، والملائكة الذين عند ربك ؛ فيُصبح ربُّك يطوف فى الأرض وقد خَلت عليه البلاد ، فيرسل ربُّك السماء بهَضْب من عند العرش ، فلَعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من مَصْرع قَتيل ، ولا مَدفن ميّت ، إلا شقّت القبر عنه حتى تخلقه من قِبل رأسه فيستوى جالسا ، ثم يقول ربك : مَهْيَم ـ لما كان فيه ـ فيقول : يارب ، أمس ! اليوم ! ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله .

فقلت : يارسول الله ، كيف يجمعنا بعد ماتفرقنا الرياح والبِلَى والسباع ؟

(١) آزلين : قد صرتم فى جدب وقحط . ومسنتين : قد أصابتكم الشدة . وفى بعض الأصول : « أذلين مشفقين » .

قال : أنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله ، أشرفتُ على الأرض وهى مَدَرة يابسة فقلت : لا تَحيا هـذه أبدا ، ثم أرسل ربُّك عليها السماء فلم تلبث إلا أياما حتى أشرفتُ عليها وهى شَرَبة واحدة ، ولَعَمْر إلهك لهو أقدرُ على أن يَجمعكم من الماء على أن يَجمع نباتَ الأرض ، فتخرجون من الأصواء ـ قال ابن إسحاق : الأصواء أعلام القبور ـ ومن مصارعكم ، فتنظرون إليه وينظر إليكم .

قال : قلت : يا رسول الله ، وكيف ، نحن مِلْء الأرض وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا ؟

قال : أُنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله : الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وتَروه من أن تروهما ويرياكم ، لا تُضارون فى رؤيتهما .

قال : قلت : يا رسول الله ، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟

قال : تُعرضون عليه باديةً له صفحاتُكم لا يخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك بيده غَرفة من الماء ، فينَضح بها قُبْلكم ، فلعمر إلهك ما تُخطئ وجه أحدكم منها قطرة . فأما المُسلم فتدع وجهه مثل الرَّيْطةِ البيضاء ، وأما الكافر فتَخطمه بمثل الحمِيم الأسود . ثم ينصرف نبيّكم ويتفرق على أثره الصالحون . قال : فتسلكون جسراً من النار ، فيطأ أحدكم الجمر يقول : حس ! يقول ربك : أوَ إنّه ؟ فتطّلعون على حوض الرسول لا نظمأ والله ناهلُه ، فلعمر إلهك ما يبسُط أحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يُطهره من الطَّوْف والبول والأذى ، وتُحبَس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحدا .

قال : قلت : يارسول الله ، فبِم نُبصر يومئذ ؟

قال : بمثل بصرك ساعتك هذه ؛ وذلك قبل طلوع الشمس فى يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال .

قال : قلت : يارسول الله ، فبم نُجزَى من سيّئاتنا وحسناتنا ؟

قال : الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، إلا أن يعفو .

قال : قلت يارسول الله ، فما الجنة وما النار ؟

قال : لعمر إلهك إنّ للنار لسبعة أبواب ، مامنها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما . وإن للجنة لثمانيةَ أبواب ، مامنها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما .

قال : قلت : يارسول الله ، فعلام نطّلع من الجنة ؟

قال : على أنهار من عسل مُصفّى ، وأنهار من كأس ما بها من صُداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله معه ، وأزواج مطهَّرة .

قال : قلت : يارسول الله ، أوَ لنا فيها أزواج ؟ أوَ منهن صالحات ؟

قال : الصالحات للصالحين ، تلَذُّون بهن مثل لذاتكم فى الدنيا ، ويلْذَذْنَ بكم ، غير أنْ لا توالد .

قال لقيط : قلت : أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه ، فلم يجبه النبى صلى الله عليه وسلم .

قال : قلت : يارسول الله ، علام أبايعك ؟ قال : فبسط إلىّ يده وقال : على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وزِيال الشّرك ، وألّا تشرك بالله إلها غيره .

قال : فقلت : وإنّ لنا ما بين المشرق والمغرب ؟ .

فقبض صلى الله عليه وسلم يده وظن أنى مُشْتَرِطٌ شيئاً لا يُعطينيه .

قال : قلت : نَحُلّ منها حيث شئنا ، ولا يجزى عن امرئ إلا نفسه ؟ فبسط إلىّ يده وقال : ذلك لك : حُلّ حيث شئت ، ولا يجزى عنك إلا نفسك . قال : فانصرفنا عنه .

وفود قيـــلة على النبى

صلى الله عليه وسلم

خرجت قيْلة بنت مخرمة التّميمية تبغى الصُّحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمُّ بناتها ، وهو أثوب بن أزهر ، قد انتزع منها بناتها ، فبكت

جُويرِيةٌ مِنهن حُديباء قد أخذتها الفَرْصة ، عليها سُبيِّج من صوف ، فرحِمْتها فذهبت بها . فبينما هما تُرْتِكان الجمل إذ انتفجت منه الأرنب ؛ فقالت الحُديباء : الفَصْية . والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب . ثم سَنح الثعلب ، فسمّته اسما غير الثعلب نَسِيَه ناقلُ الحديث . ثم قالت فيه مثل ما قالت فى الأرنب ، فبينما هما تُرتكان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رِعدة . فقالت الحديباء : أخذتك والأمانةِ إخذةَ أثوب . قالت قَيلة : فقلت لها : فما أصنع ، ويحك ! قالت : قلِّبي ثيابك ظهورَها لبطونها ، وادَّحرَجى ظهرك لبطنك ، وقلِّبي أحلاس جَملك . ثم خلعت سُبَيِّجها فقلبته ، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها ، فلما فعلتُ ما أمرتْنى به انتفض الجمل ، ثم قام فنأج وبال ، فقالت : أعيدى عليه أداتك . ففعلتُ ، ثم خرجنا نُرتك ، فإذا أثوبُ يسعى وراءنا بالسيف صَلْتا ، فوأْلنا إلى حِواء ضخم فداراه ، حتى ألقى الجمل إلى رُواقه الأوسط ، وكان جملًا ذلولا ، واقتحمتُ داخله وأدركنى بالسيف ، فأصابت ظُبته طائفةً من قرون رأسِيَهْ ؛ ثم قال : ألقِ إلىّ ابنة أخى يادَفارِ . فألقيتها إليه . فجعلها على مِنكبه وذهب بها . وكنتُ أعلمَ به من أهل البيت ، وخرجتُ إلى أخت لى ناكحٍ فى بنى شَيبان أبتغى الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينما أنا عندها تحسَب أنى نائمة ، إذ جاء زوجها من السامر ، فقال لها : وأبيك لقد وجدتُ لقيلة صاحبَ صدق . قالت أختى : مَن هو ؟ قال : حُريث بن حسّان الشَّيبانى ، وافد بكر بن وائل عاويا ذا صباح . فقالت أختى : الويل لى ، لا تخبرها فتتبعَ أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ، ليس معها أحد من قومها . قال : لا ذكرتهُ .

قالت : وسمعت ما قالا ؛ فغدوت إلى جملى فشددت عليه ، ثم نشدتُ عنه فوجدته غيرَ بعيد . فسألته الصُّحبة فقال : نعَمْ وكرامة ، وركابه مُناخة عنده .

قالت : فسرت معه صاحبَ صِدق ؛ حتى قَدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالناس صلاة الغداة : قد أُقيمت حين شق الفجر ، والنجوم شابكة فى السماء ، والرجال لا تكاد تعارفُ من ظُلمة الليل ؛ فصففتُ مع الرجال ؛ وأنا

امرأة قريبة عهد بجاهلية ؛ فقال الرجل الذى يلينى من الصف : امرأة أنتِ أم رجل ؟ فقلت : لا بل امرأة . فقال : إنك كدت تفتنينى ، فصلّى فى النساء وراءك . فإذا صَفٌّ من نساء قد حدث عند الحُجرات لم أكن رأيتُه إذْ دخلت ؛ فكنت فيهن ؛ حتى إذا طلعت الشمس دنوتُ ؛ فجعلت إذا رأيت رجلا ذا رُواء وذا قِشْر[1] طَمَح إليه بصرى لأرى رسولَ الله فوق الناس ، حتى جاء رجل ؛ فقال : السلام عليك يارسول الله . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . وعليه تعنى النبي صلى الله عليه وسلم ـ أسمالُ مُليّتَيْن ، كانتا مُزعفرتين وقد نَفَضتا ؛ ومعه عُسَيِّب نخلة مَقشُوٌّ غير خُوصتين من أعلاه : وهو قاعد القُرفصاء . فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متخشعاً فى الجلسة أُرعدت من الفَرَق ، فقال جليسُه : يارسول الله ، أُرعدت المسكينة . فقال رسول الله ، ولم ينظر إلى وأنا عند ظهره : يامسكينة ، عليكِ السكينة .

قالت : فلما قالها صلى الله عليه وسلم أذهب الله ما كان دخل فى قلبى من الرّعب .

وتقدّم صاحبى أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال : يارسول الله ، اكتُب بيننا وبين تميم كتاباً بالدَّهناء لا يُجاوزها إلينا منهم إلا مسافرٌ أو مجاوزٌ .

قال : يا غلام ، اكتب له بالدَّهناء .

قالت : فلما رأيتُه أمر بأن يُكتب له ؛ شُخِص بى ، وهى وطنى ودارى ؛ فقلت : يارسول الله ؛ إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك ؛ إنما هذه الدهناء مُقَيَّدُ الجمل ومَرعى الغنم ؛ ونساء بنى تميم وأبناؤها وراء ذلك . فقال : أمسك يا غلام ، صدقت المسكينة المُسلم أخو المُسلم ، يسعهما الماء والشجر ، ويتعاونان على الفَتّان .

فلما رأى حُريث أن قد حيل دون كتابه ، قال كنت أنا وأنت كما قال فى المثل : حتفَها تَحمِلُ ضأنٌ بأظلافها ! فقلت : أمَا والله ما علمت إن كنتَ لدليلا

(١) القشر : اللباس .

فى الظلماء، جوادا لدَى الرّحل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا تلمنى أن أسأل حظى إذ سألت حظَّك. قال: وأىّ حظ لك فى الدهناء لا أبالك.

قلت مُقيّد جملى تُريده لجمل آمرأتك! فقال: لا جرم إنى أشهد رسول الله أنى لك أخٌ ما حَييت؛ إذ أثنيتِ علىّ عنده. فقلت: أمّا إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيلام ابنُ هذه أن يَفصل الخُطة، وينتصر من وراء الحَجَزة. فبكيتُ ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراما، فقاتل معك يوم الرَّبذة، ثم ذهب يمترى من خَيبر، فأصابته حُمّاها فمات فقال: لو لم تكونى مسكينة لجررناك على وجهك. أيُغلب أُحَيْدُكم على أن يصاحب صُويحبه فى الدنيا معروفا، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال: ربِّ آسِنى لما أمضيت، وأعنّى على ما أبقيت. فوالذى نفسُ محمد بيده إنّ أحدكم ليبكى فيستعبر له صُويحبه؛ فياعباد الله لا تعذّبوا إخوانكم ثم كتب لها فى قطعة أدم أحمر: لقَيلة والنسوة من بنات قيلة يُظلمن حقّا، ولا يُكرهن على مَنكح، وكل مؤمن مسلم لهن نصير أحْسِنّ ولا تسِئْن.

كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم

لأكيدر دومة

من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُكيدر دُومة، حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيفِ الله فى دُومة الجندل وأكنافها:

إن لنا الضاحية من الضّحل والبَوْرِ والمَعامِى وأغفال الأرض والحَلْقة والسّلاح والحافر والحصْن، ولكم الضّامنة من النخل والمَعين من المعمور [1]، لا تَعدل

(١) زيد فى بعض الأصول: «بعد الخمس».

سارحتُكم ولا تُعدّ فاردتُكم ، ولا يُحظَر عليكم النبات . تُقيمون الصلاة لوقتها ، وتُؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين .

كتابه صلى الله عليه وسلم

لوائل بن حجر الحضرمى

من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب من أهل حَضرموت بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة : فى التيعة شاة ، لا مُقوَّرة الألياط ولا ضِناك ، وأنطور الثَّبْجَة والتيمة لصاحبها ، وفى السُّيوب الخُمس : لا خِلاط ، ولا وِراط ، ولا شِناق ، ولا شِغار ، ومن أجْبَى فقد أربَى ، وكل مُسكرٍ حرام .

حديث جرير بن عبد الله البجلى

قدم جرير بن عبد الله البَجَلىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن منزله ببيشة ، فقال سَهْل ودَكْداك ، وسَلَم وأراك ، وحَمض وعَلاك ، إلى نخلة ونخلة ، ماؤها ينبوع ، وجنابها مَريع ، وشِتاؤها ربيع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ خير الماء الشِّبِم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك ، والسَّلم إذا أخلف كان لَجِينا ، وإذا أسقط كان دَرِينا ، وإذا أكل كان لَبِينا .

وفى كلامه عليه السلام : إن الله خلق الأرض السُّفلى من الزَّبد الجُفاء والماء والكُباء .

حديث عياش بن أبى ربيعة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيّاش بن أبى ربيعة إلى بنى عبد كُلال وقال له : خُذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم ، فهم قائلون لك اقرأ . فاقرأ : ﴿ لم يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ ﴾ . فإذا

فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين . فلن تأتيك حجة إلا وقد دُحِضت ولا كتاب زخرف إلا وذهب نُوره ومَحّ لونه ، وهم قارئون ، فإذا رَطنوا فقد ترجموا . فقُل : حَسَن ، آمنت بالله وما أنزل من كتاب الله . فإذا أسلموا فسَلْهم قُضُبَهم الثلاثة التي إذا تخصّروا بها سُجِد لهم ، وهى الأثل قضيب ملمع ببياض ، وقضيب ذو عُجَر كأنه من خيزران ، والأسود البهيم ، كأنه من ساسَم . ثم اخرُج بها فحرِّقها فى سُوقهم .

حديث راشد بن عبد ربه السلمى

عبد الله بن الحكم الواسطىّ عن بعض أشياخ أهل الشام ، قال : قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نَجران ، فولّاه الصلاة والحرب ، ووجّه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم . قال راشد بن عبد ربه :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وأقْصَرَ شأوهُ * ورَدّتْ عليه ما نَفَتْهُ تُماضِرُ
وحكّمه شَيْبُ القذالِ عن الصّبا * وللشَّيْبُ عن بعضِ الغَوايَةِ زاجِرُ
فأقْصرَ جهلى اليومَ وارتدّ باطِلِى * عن الجهل لما ابْيَضّ مِنّى الغَدائرُ
على أنه قد هاجَهُ بعد صَحْوَةٍ * بمعرض ذى الآجامِ عيسٌ بواكرُ
ولما دَنَتْ من جانِبِ الغُوطِ أخْصَبَتْ * وحَلّتْ وَلاقاها سُلَيمٌ وعامِرُ
وخَبّرها الرُّكْبانُ أنْ ليس بينَها * وبين قُرَى بُصْرَى ونَجرانَ كافِرُ
فألْقَتْ عَصاها واستقَرّت بها النّوى * كما قَرّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

وفود نابغة بنى جعدة

على النبى صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ أبو ليلى نابغةُ بنى جَعدة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بَلَغْنا السماء مَجْدُنا وسَناؤنا * وإنا لَنَبْغِى فوقَ ذلك مَظهَرَا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله . فلما انتهى إلى قوله :

ولا خيرَ فى حِلمٍ إذا لم تكن له ٭ بَوادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرَا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ ! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفَضّ له سِن ، وبقى حتى وفد على عبد الله بن الزبير فى أيامه بمكة وامتدحه ، فقال له : يا أبا ليلى ، إنّ أدنى وسائلك عندنا الشعر ، لك فى مال الله حَقّان : حق برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقٌّ بشركتك أهل الإسلام فى فيئهم . ثم أحسن صلته وأجازه .

وفود طهفة بن أبى زهير النهدى
على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قام طهفة [1] ابن أبى زُهير ، فقال : يارسول الله ، أتيناك من غَوْرَى تهامة بإكوار المَيْس ، ترمى بنا العِيس ، نَستحلب الصَّبِير ، ونَستخلب الخَبير ؛ ونستعضد البَرِير ، ونَستخيل الرِّهام ، ونستحيل الجَهام ، من أرض غائلة النِّطاء ، غليظة الوِطاء ، قد نَشِفَ المُدْهُن ويَبِس الجِعْثِن ، وسَقط الأُملوج ، ومات العُسلوج ؛ وهلك الهَدِىّ ، ومات الوَدِىّ ، برئنا يارسول الله من الوَثَن والعَنَن ، وما يُحدث الزمن ؛ لنا دعوة السلام ، وشريعة الإسلام ، ماطَمَى البحر ، وقام تِعَار ؛ ولنا نَعَمٌ هُمَّل أغفال ، ماتَبِضّ ببلال ؛ ووَقِيرٌ كثير الرَّسْل ، قليل الرِّسْل ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراء مؤزِلة ، ليس بها عَلَل ولا نَهَل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك لهم فى مَحْضها ومَخْضها ومَذْقها ، وآبعث راعيها فى الدَّثْر ، بيانع الثَّمر ، وافجُر له الثَّمد ، وبارك له فى المال والولد . من أقام الصلاة كان مُسلما ، ومن آتى الزكاة كان مُحسنا ، ومن شَهد

(١) ويروى طخفة ، بالخاء المعجمة .

أن لا إله إلا الله كان مُخلصا . لكم يابنى نهد ، ودائع الشِّرك ، ووضائع الملك ، لا تُلطِط فى الزكاة ، ولا تُلحِد فى الحياة ، ولا تَثاقل عن الصلاة .

وكتب معه كتاباً إلى بنى نهد : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد، السلامُ على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نَهد فى الوظيفة الفَريضة ، ولكم الفارض والفريش ، وذو العِنان الرَّكوب والفِلو الضبيس ، لا يُمنع سَرحكم ، ولا يُعْضد طَلْحكم ، ولا يُحبس دَرّكم ، مالم تُضمروا الإماق ، وتأكلوا الرِّباق . من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى عليه فعليه الرّبوة .

وفود جبلة بن الأيهم

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه

العِجْلى قال : حدثنى أبو الحسن علىّ بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكوفى بهيت ، قال : حدثنى إبراهيم بن علىّ مولى بنى هاشم ، قال : حدثنا ثِقات شيوخنا أنّ جبلة بن الأيهم بن أبى شمر الغسّانى لما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك ويَستأذنه فى القدوم عليه . فسُرَّ بذلك عمرُ والمسلمون ، فكتب إليه أن اقْدَمْ ولك ما لَنا وعليك ما علينا ، فخرج جَبلة فى خمسمائة فارس من علكّ وجَفنة ، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثيابَ الوشى المَنسوج بالذهب والفضة ، ولبس يومئذ جبلةُ تاجه وفيه قُرط مارية ، وهى جدّته فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر إليه ، حتى النساء والصبيان ، وفرح المُسلمون بقدومه وإسلامه ، حتى حضر الموسمَ من عامِه ذلك مع عمرَ بن الخطاب : فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطِئ على إزاره رجلٌ من بنى فَزارة فَحَلّه ، فالتفت إليه جَبَلةُ مُغضبا . فلطمه فهشم أنفه ، فاستعدى عليه الفَزارى عمرَ بن الخطاب . فبعث إليه فقال : ما دعاك يا جَبلة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفَزارى فهشمتَ أنفه ؟

فقال : إنّه وَطِئ إزارى فحلّه ، ولولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه

عيناه . فقال له عمر : أمّا أنت فقد أقررت . إمّا أن تُرضيه وإلا أقدْتُه منك قال : أتقيده منى وأنا ملك وهو سُوقة؟ قال : ياجبلة ، إنه قد جمعك وإيّاه الإسلام ، فما تفضُله بشيء إلا [بالتُّقى] بالعافية . قال : والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية . قال عمر : دع عنك ذلك . قال : إذن أتنصَّر . قال : إن تنصَّرت ضربتُ عنقك . قال : واجتمع قومُ جَبلة وبنو فَزارة فكادت تكون فِتنة ، فقال جبلة : أخِّرنى إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك لك .

فلما كان جنح الليل خرج جبلةُ وأصحابه ، فلم يثْن حتى دخل القسطنطينية على هرقل ، فتنصَّر وأقام عنده ، وأعظم هرقلُ قدومَ جبلة ، وسُر بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرِّباع .

ثم بعث عمر بن الخطاب رسولًا إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام ، فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول : ألَقِيتَ ابنَ عمك هذا الذى ببلدنا ـ يعنى جبلة ـ الذى أتانا راغباً فى ديننا ؟ قال : ما لقيتُه .

قال : القَهْ ، ثم آئتنى أعطِك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة ، فإذا عليه من القَهارمة والحُجّاب والبهجة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هرقل .

قال الرسول : فلم أزل أتلطف فى الإذن حتى أذن لى ، فدخلت عليه ، فرأيت رجلًا أصهب اللحية ذا سِبال ؛ وكان عهدى به أسمر أسودَ اللحية والرأس . فنظرتُ إليه فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسُحَالة الذهب فذرّها فى لِحيته حتى عاد أصهب ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير ، قوائمه أربعة أسُود من ذهب ، فلما عَرفنى رفعنى معه فى السرير ، فجعل يُسائلنى عن المسلمين ، فذكرتُ خيراً ، وقلت : قد أُضعفوا أضعافا على ما تعرف . فقال : كيف تركت عمر بن الخطاب ؟ قلت : بخير . فرأيت الغم قد تبيّن فيه لما ذكرت له من سلامة عمر . قال : فانحدرت عن السرير . فقال : لِمَ تأبَى الكرامة التى أكرمناك بها ؟ قلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن هذا .

قال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك من الدَّنس ولا تُبال علام قعدت . فلما سمعته يقول : صلّى الله عليه وسلم طمعتُ فيه ، فقلت له : ويحك ياجبلة ! ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله ؟ قال : أبَعْدَ ماكان منى ؟

قلت : نعم ، قد فعل رجلٌ من بنى فَزارة أكثرَ مما فعلت : ارتد عن الإسلام وضَرب وجوهَ المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام وقُبِل ذلك منه وخلّفته بالمدينة مُسلما .

قال : ذَرنى من هذا ؛ إن كنتَ تَضمن لى أن يزوِّجنى عمر ابنته ويولّينى الأمر بعده رجعتُ إلى الإسلام . قلت : ضمنت لك التزويج ولم أضمن لك الإمرة .

قال : فأومأ إلى خادم بين يديه ، فذهب مُسرعا ، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضعت ، ونُصبت موائدُ الذهب وصِحاف الفضة ، وقال لى : كُلْ ، فقبضت يدى . وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة . فقال نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك وكُل فيما أحببت . قال : فأكل فى الذهب والفضة وأكلتُ فى الخَليج (١) ؛ فلما رُفع الطعامُ جىء بطِساس الفضة وأباريق الذهب ، وأومأ إلى خادم بين يديه ، فمرّ مُسرعا ، فسمعت حِسّا ، فالتفتُّ ، فإذا خدم معهن الكراسى مُرصّعة بالجواهر ، فوُضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره ، ثم سمعت حِسّا ، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر متكسرات فى الحَلى عليهن ثيابُ الديباج ، فلم أر وجوها قط أحسنَ منهن ، فأقعدهُنّ على الكراسىّ عن يمينه ؛ ثم سمعتُ حسّا ، فإذا عشر جوارٍ أخرى ، فأجلسهن على الكراسىّ عن يساره ؛ ثم سمعت حسّا ، فإذا جارية كأنها الشمس حُسنا ؛ وعلى رأسها تاج ، على ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه ، وفى يدها اليمنى جامٌ فيها مسكٌ وعنبر ، وفى يدها اليسرى جامة فيها ماء ورد ، فأومأتْ إلى الطائر أو قال : فصَفَرتْ بالطائر ، فوقع فى جام ماء الورد فاضطرب فيه ، ثم أومأتْ إليه أو قال : فصفرت به ، فطار حتى نزل على صليب

(١) الخليج : الجفنة .

فى تاج جَبلة ؛ فلم يزل يرفرف حتى نفض مافى ريشه عليه . وضحك جبلة من شدّة السرور حتى بدت أنيابه ؛ ثم التفت إلى الجوارى اللواتى عن يمينه ، فقال : بالله أطربننى ؛ فاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويقُلْن :

لله دَرُّ عصـــابةٍ نادمْتُهم * يوماً بجِلّقَ فى الزمانِ الأوّلِ
يَسقونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَحيقِ السَّلْسَلِ
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهِمُ * قبرِ ابنِ ماريَةَ الكريمِ المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلاَبُهُمْ * لا يَسألونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ
بِيضُ الوجوهِ أعِفّةٌ أحسابُهُمْ * شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

قال : فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلتُ : لا . قال : قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره ، فقال : بالله أبكيننا . فاندفعن يتغنين يَخْفقن بعيدانهن ويقُلْن :

لِمَنْ الدارُ أقفرَتْ بِمَعانِ * بين أعْلَى اليَرْموكِ فالخَمّان[1]
ذاكَ مَغْنًى لآلِ جَفْنَةَ فى الدّهــــرِ مَحـــلًّا لِحَادِثِ الأزمانِ
قد أرانى هناكَ دَهراً مَكِيناً * عند ذى التاجِ مَقعَدِى ومَكانى
ودَنا الفِصْحُ فالولائدُ يَنْظِمْـــنَ سِرَاعاً أكِلّةَ المَرْجانِ
لم يُعَلِّلْنَ بالمغـــافرِ والصَّمْــــغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشِّريانِ

قال : فبكى حتى جعلتْ الدموع تسيل على لحيته ؛ ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلت : لا أدرى . قال : حسان بن ثابت . ثم أنشأ يقول :

تَنصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمَةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكَنَّفَنى منها لَجَــاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيـــاليت أُمى لم تَلِدْنى وليتنى * رَجَعْتُ إلى الأمرِ الذى قال لى عُمَرْ

(١) رواية الأغانى ومعجم البلدان : الصمان . وهو موضع لظاهر البلقاء .

وياليتنى أرْعَى المَخاضَ بقَفْرةٍ ٭ وكنتُ أسيراً فى ربيعةَ أو مُضَرْ
وياليت لى بالشـامِ أدْنَى معيشةٍ ٭ أُجالِسُ قومى ذاهِبَ السَّمْعِ والبصَرْ

ثم سألنى عن حسان : أحىٌّ هو ؟ قلت : نعم ، تركته حيًّا . فأمر لى بكُسوة ومال ونُوق مُوقَرة بُرًّا . ثم قال لى : إن وجدتَه حيًّا فادفع إليـه الهدية واقرئه سلامى ، وإن وجدتَه ميتاً فادفعها إلى أهله وآنحر الجمال على قبره .

فلما قدمتُ على عمر أخبرتُه خبر جبلة وما دعوتُه إليه من الإسلام والشرطَ الذى شرطه وأنى ضمنتُ له التزويج ولم أضمن له الإمرة ، فقال : هلا ضمنت له الإمرة؛ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحُكمه عز وجل .

ثم ذكرتُ له الهدية التى أهداها إلى حسّان بن ثابت ، فبعثَ إليه وقد كُفَّ بصرُه ، فأُتى به وقائدٌ يقوده ، فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد رياحَ آلِ جفْنة عندك ! قال : نعم . هذا رجل أقبل من عنده . قال : هات يا بن أخى إنه كريم من كرام مدحتُهم فى الجاهلية فحلف ألّا يلقى أحـدا يعرفنى إلا أهدى إلى معه شيئا . فدفعتُ إليه الهدية . المـالَ والثياب ، وأخبرتُه بمـا كان أمر به فى الإبل إن وُجد ميتاً . فقال : وددت أنى كنت مَيتاً فنُحِرَتْ على قبرى .

قال الزبير : وانصرف حسان وهو يقول :

إنَّ ابن جَفْنَةَ مِنْ بقِيّةِ مَعْشَرٍ ٭ لمْ تغْـذُهمْ آباؤُهمْ باللومِ
لمْ ينْسَنى بالشّامِ إذْ هُوَ ربُّها ٭ مَلِكا ولا مُتَنصِّرًا بالرُّومِ
يُعطِى الجَزِيلَ ولا يَراهُ عندَهُ ٭ إلا كبعْضِ عطِيّةِ المذْمُومِ

فقال له رجل كان فى مجلس عمر : أتذكر مُلوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم ؟ قال : ممن الرجل ؟ قال : مُزَنى . قال : أمَا والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقتك طوق الحمامة .

قال : ثم جهزنى عمر إلى قيصر وأمرنى أن أضمن لجبلة ما اشترط به .

فلمـا قدمت القسطنطينية وجدتُ الناس مُنصرفين من جنازته ، فعلمت أنّ الشقاء غلب عليه فى أمّ الكتاب .

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

المدائنى قال : قدم الأحنفُ بن قيس التميمى على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده فى أنفسهم وما ينوب كلَّ واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفودُ أهل العراق ، وإنّ إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والمُلوك الجبابرة ، ومنازلَ كسرى وقيصر وبنى الأصفر ، فهم من المياه العَذبة والجِنان المُخصبة فى مثل حِوَلاء السَّلَى وحدقة البعير [1] ، تأتيهم ثمارهم غضّة لم تتغيّر ؛ وإنا نزلنا أرضا نشاشةً طَرَفٌ فى فلاة وطرف فى ملح أجاج ، جانبٌ منها منابت القصب ، وجانب سَبخة نشّاشة لا يَجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها فى مثل مرىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف منّا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنّق ولدها ترنيقَ العنز ، تخاف عليه العدوّ والسبع ، فإلا ترفع خَسيستنا ، وتُنعشْ ركيستنا ، وتجبُر فاقتنا ، وتزيد فى عيالنا عِيالا ، وفى رجالنا رجالا ، وتُصَغّر درهمنا ، وتكبّر قفيزنا ، وتأمر لنا بحفر نهر نَستعذب به الماء هَلَكنا .

قال عمر : هذا والله السيد ! هذا والله السيد !

قال الأحنف : فما زلت أسمعها بعدها .

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس هناك ، وأمّه باهليّة .

قال عمر : هو خير منك إن كان صادقاً . يريد : إن كانت له نيّة

---

(١) الحولاء : غلاف أخضر مملوء ماء . والسلى : الجلدة الرقيقة التى يكون فيها الولد . ويكنى بحولاء السلى وحدقة البعير عن الخصب والخير .

فقال الأحنف :

أنا ابنُ الباهِلِيّةِ أرْضَعَتْنِي * بِثَدْيٍ لا أجَــدَّ ولا وخِيمِ
أغُضّ علَى القَذَى أجْفانَ عيْنِي * إذا شَرّ السَّفيهُ إلى الحَليمِ

قال فرجع الوفد واحتبس الأحنفَ عنده حولا وأشهراً ، ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذّرنا كُل منافق صَنَعِ اللسان ، وإنى خِفتك فاحتبستك ، فلم يبلغنى عنك إلا خير ؛ رأيت لك جُولًا[1] ومعقولا ؛ فارجع إلى منزلك واتق الله ربك . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يحتفر لهم نهراً .

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه

العُتبى عن أبيه قال : وفَد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأراد أن يُقرِع بينهما فى الرياسة ، فلما اجتمعت بنو تميم ، قال الأحنف :

ثوَى قدَحٌ عنْ قومِهِ طالمَا ثوَى * فلمّا أتاهُمْ قالَ قُومُوا تَنَاجَزُوا

فقال عمرو بن الأهتم : إنا كنّا وأنتم فى دار جاهليّة فكان الفضل فيها لمن جَهِل ، فسفكنا دماءكم ، وسَبينا نساءكم ، وإنّا اليوم فى دار الإسلام والفضلُ فيها لمن حلِم ؛ فغفر الله لنا ولك .

قال : فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهتم فقال عمرو بن الأهتم :

لمّا دعَتْنى لِلرِّيَاسَــةِ مِنْقَرٌ * لدَى مَجْلِسٍ أضْحَى بِهِ النَّجْمُ بادِيَا
شَدَدْتُ لهَا أزْرِى وقدْ كنْتُ قبْلَها * لأمْثالِهَا ممّا أشُــدُّ إزَارِيَا

وعمرو بن الأهتم : هو الذى تكلم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) الجول : الرأى .

وسأله عن الزبرقان ، فقال عمرو : مُطاع فى أدْنيْه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان : والله يا رسول الله إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكن حسدنى .

قال : أما والله يا رسول الله ، إنه لزَمِرُ المروءة ، ضيّق العَطَن ؛ أحمق الوالد لئيم الخال ؛ والله ما كذبتُ فى الأولى ولقد صدقتُ فى الأخرى ؛ رضيتُ عن بن عمى فقلتُ أحسن ما علمتُ ولم أكذب ، وسخِطتُ عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحرا .

وفود عمرو بن معديكرب

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسيّة على يدى سعد بن أبى وقّاص ، أبلى فيها عمرو بن معديكرب بلاءً حسناً ، فأوفده سعدٌ على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى فى الكتاب على عمرو ؛ فلما قَدِم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد ، فقال : أعرابى فى نَمِرته ، أسدٌ فى تأمورته ، نبطى فى جبايته ، يقسم بالسويّة ، ويعدل فى القضية وينفّل [1] فى السريّة ؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذَّرة. فقال عمر : لشدّ ما تقارضتُما الثناء . وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسيّة أن يُعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن ؛ فقال سعد لعمرو بن معد يكرب ما معك من للقرآن ؟ قال : ما معى شىء . قال : إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن . فقال عمرو :

إذا قُتِلْنا ولا يبكى لنا أحدٌ ٭ قالت قريشُ ألا تلك المقادير

(١) فى بعض الأصول : « وينفر » .

نُعطَى السَّوِيَّةَ من طعن له نَفَذٌ ۞ ولا سوِيَّةَ إذ تعْطَى الدنانيرُ

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر، فكتب إليه أن يُعْطَى على مقاماته فى الحرب.

وفود أهل اليمامة على أبى بكر الصديق

رضى الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبى بكر الصديق رضى الله عنه، بعد إيقاع خالد وقتْله مُسيلمة الكذاب، فقال لهم أبو بكر: ماكان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا ياخليفة رسول الله. قال: لابد أن تقولوا. قالوا: كان يقول: ياضِفدع كم تَنِقِّين. لا الشرابَ تَمنعين، ولا الماءَ تُكدِّرين، لنا نصفُ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: وبحكم! ما خرج هذا من إلٍّ ولا بِرّ، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد: الإل: الله تعالى. والبر الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معديكرب

على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معد يكرب الزُّبيدى على مُجاشع بن مسعود السُّلمى ـ وكانت بين عمرو وبين سُليم حروب فى الجاهلية ـ فقدم عليه البصرة يسأله الصلة، فقال له: اذكُر حاجتك. فقال له: حاجتى صلةُ مثلى. فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفرساً من بنات الغبْراء، وسيفاً جُرازاً، ودِرْعا حَصِينة، وغلاما خبّازاً؛ فلما خرج من عنده ـ قال له أهل المجلس: كيف وجدتَ صاحبك؟ قال لله بنو سُليم! ما أشد فى الهيجاء لقاءها، وأكرم فى اللأْواء عطاءها، وأثبتَ فى المكرمات بناءها. والله يا بنى سُليم، لقد قاتلناكم فى الجاهلية فما أجْبنَّاكم، ولقد هاجيناكم فما أفحمناكم، ولقد سألناكم فما أبخلناكم:

فلله مسئولاً نَوالاً ونائلاً ۞ وصاحبَ هَيْجٍ يومَ هَيْجٍ مُجاشعُ

وفود الحسن بن علي رضى الله عنهما

على معاوية رضى الله عنه

أبو بكر بن أبي شَيبة قال : وفد الحسن بن علي رضى الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة ، فقال له معاوية : والله لأحبُوَنَّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك ولا أُجيز بها أحداً بعدك . فأمر له بمائة ألف .

وفى بعض الحديث إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته فاطمة ، فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها ، فقال لها : إن الله تعالى سيُصلح على يدى ابنك هذا بين فِئتين عظيمتين من المُسلمين .

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتبي قال : قدم زيد بن مُنْية على معاوية من البصرة ـ وهو أخو يعلى ابن مُنية صاحب جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة . وكان عُتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن مُنية ـ فلما دخل على معاوية شكا إليه ديناً لَزِمه . فقال : ياكعب ، أعطه ثلاثين ألفا . فلما ولّى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى . ثم قال له الحق بصهرك ـ يعنى عتبة ـ فقدم عليه مِصر ، فقال : إنّى سرتُ إليك شهرين ، أخوض فيهما المتالف ، ألبس أردية الليل مَرَّة ، وأخوض فى لُجج السراب أخرى ، مُوقَراً من حسن الظن بك ، وهارباً من دهر قَطِم ، ودَيْن لَزِم ، بعد غِنًى جَدعْنا به أنوف الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك مَهْرباً وعليك مُعَوَّلا . فقال عُتبة : مرحباً بك وأهلا ؛ إن الدهر أعاركم غِنًى ، وخَلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذُه ، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضيعة معه ، وأنا واضعٌ يدى ويدك بيد الله فأعطاه ستين ألفاً ، كما أعطاه معاويةُ رحمه الله .

وفود عبد العزيز بن زرارة

على معاوية رحمه الله

العُتبي عن أبيه قال : وفد عبد العزيز بن زُرارة على معاوية وهو سيّد أهل

الكوفة . فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أزل أهز ذوائب الرّحال إليك ؛ إذ لم أجد معوّلاً إلا عليك ، امتطى الليل بعد النهار ، وأسِم المجاهلَ بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، وتَسُوقنى بَلْوى ، والمجتهد يُعْذَر ، وإذ بلغتك فقطْنى . فقال معاوية : احطُط عن راحلتك رحلَها .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة ، فهلك هناك ؛ فكتب به يزيدُ بن معاوية إلى معاوية ، فقال لزرارة : أتانى اليوم نَعىُ سيد شباب العرب . قال زرارة : يا أمير المؤمنين ، هو ابنى أو ابنك . قال : بل ابنك . قال : لِلموتِ ماتلد الوالدة .

أخذه سابق البربرى فقال :

وللموتِ تغذو الوالداتُ سِخالَها ٭ كما لِخرابِ الدهرِ تُبْنَى المساكِنُ

وقال آخر :

لِلموتِ يولَدُ مِنّا كُلُّ مولودِ ٭ لا شىءَ يبقَى ولا يَفْنَى بِموْجودِ

وفود عبد الله بن جعفر

على يزيد بن معاوية

المدائنى قال : قَدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية ، فقال له : كم كان عَطاؤك ؟ فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فداك أبى وأمى ، وما قلتُها لأحد قبلك ! قال : أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف ؟ فقال : ويحكم ، إنما أعطيتُها أهلَ المدينة أجمعين ، فما يده فيها إلا عارية .

فلما كان فى السنة الثانية قَدم عبد الله بن جعفر ، وقدم مولًى له يقال له نافع ، كانت له منزلة من يزيد بن معاوية . قال نافع : فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف ، وقضى عنه ألفَ ألف ، ثم نظر إلى فتبسم ، فقلت : هذه لتلك الليلة . وكنتُ سامرتُه ليلة فى خلافة معاوية وأسمعتُه فيها ،

فذكرته بها . وقَدِمتْ عليه هدايا من مصر كثيرة ، فأمر بها لعبد الله بن جعفر ؛ وكانت له مائة ناقة ، فقلت لابن جعفر : لو سألته منها شيئاً نحتلبه فى طريقنا ؟ ففعل ، فأمر بصرفها كلها إليه . فلما أراد الوَداع أرسل إلىّ فدخلت عليه ، فقال : ويلك ! إنما أخّرتُك لأتفرغ إليك ، هات قولَ جميل :

خَليلىّ فيما عِشْتُما هل رأيْتُما * قتيلًا بَكَى مِن حُبِّ قاتِلِه قَبْلِى

قال ؛ فأسمعتُه ، فقال : أحسنت والله ؛ هات حاجتك ! فما سألته شيئاً إلا أعطانيه ، فقال : إن يُصلح اللهُ هذا الأمرَ من قِبَل ابن الزبيرِ تَلْقَنا بالمدينة ؛ فإن هذا لا يَحْسنُ إلا هناك . فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير .

وفود عبد الله بن جعفر

على عبد الملك بن مروان

قال بُدَيح : وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، وكان زوّج ابنتَه أم كلثوم من الحجاج على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، وحملها إليه إلى العراق ، فمكثت عنده ثمانية أشهر . قال بُديح : فلما خرج عبدُ الله ابن جعفر إلى عبد الملك بن مروان ، خرجنا معه حتى دخلنا دمشقَ ، فإنا لنحُطّ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وَرْدَة ومعه الناس ، فقلنا : جاء إلى ابن جعفر لُيحييه ويدعوه إلى منزله . فاستقبله ابنُ جعفر بالترحيب ، فقال له : لكن أنت لامرحباً بك ولا أهلا ! فقال : مهلا يابن أخى ، فلستُ أهلا لهذه المقالة منك . قال : بلى ، ولِشرٌ منها ، قال : وفيم ذلك ؟ قال : إنك عمدتَ إلى عقيلة نساء العرب ، وسيدةِ بنى عبد مناف ، ففرشتها عبدَ ثقيف يتفخّذها . قال : وفى هذا عَتب علىّ يابن أخى ؟ قال : وما أكثرُ مِن هذا ؟ قال : والله إنّ أحق الناس أن لا يلومنى فى هذا لأنت وأبوك ؛ إنْ كان مَن قبلكم من الوُلاة ليصلون رَحمى ، ويعرفون حق ، وإنك وأباك منعتمانى ماعندكما حتى ركبنى من الدّين ماوالله لو أن عبداً مُجدّعا حبشيًّا أعطانى بها ما أعطانى عبدُ ثقيف لزوجتها ؛ فإنما فديتُ

بها رقبتى من النار . قال : فما راجعه كلمةً حتى عطف عِنانه ، ومضى حتى دخل على عبد الملك ـ وكان الوليدُ إذا غضب عُرِف ذلك فى وجهه ـ فلما رآه عبد الملك قال : مالك أبا العباس ؟ قال : إنك سلّطت عبدَ ثقيف وملّكته ورفعته حتى تفخّذ نساء عبد مناف ، وأدركته الغيرة . فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج يعزم عليه ألّا يضع كتابه من يده حتى يطلّقها . . . فما قطع الحجّاج عنها رزقا ولا كرامة يُجريها عليها حتى خرجت من الدنيا . قال : وما زال واصلًا لعبد الله بن جعفر حتى هلك . قال بُديح : فما كان يأتى علينا هلالٌ إلا وعندنا عِير مُقبلة من الحجاج ، عليها لُطَفٌ وكُسوة وميرة ، حتى لحق عبدُ الله بن جعفر بالله .

ثم استأذن ابنُ جعفر على عبد الملك ، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب ، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره ، ثم سأله فألطف المسألة ، حتى سأله عن مطعمه ومشربه . فلما انقضت مسألته ، قال له يحيى بن الحكم : أمِن خِبْثة كان وَجْهك أبا جعفر ؟ قال : وما خبثة ؟ قال : أرضك التى جئت منها . قال : سبحان الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طِيبة وتسميها خِبثة ؟ لقد آختلفتما فى الدنيا وأظنكما فى الآخرة مختلفَيْن .

فلما خرج من عنده هيّأ له ابنُ جعفر هدايا وألطافا . فقلت لبُديح : ما قيمة ذلك ؟ قال : قيمته مائة ألف . من وُصَفاء ووصائف وكسوة وحرير ولُطَف من لطَف الحجاز . قال : فبعثنى بها ، فدخلتُ عليه وليس عنده أحد . فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً . قال : فما رأيت مثل إعظامه لكل ماعرضتُ عليه من ذلك ، وجعل يقول كلما أريتُه شيئا : عافَى الله أبا جعفر ! ما رأيت كاليوم ، وما نريد أن يتكلف لنا شيئا من هذا ، وإن كُنا لمتذمّمين محتشمين . قال : فخرجت من عنده وأذن لأصحابه .

فوالله لبينا أنا عند بن جعفر أحدّثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه ، إذا بفارس قد أقبل علينا ، فقال أبا جعفر ، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك ، ويقول لك : جمعت له وَتْخش رقيق الحجاز وأُبّاقهم وحَبسْتَ عنا فلانة ،

فابعث بها إلينا ـ وذلك أنه حين دخل عليه أصحابُه جعل يحدثهم عن هدايا ابن جعفر ويُعظمها عندهم ، فقال له يحيى بن الحكم : وماذا أهدى إليك ابنُ جعفر ؟ جمع لك وَخْش رقيق الحجاز وأَبّاقهم وحبس عنك فلانة . قال : ويلك ، وما فلانة هذه ؟ قال : ما لم يسمع والله أحدٌ بمثلها قطّ جمالا وكمالا وخُلقا وأدبا ، لو أراد كرامتك بعث بها إليك . قال : وأين تُراها . وأين تكون ؟ قال : هي والله معه ، وهي نفسه التي بين جنبيه ـ فلما قال الرسول ما قال ، وكان ابنُ جعفر في أذنه بعض الوقر ، إذا سمع ما يكره تصامّ ، فأقبل عليه فقال : مايقول بابُديح ؟ قال : قلت : فإنّ أمير المؤمنين يَقرأ السلام ويقول : إنه جاءنى بريد من ثغر كذا يقول : إن الله نصر المسلمين وأعزهم . قال : أقرأ أمير المؤمنين السلام ، وقل له : أعز اللهُ نصرك ، وكَبت عدوك . فقال الرسول : يا أبا جعفر ، إنى لست أقول هذا ، وأعاد مقالته الأولى . فسألنى فصرفته إلى وجه آخر . فأقبل عليّ الرسول ، فقال : يا ماصّ ... أبِرُسُل أمير المؤمنين تَهَكَّمُ ، وعن أمير المؤمنين تُجيب هذا الجواب ؟ أما والله لأطُلَّنَّ دمك . فانصرف ، وأقبل عليّ ابنُ جعفر فقال : مَن تُرى صاحبنا ؟ قال : صاحبُك بالأمس . قال : أظنه ! فما الرأى عندك ؟ قلت : يا أبا جعفر ، قد تكلّفت له ما تكلفت ، فإن منعتَها إياه جعلتها سبباً لمنعك ، ولو طلب أميرُ المؤمنين إحدى بناتك ما كنتُ أرى أن تمنعها إياه . قال : ادعها لي . فلما أقبلتْ . رحّب بها ثم أجلسها إلى جنبه ، ثم قال : أما والله ما كنتُ أظن أن يفرق بينى وبينك إلا الموت . قالت : وما ذاك ؟ قال : إنه حدث أمر ، وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببتِ ، جاء الدهر فيه بما جاء . قالت : وما هو ؟ قال : إن أمير المؤمنين بعث يطلبك . فإن تَهْوَىْ فذاك ، وإلا والله لم يكن أبدا . قالت : ماشيء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسى ، وأرسلتْ عينها بالبكاء . فقال لها : أما إذا فعلت فلا تَرَينّ مكروها : فمسحَتْ عينها ، وأشار إليّ فقال : ويحك يا بُديح استحثها قبل أن تتقدم إليّ من القوم بادرة . قال : ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار ، ودعا مولاة له كانت تلى

طيبَهُ ، فدَحَست لهـا ربعة عظيمة مملوءة طيبا ، ثم قال : عجِّلها ويلك . فخرجتُ أسوقها حتى انتهيت إلى البـاب ؛ وإذا الفارس قد بلّغ عنى ، فمـا تركنى الحجّاب أن تمس رجلاى الأرض حتى أُدخلت على عبد الملك وهو يتلظّى ، فقال لى ياماصّ ، وكذا أنت المُجيب عن أمير المؤمنين والمُتهكّم برسله ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، إيذن لى أتكلم . قال : وما تقول ياكذا وكذا ؟ قلت : إيذن لى جعلنى الله فداك أتكلم . قال : تكلم . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أصغر شأنا ، وأقل خطراً من أن يَبلغ كلامى من أمير المؤمنين ما أرى ، وهل أنا إلا عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين ، نعم ، قد قلت مابلغك ، وقد يعلم أمير المؤمنين أنَّا إنما نعيش فى كَنَف هذا الشيخ ، وأنّ الله لم يزل إليـه مُحسنا ، فجاءه من قِبلك شيء ما أتاه قطُّ مثلُه ، إنمـا طلبتَ نفسه التى بين جنبيه ، فأجبتُ بمـا بلغك لأسهّل الأمرَ عليه ؛ ثم سألنى فأخبرتُه واستشارنى فأشرتُ عليه ، وهاهى ذه قد جئتُك بها . قال : أدخلها ويلك ! قال : فأدخلتُها عليه وعنده مَسلمة ابنُه ، غلام ما رأيت مثلَه ولا أجمل منه حين اخضرّ شاربه . فلمـا جلستْ وكلّمها أُعجب بكلامها ، فقال : لله أبوكِ ، أمسكك لنفسى أحبُّ إليك أم أهبك لهذا الغلام ، فإنه ابنُ أمير المؤمنين ، قالت : ياأمير المؤمنين ، لستَ لك بحقيقة ، وعسى أن يكون هـذا الغلام لى وجها . قال : فقام من مكانه ما راجعها ، فدخل ، وأقبـل عليها مَسلمة فقال : يا لَكاع ، أعَلَى أمير المؤمنين تختارين ؟ قالت : ياعدوّ نفسه إنما تلومنى أن اخترتُك ! لعمر الله لقد فال رأىُ من اختارتك . قال : ضيّقتْ والله مجلسه . واطّلع علينا عبد الملك قد ادّهَن بدُهن وَارَى الشيب ، وعليه حُلة تتلألأ كأنها الذهب ، بيده مِخصرة يخطِر بهـا ، فجلس مجلسَه على سريره ، ثم قال : إيها ، لله أبوك ، أُمسكك لنفسى أحبُّ لك أم أهبك لهذا الغلام ؟ قالت : ومن أنت أصلحك الله ؟ قال لها الخصىّ : هـذا أمير المؤمنين ! قالت : لست مختارة على أمير المؤمنين أحدا . قال : فأين قولُك آنفا ؟ قالت : رأيتُ شيخاً كبيرا ، وأرى أمير المؤمنين أشبَّ الناس وأجملهم ، ولست مختارة عليه أحداً . قال : دونكها يا مَسلمة . قال بُديح : فنشرتُ عليه

الكُسوة والدنانير التى معى ، وأريتُه الجوارى والطِّيب . قال : عافى الله ابنَ جعفر ! أخَشِيَ ألا يكونَ لها عندنا نفقة وطيب وكُسوة ؟ فقلت : بلى ، ولكنه أحبَّ أن يكون معها ماتكتفى به حتى تستأنس . قال : فقَبضها مسلمة ، فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هَلكت . قال بُديح : فوالله الذى ذهب بنفس مَسلمة ، ماجلست معه مجلساً ولا وقفتُ موقِفاً أنازعه فيه الحديث ، إلا قال : ابْغِنِى مثل فلانة . فأقول : ابْغِنى مثل ابن جعفر .

قال : فقلت لبديح : ويلك ! فما أجازه به ؟ قال : قال حين دفع إليه حاجته ودينه : لأجيزنك جائزة لو نُشر لى مروان من قبره ما زِدْته عليها . فأمر له بمائة ألف . وايمُ الله إنى لا أحسبه أنفق فى هديته ومسيرِه ذلك وجاريتِه التى كانت عدل نفسه مائتى ألف .

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف : أن ابعث إلىَّ رجلا يصلح للدين والدنيا ، أتخذه سميراً وجليساً وخليًّا . فقال الحجاج : ما له إلا عامرٌ الشَّعبى . وبعث به إليه . فلما دخل عليه وجده قد كَبا مُهتما ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرتُ قول زهير[1] :

كأنى وقدْ جاوزتُ سَبعينَ حِجَّةً * خَلَعتُ بها عنى عِذارَ لِجامى
رَمتْنى بَناتُ الدهرِمن حيثُ لاأرى * فكيف بمن يُرْمى وليسَ برامى
فلو أننى أُرْمَى بِنَبْـــل رأيتُها * ولكننى أُرْمَى بغــيْرِ سِهامِ
على الراحَتَيْنِ تارةً وعلى العَصا * أنوءُ ثلاثاً بعدهُنّ قِيامِى

قال له الشّعبى : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيدُ بن ربيعة ، وقد بلغ سبعين حِجة :

كأنى وقد جاوزتُ سَبعين حِجةً * خَلَعْتُ بها عن مَنْكِبَىَّ رِدائيا

---

(١) ينسب هذا الشعر لعمرو بن قميئة.

ولما بلغ سَبعاً وسبعين سنة قال :

باتت تَشكّى إلىّ النفسُ مُوهَنةً ٭ وقد حَملْتُكِ سَبعاً بعد سَبعينَا
فإن تُزادِى ثلاثًا تَبلُغى أملًا ٭ وفى الثــلاثِ وَفاءٌ للثمانينا

ولما بلغ تسعين سنة قال :

ولقد سَئِمتُ من الحياةِ وطولِها ٭ وسُؤالِ هذا الناسِ كيف لَبِيد ؟

ولما بلغ عشراً ومائة قال :

أليسَ ورائى إن تَراخت مَنِيّتى ٭ لُزُومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابع
أُخَبّرُ أخبارَ القُرونِ التى خَلت ٭ أنوءُ كأنى كلما قمتُ راكعُ

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال :

تَمنّى ٱبنتاى أن يعيشَ أبوهُما ٭ وهل أنا إلا مِن رَبيعةَ أو مُضَرْ
فقُوما فقُولا بالذى تَعلَمانِه ٭ ولا تَخمِشا وجهاً ولا تَحلِقا شعرْ
وقولا هو المرءُ الذى لاصديقَهُ ٭ أضاعَ ولا خانَ الخليلَ ولا غَدَرْ
إلى سَنةٍ ثمّ الســلامُ عليكما ٭ ومن يَبْكِ حولًا كاملا فقدِ اعتذرْ

قال الشعبى : فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها .

وفود الحجاج بابراهيم بن محمد بن طلحة
على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال : لما ولى الحجاجُ بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير ، استخلص إبراهيمَ بن محمد بن طلحة فقرّبه وعظّم منزلته . فلم تزل تلك حالُه عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعادِلا ، لا يُقصِّر له فى برّ ولا إعظام ، حتى حضر به عبدَ الملك . فلما دخل عليه لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن قال له : قدمت عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدَع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وحُسن المذهب ، مع قرابة الرحم ، ووجوب الحق ، وعِظَم قدْر الأبوّة ، وما بلوتُ منه فى الطاعة والنصيحة وحسن المُوازرة ، وهو

إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرتُه بابَك ليسهل عليه إذنُك ، وتعرفَ له ماعرفتُك . فقال : أذكرتَنا رحماً قريبة وحقا واجبا ، ياغلام ، إيذن لإبراهيم ابن محمد بن طلحة . فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه ، ثم قال له : يابن طلحة ، إنّ أبا محمد ذكّرنا مالم نزل نعرفُك به فى الفضل والأدب والمُروءة وحُسنِ المذهب ، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعِظم قدر الأبوة ، وما بلاه منك فى الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة ، فلا تَدَعَنّ حاجةً فى خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتَها . فقال : ياأمير المؤمنين ، إن أول الحوائج ، وأحقّ ما قُدّم بين يدى الأمور ، ماكان لله فيه رِضا ، ولِحَقّ نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه وللجماعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحةٌ لا أجد بُدًّا من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال ، فأخلنى ياأمير المؤمنين تَرِدْ عليك نصيحتى . قال : دون أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ؟ قال عبد الملك للحجاج : قم . فلما خَطْرَفَ السِّتْرُ أقبل علىّ فقال : يابن طلحة ، قل نُصيحتك . فقال : تالله ياأمير المؤمنين ، لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرُسه وتعجْرُفه وبُعده من الحق وقُربه من الباطل ، فوليتَه الحرمين ، وهما ما هما ، وبهما ما بهما من المُهاجرين والأنصار ، والموالى الأخيار ، يطؤهم بطغام أهل الشام ، ورعاع لاروية لهم فى إقامة حق ولا فى إزاحة باطل ، ويسومهم الخَسف ، ويحكم فيهم بغير السُّنة بعد الذى كان من سَفْك دمائهم ، وما انتُهك من حُرَمِهم ؛ ثم ظننتَ أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق ، وفيما بينك وبين نبيك غَداً إذا جاثاك للخصومة بين يدى الله فى أمته . أمَا والله لاتنجو هنالك إلا بحجة . فارْبَعْ على نفسك أوْدَع . فقال له عبد الملك : كذبتَ ومِتَّ وظنّ بك الحجاجُ مالم يجده فيك ؛ وقد يُظَنّ الخير بغير أهله ؛ قُم فأنت الكاذب المائن . قال : فقمت وما أعرف طريقا . فلما خطرفت الستر لحقنى لاحق فقال : احبسوا هذا ، وقال للحجاج : ادخل . فدخل ، فمكث مليًا من النهار لا أشك أنهما فى أمرى ، ثم خرج الآذنُ فقال : ادخل يابن طلحة . فلما كُشِف لى الستر لقينى الحجاج وهو خارج وأنا داخل ؛ فاعتنقنى

وقبّل ما بين عينىّ ، وقال : أمّا إذا جزى الله المتواخيَيْن خيراً بفضل تواصلهما ، فجزاك الله على أفضلَ الجزاء ؛ فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنّ ناظرَك ، ولأعلينّ كعبكَ ، ولأُتبعنّ الرجالَ غبارَ قدميك . قال : فقلت : يَهزأ بى وحقّ الكعبة !

فلما وصلت إلى عبد الملك ، أدنانى حتى أدنانى عن مجلسى الأول ؛ ثم قال : يا بن طالحة ، لعلّ أحدا شاركك فى نصيحتك هذه ! قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما أعلم أحداً أنصحَ عندى يدا ولا أعظمَ معروفاً من الحجّاج . ولو كنت مُحابيا أحدا لغرضِ دنيا لحابيته . ولكنى آثرتُ الله ورسوله ، وآثرتُك والمؤمنين عليه . قال : قد علمتُ أنك لم تُرِد الدنيا ، ولو أردتَها لكانت لك فى الحجّاج ، ولكن أردتَ الله والدار الآخرة. وقد عزلتُه عن الحرمين لِما كرِهْتَ من ولايته عليهما ، وأعلمتُه أنك استنزلتنى له عنهما آستقلالا لهما ؛ ووليتُه العراقين وما هنالك من الأمور التى لا يَدْحضُها إلا مثلُه ، وأعلمته أنك آستدعيتنى إلى ولايته عليهما استزادةً له ، لأُلزِمه بذلك من حقّك ما يؤدِّى إليك عنى أجرَ نصيحتِك . فاخرج معه فإنك غير ذامٍ لصحبته فخرجت مع الحجاج وأكرمنى أضعاف إكرامه .

وفود رسول المهلب

على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائنى قال : لما هَزم المُهَلبُ بن أبى صُفرة قطَرِىَّ بن الفجاءةِ صاحبَ الأزارقة ، بعث إلى مالك بن بشير فقال له : إنى مُوفِدُك إلى الحجاج فسِرْ ، فإنما هو رجل مِثلك . وبعث إليه بجائزة ، فردها وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق . وتوَجّه . فلما دخل على الحجّاج ، قال له : ما آسمك ؟ قال : مالك بن بشير . قال : مُلْكٌ وبشارة . كيف تركتَ المهلّب ؟ قال : أدركَ ما أمّل وأمِن مَن خاف . قال : كيف هو بجُنده ؟ قال : والدٌ رءوف : قال : فكيف جُنْدُه له ؟ قال : أولادُ بَرَرة . قال : كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعَهم بالفضل وأقنعهم بالعدل . قال : فكيف تصنعون إذا لقيتُم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم ، ويلقونا بجدّهم فيطمعون فينا . قال : كذلك الجدُّ إذا لقى الجد . قال:

فما حال قطرىّ ؟ قال : كادَنا ببعض ما كدناه . قال : فما منَعكم من اتّباعه ؟ قال : رأينا المُقامَ من ورَائه خيراً من اتّباعه . قال : فأخبرنى عن ولد المهلب . قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السّرح بالنهار . قال : أيُّهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم . قال : لتقُولن . قال : هم كحلقةٍ مضروبة لا يُعرَف طرفاها . قال : أقسمتُ عليك هل رَوّأتَ فى هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع اللهُ على غيبه أحداً . فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع .

وفود جرير

على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفى الحجّاج بن يوسف بشعره الذى يقول فيه :

مَنْ سَدّ مُطَّلَعَ النِّفاق عليكُمُ * أمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الحَجّاجِ

وبشعره الذى يقول فيه :

أمْ مَنْ يَغَارُ على النِّساء حفِيظَةً * إذ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأزْواجِ

وقوله :

دعا الحَجّاجُ مِثْلَ دُعاء نُوحٍ * فأسْمَع ذا المَعارِجِ فاستجابَا

قال له الحجاج : إن الطاقة تعجِز عن المكافأة ، ولكنى مُوفِدُك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسِرْ إليه بكتابى هذا فسار إليه ؛ ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن له ، فقال :

* أتَصْحُو أمْ فُؤادُكَ غيْرُ صَاحِى *

قال له عبد الملك : بل فؤادك . فلما انتهى إلى قوله :

تعزّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثمّ قالت : * رأيتَ الوارِدِينَ ذَوِى امتِياحِ
ثِقى باللهِ ليْسَ لهُ شَريكٌ * ومِنْ عِنْدِ الخَلِيفَةِ بالنّجاحِ
سأشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ إلىّ رِيشى * وأنْبَتَّ القوادِمَ فى جَناحِى
ألسْتُمْ خيْرَ مَنْ ركِبَ المَطَايَا * وأنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ

ارتاح عبد الملك ، وكان متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : من مدحَنا منكم فليمدحْنا بمثل هذا أو ليسكتْ ! ثم قال له : ياجرير، أترى أم حزرة تُرويها مائةُ ناقة من نعَم كلب؟ قال : إذا لم تُرْوِها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله . فأمر له بمائة ناقه من نعم كلب . كلها سود الحدقة . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها أبّاق ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته ، فلو أمرتَ بالرِّعاء . فأمر له بثمانية من الرعاء ، وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فِضة يقرعها بقَضيب فى يده ، فقال له جرير : والمِحْلَبُ يا أمير المؤمنين ، وأشار إلى صَحفة منها ؛ فنبذها إليه بالقضيب ، قال : خُذها لا نفعتْكَ ! ففى ذلك يقول جرير .

أعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحدُوها ثمانيةٌ ٭ ما فى عَطائِهمُ مَنٌّ ولا سَرفُ

وفود جرير عن أهل الحجاز

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

قدم جرير بن الخطفى على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، عن أهل الحجاز ، فاستأذنه فى الشعر ، فقال : مالى وللشعر يا جرير؟ إنى لفى شغل عنه ! قال يا أمير المؤمنين ، إنها رسالة عن أهل الحجاز . قال : فهاتها إذاً . فقال :

كم من ضرير أميرَ المؤمنينَ لدَى ٭ أهلِ الحجازِ دهاهُ البؤسُ والضررُ
أصابتِ السَّنَةُ الشَّهباءُ ماملَكتْ ٭ يمينُـه فَحَنَاه الجهــدُ والـكِبَرُ
ومن قَطيعِ الحَشا عاشتْ مُخَبَّـأَةً ٭ ماكانت الشمسُ تلقاها ولا القمرُ
لما اجتلتْها صُروفُ الدهرِ كارِهةً ٭ قامت تُنادى بأعْلَى الصوتِ : ياعمرُ !

وفود دكين الراجز

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

قال دُكَين بن رجاء الفُقيمى الراجز : مدحتُ عمرَ بن عبد العزيز وهو والى المدينة ، فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صعابا ، فكرهت أن أرمى بها الفجاج فتنتشر علىّ ، ولم تَطِبْ نفسى ببيعها ، فقدمتْ علينا رُفقةٌ من مصر ، فسألتُهم

الصُّحبة ، فقالوا : إن خرجت الليلة . فقلت : إنى لم أودِّع الأمير ولا بدّ من وَداعِه . قالوا : فإن الأمير لا يُحجَبُ عن طارق ليل . فاستأذنت عليه ، فأذن لى وعنده شيخان لا أعرفهما . فقال لى : يادُكين ، إن لى نفساً توّاقة ، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّكَ . قلت له : أشهِد لى بذلك أيها الأمير . قال : إنى أشهد الله . قلت : ومن خَلْقِه ! قال : هذين الشيخين . قلت لأحدهما : من أنت يرحمك الله أعرِفْك ؟ قال : سالم بن عبد الله . فقلت : لقد استسمنتُ الشاهد . وقلت للآخر : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو يحيي مولى الأمير . وكان مُزاحم يُكنى أبا يحيي . قال دُكين : فخرجت بهن إلى بلدى ، فرمى الله فى أذنابهن بالبركة ، حتى اتخذتُ منهن الضياع والرِّباع والغلمان . فإنى لبصحراء فَلْج ، إذا بَريد يركُض إلى الشام ، فقلت له : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَر ؟ قال : مات سليمان بن عبد الملك . قلت : فمن القائم بعده ؟ قال : عمر بن عبد العزيز . قال : فأنخت قَلوصى فألقيتُ عليها أداتى وتوجهت عنده ؛ فلقيت جريراً فى الطريق جائياً من عنده ، فقلت : من أين أبا حَزْرة ؟ قال : من عند أميرٍ يعطى الفقراء ويمنع الشعراء قلت : فما ترى فإنى خرجت إليه ؟ قال : عَوِّل عليه فى مال ابن السبيل كما فعلت . فانطلقتُ فوجدتُه قاعداً على كرسىّ فى عَرْصة داره ، قد أحاط الناس به . فلم أجد إليه سبيلا الوصول ، فناديتُ بأعلى صوتى :

يا عمَرَ الخيراتِ والمكارمْ ☼ وعمَرَ الدَّسائعِ العظائمْ
إنى امْرُؤ من قَطَنِ بنِ دارِم ☼ أطلبُ حاجى من أخى مَكارم
إذ نَنتَجِى والليلُ غيرُ نائم ☼ فى ظلمة الليل وليلى عاتم
☼ عند أبى يحيي وعند سالمِ ☼

فقام أبو يحيي ففرَّج لى ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا البدوىّ عندى شهادة عليك . قال : أعرفها ، آدْنُ منى يادكين ، أنا كما ذكرتُ لك أن لى نفساً توّاقة ، وأن نفسى تاقت إلى أشرف منازل الدنيا ، فلما أدركتُها وجدتُها تتوق إلى الآخرة ؛ والله ما رزأتُ من أمور الناس شيئاً فأُعطيك منه ، وما عِندى

إلا ألفا درهم ، أعطيك أحدَهما . فأمر لى بألف درهم . فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظمَ بركةً منها .

وفود كثير والأحوص ونصيب

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

حماد الراوية قال : قال لى كُثير عَزّة : ألا أخبرك عما دعانى إلى ترك الشعر ؟ قلت : نعم . قال : شخصتُ أنا والأحوص ونُصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكل واحد منا يُدلّ عليه بسابقةٍ وإخاء قديم ، ونحن لا نشك أنْ سيشركنا فى خلافته ، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُناصرة ، لَقِيَنا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلّمنا فردّ ، ثم قال : أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما تَوَضّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك . ووَجَمْنا وَجْمة عُرف ذلك فينا . فقال : إن يك ذو دِين بنى مروان قد وَلِىَ وخَشِيتم حرمانَه ، فإن ذا دُنيانا قد بقى ، ولكم عندى ما تُحبون ، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلُه .

فلما قدم كانت رحالُنا عنده بأكرمِ منزول عليه ؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيرُه ، فلا يؤذَن لنا ؛ إلى أن قلت فى جمعة من تلك الجمع لو أنى دنوت من عمر فسمعتُ كلامه فحفظتُه ، كان ذلك رأياً . ففعلت ، فكان مما حفظتُ من كلامه : « لكل سفر زاد لامحالة ، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه أو عقابه ، فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولَنَّ عليكم الأمد فتقسوَ قلوبكم وتنقادوا لعدوِّكم » فى كلام كثير لا أحفظه ، ثم قال : « أعوذ بالله أن آمركم بما أنْهَى عنه نفسى ، فتخسر صفْقَتى ، وتظهر عَيْلَتى ، وتبدو مَسكنَتى ، فى يومِ لا ينفع فيه إلا الحق والصدق » ! ثم بكى حتى ظننتُ أنه قاضٍ نحبَه ، وارتجّ المسجدُ وماحوله بالبكاء ، وانصرفتُ إلى صاحبىّ فقلت لهما : خُذا فى شَرْجٍ من الشِّعر غير ما كُنا نقول لعُمَرَ وآبائه ؛ فإن الرجل آخرىٌّ وليس بدنيوى .

إلى أن استأذن لنا مسلمة فى يوم جُمعة بعد ما أُذِن للعامة . فلما دخلتُ سلَّمت ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، طال الثَّواء وقلّت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفودُ العرب . قال : يا كُثَيِّر ، (إنمـا الصَّدقاتُ للفُقَرَاء والمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفى الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفى سَبِيل الله وابنِ السَّبِيلِ) أفى وَاحدٍ من هؤلاء أنت ؟ قلت : بلى ، ابن سبيلٍ منقطَع به ، وأنا صاحبك . قال : ألستَ صاحبَ أبى سعيد؟ قلت : بلى ، قال : ما أرى ضيفَ أبى سعيد منقطَعا به . قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى الإنشاد ؟ قال : نعم ، ولا تقل إلا حقا . فقلت :

وليتَ فلم تَشتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ ٭ بَرِيًّا ولم تَقبَل إشــارةَ مُجْرِمِ
وصَدَّقتَ بالفعلِ المَقال مع الذى ٭ أتيتَ فأَمسى راضياً كلُّ مُسْلِمِ
ألا إنمـا يَكفِى الفتى بعـدَ زَيغِه ٭ منَ الأَوَدِ البـاقى ثِقافُ المُقَوِّمِ
وقد لَبِسَتْ لُبْسَ الهَلوك[1] ثيابَها ٭ تَراءى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعصَمِ
وتُومِضُ أحيـاناً بعينٍ مريضةٍ ٭ وتَبسِمُ عن مثلِ الجُمَانِ المنظَّمِ
فأعرَضْتَ عنهـا مُشْمَئِزًّا كأنمـا ٭ سَقتْك مَدُوفاً من سِمَامٍ وعَلْقَمِ
وقد كُنتَ من أجبالهَا فى مُمَنَّعٍ ٭ ومن بَحرِها فى مُزْبِدِ الموج مُفْعَمِ
ومازِلْتَ تَوَاقاً إلى كلِّ غاية ٭ بَلَغْتَ بهـا أعْلى البنـاءِ المُقوِّمِ
فلما أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكن ٭ لطالبِ دُنيا بَعدَهُ من تكلُّمِ
تَركْتَ الذى يَفنى وإن كان مُونِقا ٭ وآثرْتَ مايَبقى برأى مُصمِّمِ
وأضررْتَ بالفانى وشمَّرْتَ للذى ٭ أمامَك فى يومٍ من الشرِّ مُظلِمِ
ومالك إذ كنتَ الخليفةَ مانعٌ ٭ سوى اللهِ من مالٍ رَغيبٍ ولا دمِ
سَمـا لك هَمٌّ فى الفؤادِ مُؤرِّقٌ ٭ بَلَغْتَ به أعلى المعـالى بسُلَّمِ
فما بين شرقِ الأرضِ والغربِ كلِّها ٭ مُنادٍ يُنادى من فصيحٍ وأعجَمِ

(١) الهلوك : البغى.

يقول أميرَ المؤمنينَ ظلَمْتَنِى * بأخذِ لدينارٍ ولا أخذِ درهمِ
ولا بَسْطَ كَفٍّ لامْرِئٍ غيرِ مُجرِمٍ * ولا السَّفْكِ منه ظالِمًا ملء مِحْجَمِ
ولو يَستطيعُ المسلمونَ لقسَّموا * لك الشَّطرَ من أعمارِهِمْ غيرَ نُدَّمِ
فأربِحْ بها مِن صَفْقةٍ لِمُبايعٍ * وأعْظِمْ بها أعظِمْ بها ثم أعظِمِ

قال : فأقبل علىّ وقال : إنك مسئول عما قلت . ثم تقدم الأحوص فاستأذنه فى الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقًّا . فقال :

وما الشِّعرُ إلا حكمةٌ من مُؤلِّفٍ * بمنطِقِ حَقٍّ أو بمنطِقِ باطلِ
فلا تقبلَنْ إلا الذى وافقَ الرِّضا * ولا ترْجعنَّا كالنِّساءِ الأراملِ
رأيناكَ لم تَعدِلْ عن الحقِّ يَمْنَةً * ولا شأمَةً فعلَ الظَّلومِ المخاتِلِ
ولكن أَخَذْتَ الحقَّ جُهْدَكَ كلَّه * تَقُدُّ مثال الصالحين الأوائلِ
فقلْنا ولم نُكْذَبْ بما قد بدا لنا * ومَن ذا يَرُدُّ الحقَّ مِن قول قائلِ
ومَن ذا يَرُدُّ السَّهمَ بعدَ مَضائِه * على فُوقِه إذ عارَ مِن نَزْعِ نابلِ
ولولا الذى قد عَوَّدَتْنا خلائِفٌ * غَطارِيفُ كانوا كاللُّيُوثِ البواسلِ
لمَا وخَدَتْ شهرًا برَحْلى شِمِلَّةٌ * تَقُدُّ متانَ البِيدِ بين الرَّواحِلِ
ولكن رَجَوْنا منك مثل الذى به * حُبِينا زَمانًا من ذَوِيك الأوائلِ
فإن لم يكن للشِّعر عندَك موْضعٌ * وإن كان مثل الدُّرِّ فى نَظْمِ قائلِ
وكانَ مُصيبًا صادقًا لا يعيبُه * سوى أنه يُبْنَى بِناءَ المنازلِ
فإنَّ لنا قُرْبى ومَحْضَ مَودَّة * وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمَناصِلِ
فذادُوا عدوَّ السلْمِ عنْ عُقْرِ دارِهمْ * وأرْسَوْا عمودَ الدينِ بعدَ التَّمايُلِ
وقبلَكَ ما أعطَى الهنيدة جِلَّةً * على الشعرِ كَعْبًا مِن سَدِيسٍ وبازِلِ
رسولُ الإلهِ المُستضاءُ بنورِهِ * عليه سَلامٌ بالضُّحى والأصائلِ

فقال : إنك مسئول عما قلت . ثم تقدم نصيب فاستأذنه فى الإنشاد ؛ فلم

يأذن له ، وأمره بالغزو إلى دابق . فخرج إليها وهو محرِم . وأمر لى بثلثمائة ، وللأحوص بمثلها ، ولنُصيب بمائة وخمسين .

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز

رضى الله عنه

ابن الكَلْبى : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ؛ فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول ، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود(١) على عمر بن عبد العزيز ، وعليه عمامة قد أرخى طرفها ، وكانت له منه مكانة ، فقال جرير :

يأيها الرَّجُلُ المُرْخى عمامته(٢) ⁕ هذا زمانُكَ إنى قد مَضى زَمَنِى
أبْلِغ خَليفتَنا إن كنتَ لاقِيَهُ ⁕ أنى لدى الباب كالمصفودِ فى قَرَنِ
وحْش المَكانةِ من أهلى ومن ولَدى ⁕ نائى المَحلَّةِ عن دارى وعن وطنى

قال : نعم أبا حَزْرة ونُعْمَى عين . فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء ببابك ؛ وأقوالهم باقية ؛ وسنانهم مسنونة . قال : يا عون ، مالى وللشعراء ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن النبى صلى الله عليه قد مُدِح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مُسلم . قال : ومن مدَحه ؟ قال : عباس بن مرداس ؛ فكساه حُلّةً قَطَع بها لسانه . قال : وتَرْوِى قوله ؟ قلتُ : نعم :

رأيتُك يا خيرَ البَرِيّةِ كلِّها ⁕ نَشَرْتَ كتاباً جاء بالحقِّ مُعْلِما
ونَوَّرْت بالبرهانِ أمراً مُدَمَّساً ⁕ وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضَرَّما
فمَنْ مُبْلِغٌ عنى النبيَّ محمداً ⁕ كلُّ امرئٍ يُجزى بما قد تَكلما
تعالَى عُلُوًّا فوقَ عَرشٍ إلهُنا ⁕ وكان مكانُ اللهِ أعْلى وأعْظَما

قال : صدقت ؛ فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة . قال :

(١) فى بعض الأصول : « عدى بن أرطاة » .
(٢) فى بعض الأصول : « المزجى مطيته » .

لا قرّب الله قرابته ، ولا حيّا وجهه ! أليس هو القائل ؟

ألا ليت أنّى يومَ حانتْ منيّتِى ٭ شَمِمْتُ الذى ما بين عينيكِ والفَمِ
وليت طَهورى كان رِيقَكِ كلّه ٭ وليت حَنوطى من مُشَاشِكِ والدمِ
ويا ليت سَلْمى فى القبورِ ضَجيعتى ٭ هنـــالِكَ أو فى جنةٍ أو جهنمِ

فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ، ويعمل عمـلا صالحا . والله لا دخل علىّ أبداً . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : جميـل بن معمر العذرى . قال : هو الذى يقول :

ألا لَيْتنا نَحْيـــا جميعاً وإنْ نَمُتْ ٭ يُوافِى لدَى المَوْتَى ضريحِى ضريحُها
فمـا أنا فى طولِ الحيـــاةِ براغِبٍ ٭ إذا قيـل قد سُوِّى عليها صفيحُها
أظَلُّ نَهـارِى لا أراها ويَلْتَقِى ٭ مع الليلِ رُوحى فى المنامِ ورُوحُها

أعزُبْ به ؛ فوالله لا دَخَل علىّ أبدا . فَمَنْ غيْر مَنْ ذكرْت ؟ قلت : كُثيِّر عزة . قال : هو الذى يقول :

رُهبانُ مَدْيَنَ والذين عَهِـدْتُهُمْ ٭ يبـكون من حذَرِ العذابِ قُعودَا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثهـا ٭ خَرُّوا لِعَـزَّةَ راكعين سُجُودَا

أعزُبْ به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : الأحوص الأنصارى . قال : أبْعَده الله وسحقَه ، أليس هو القائل وقد أفسد على رجلٍ من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه :

اللهُ بينى وبين سيدِها ٭ يَفِرُّ عنى بها وأتَّبِعُ

أعزب به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :

هُما دَلّتـانى من ثمـانين قامةً ٭ كما انْقضَّ بازٍ أقْتمُ الرِّيشِ كاسِرُهْ
فلما استوتْ رِجلاىَ فى الأرضِ قالتا ٭ أحَىٌّ يُرَجَّى أم قتيـلٌ نُحَاذِرُهْ
وأصبحْتُ فى القومِ الجلوسِ وأصبحتْ ٭ مُغَلَّقةً دونى عليهـا دَسَاكِرُهْ

فقلتُ ارْفعوا الأسبابَ لا يشعُروا بنا * ووَلَّيْتُ فى أعقابِ ليـــلٍ أُبادِرُهْ

اعزب به . فوالله لا دَخَلَ علىّ أبدا ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : الأخطل التغلبى . قال : أليس هو القائل :

فلستُ بصائمٍ رمضانَ عُمرى * ولستُ بآكِلٍ لحمَ الأضاحى
ولست بزاجرٍ عَنْساً بُكوراً * إلى بَطْحـــاءِ مكة للنَّجاحِ
ولستُ بقائمٍ كالعَــيْرِ يدعو * قُبَيْلَ الصبحِ حىّ على الفلاحِ
ولكنى سأشربُها شَمولًا * وأسجدُ عنـــد مُنبلَجِ الصباحِ

اعزب به . فوالله لا وَطِئ لى بِساطا أبداً وهو كافر ؛ فمن بالبـاب غير من ذكرت ؟ قلت : جرير بن الخَطَفى . قال : أليس هو القائل :

لولا مُراقبةُ العيونِ أرَيْنَنا * مُقَـــلَ المَهَا وسَوالفَ الآرامِ
هل يَنْهَيَنَّكَ أنْ قَتَلْنَ مُرَقِّشاً * أوْ ما فَعَلْنَ بِعُرْوَةَ بنِ حزامِ
ذُمَّ المَنازِلَ بَعـــدَ منزلةِ اللِّوَى * والعيشَ بَعدَ أولئكَ الأقوامِ
طرَقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا * حينَ الزِّيارةِ فارجِعِى بسَلامِ

فإن كان ولا بد فهذا . فأذن له ؛ فخرجتُ إليـه فقلت : ادخل أبا حَزرة . فدخل وهو يقول :

إن الذى بعث النبىّ محمـــداً * جعل الخِلافة فى إمامٍ عادِلِ
وَسِع الخـلائقَ عَدْلُهُ ووفاؤهُ * حتى ارْعَوى وأقام ميلَ المـائلِ
واللهُ أنزل فى القرانِ فريضة * لابنِ السبيلِ وللفقيرِ العـائلِ
إنى لأرجو منكَ خيراً عاجلا * والنَّفْسُ مولعَةٌ بحبِّ العاجلِ

فلما مثل بين يديه قال : اتق الله ياجرير ولا تقل إلا حقا . فأنشأ يقول :

كم باليمـامةِ من شَعثاءَ أرْمَلةٍ * ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
ممن يَعُـدُّكَ تـكفى فَقْـدَ والِدِه * كالفَرْخِ فى العشِّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ
يدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ به * خَبْلًا من الجِنِّ أو مَسًّا من النَّشَرِ

خليفَةَ اللهِ ماذا تأمُرَنَّ بِنَا ٭ لَسْنا إليكُمْ ولا فى دارِ مُنْتظَرِ
ما زِلْتُ بعْدَكَ فى همٍّ يُؤرِّقُنى ٭ قد طالَ فى الحىِّ إصعادِى ومُنْحدَرِى
لا ينْفَعُ الحاضِرُ المجْهُودُ بادِيَنا ٭ ولا يعُودُ لنا بادٍ على حضَرِ
إنّا لنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخلَفنا ٭ مِنَ الخليفَةِ ما نَرْجو مِنَ المطَرِ
نال[1] الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ٭ كما أتى ربَّهُ موسى على قدَرِ
هٰذِى الأرامِلُ قد قضَّيْتَ حاجَتَها ٭ فمَن لِحاجَةِ هذا الأرْمَلِ الذَّكَرِ

فقال : يا جرير ، والله لقد وَلِيت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنها لأحبّ مال إلىّ كسبته . ثم خرج ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال ما يسوءكم ! خرجتُ من عند أمير يعطِى الفقراء ويَمْنَعُ الشعراء ، وإنى عنه لراض . ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تَسْتَفِزُّهُ ٭ وقد كان شيْطانِى من الجنِّ راقيا

وفود نابغة بنى جعدة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضى الحرمين ، قال : أقحمت السَّنةُ نابغة بنى جعدة ، فوفد إلى ابن الزّبير ، فدخل عليه فى المسجد الحرام ، ثم أنشده :

حكَيْتَ لنا الصِّدِّيقَ لمّا وليتَنا ٭ وعُثْمان والفاروقَ فارْتاحَ مُعْدِمُ
وسوَّيْتَ بين الناسِ فى الحقِّ فاستَوَوْا ٭ فعاد صباحاً حالِكُ اللَّوْنِ مُظْلِمُ
أتاكَ أبو ليْلَى يجُوبُ به الدُّجى ٭ دُجَى الليلِ جوّابُ الفلاةِ عَشَمْشَمُ[2]
لتَجْبُرَ مِنْهُ جانِباً زعْزَعَتْ به ٭ صُرُوفُ الليالى والزّمانُ المُصَمِّمُ

(١) فى بعض الأصول : « أتى الخلافة لو . . . »
(٢) العشمشم : الجمل الشديد .

فقال له ابن الزبير : هوِّن عليك أبا ليلى ، فالشعر أدنى وسائلك عندنا ؛ أما صفوة أموالنا فلآل الزبير ، وأما عفوته فإن بنى أسد وتيمًا تشغلها عنك ، ولكنْ لك فى مال الله سهمان : سهم برُؤيتك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وسهم بشركتك المسلمين فى فيئهم . ثم أخذ بيده ودخل به دار النَّعم ، فأعطاه قلائص سبعاً ، وجملا رحيلا ، وأوقر له الركاب بُرًّا وتمراً وثيابا . فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحَبّ صِرْفا . فقال ابن الزبير : ويح أبى ليلى ! لقد بلغ به الجَهد . قال النابغة : أشهدُ لَسَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما وُلِّيتْ قريش فعدلتْ ، واستُرحمت فرحمت ، وحدثت فصدقت ، ووعدت خيراً فأنجزت ، فأنا والنبيون فُرّاطُ القاصفين .

قال الزبير بن بكار : الفارط : الذى يتقدم إلى الماء يصلح الرِّشاء والدِّلاء والقاصف : الذى يتقدم لشراء الطعام .

وفود أهل الكوفة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

قال : لما قتَل مصعبُ بن الزبير المختارَ بن أبى عُبيد ، خرج حاجا فقدم على أخيه عبد الله بن الزُّبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق ، فقال له : يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق ، لم أدع لهم بها نظيراً ، لتُعطيهم من هذا المال . قال: جئتَنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله . والله لا فعلت . فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم ، قال لهم : يأهل الكوفة ، ودِدْت والله أن لى بكم من أهل الشام صرْفَ الدينار والدرهم ، بل لكل عشرة رجلا . قال عُبيد الله بن ظبيان : أتدرى يا أمير المؤمنين ما مَثَلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذلك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقتْ رجُلاً * غيرى وعُلِّقَ أُخرى غيرَها الرَّجلُ

أحببناك نحن ، وأحببتَ أنت أهلَ الشام ، وأحبَّ أهلُ الشام عبدَ الملك .

ثم انصرف القومُ من عنده خائبين . فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمُصعب بن الزبير .

وفود رؤبة على أبى مسلم

الأصمعى قال [١] : حدّثنا رؤبة قال : قدمت على أبى مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته ، فنادانى : يارؤبة ، فنوديتُ له من كل مكان : يارؤبة ! فأجبْتُ :

لبَّيْكَ إذْ دعوْتنى لبَّيْكا ۞ أحْمَدُ ربًّا ساقَنى إليْكا
الحمْدُ والنِّعْمَةُ فى يدَيْكا

قال : بل فى يدَى اللهِ عز وجل . قلت : وأنت لما أنعمتَ حُمِدت . ثم استأذنت فى الإنشاد فأذن لى ، فأنشدته :

ما زال يأتِى المُلْكَ من أقطارِهِ ۞ وعنْ يَمينهِ وعنْ يساره
مُشَمِّراً لا يصْطلى بنارِهِ ۞ حتى أقرَّ المُلْكَ فى قرارِهِ

فقال : إنك أتيتنا وقد شفّ المال وآستنفضه الإنفاق ، وقد أمرْنا لك بجائزة وهى تافهة يسيرة ، ومنك العَوْد وعلينا المعوّل ، والدهر أطرقُ مُستتبّ ، فلا تُلق بجنبيك الأسدّة .

قال : فقلت : الذى أفادنى الأمير من كلامه أحبُّ إلىّ من الذى أفادنى من ماله .

وفود العتابى على المأمون

الشّيبانى قال : كان كُلثوم العتابى أيام هارون الرشيد فى ناحية المأمون ، فلما خرج إلى خراسان شيّعه إلى قُومِس حتى وقف على سِنداد كسرى ، فلما حاول وداعه قال له المأمون : لا تَدَع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شىء . فلما أفضتْ الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتّابى زائراً ، فحُجِب عنه ، فتعرّض

(١) انظر ص ٢٤٦ من هذا الجزء . وفى بعض الخبر اختلاف .

ليحيى بن أكثم فقال : أيها القاضى ، إن رأيت أن تذكّر بى أمير المؤمنين . فقال له يحيى : ما أنا بالحاجب . قال له : قد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان . فدخل على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين ، أجِرْنى من العتابى ولسانه فلم يأذن له وشُغِل عنه ، فلما رأى العتابى جفاءه قد تمادى . كتب إليه :

ماعلَى ذا كُنا افترقنا بِسِنْدا ۞ دَ ولا هكذا رأينا الإخاء
لم أكن أحسبُ الخِلافةَ يَزْدا ۞ دُ بها ذو الصفاء إلا صَفاء
تَضرِبُ الناسَ بالمُثقَّفةِ السُّمْ ۞ رِ على غَدْرِهِمْ وتَنْسَى الوفاء

فلما قرأ أبياته دعا به ، فلما دنا منه سلَّم بالخلافة ووقف بين يديه ، فقال : ياعتّابى، بلغتْنا وفاتُك فغمّتْنا ، ثم انتهت إلينا وفادتُك فسرَّتنا . فقال : ياأمير المؤمنين ، لو قُسم هذا البرُّ على أهل مِنًى وعرفات لوسِعَهم ؛ فإنه لا دين إلا بك ، ولا دُنيا إلا معك ! قال : سل حاجتك . قال : يدُك بالعطية أطلقُ من لسانى بالمسألة . فأحسن جائزته . وانصرف .

وفود أبى عثمان المازنى على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال : وفدت على الواثق ، فلما دخلت وسلمت قال : هل خلّيتَ وراءك أحداً يُهمك أمرُه ؟ قلت أُخَيّة لى ربّيتُها فكأنها بنتى . قال : ليت شعرى . ماقالت حين فارقتَها ؟ قال : أنشدتْنى قول الأعشى :

تقول ابنتى يومَ جَدّ الرحيلُ ۞ أرانا سَواءً ومَن قد يَتِمْ
أبانا ، فلا رِمْتَ من عندِنا ۞ فإنا نخافُ بأن تُخْتَرَمْ
أرانا إذا أضمَرَتْك البِلا ۞ دُ نُجْفَى وتُقطَعُ مِنّا الرَّحِمْ

قال : ليت شعرى ، ماقلتَ لها ؟ قال : أنشدتُها يا أمير المؤمنين قولَ جرير :

ثِقِى باللهِ ليس له شريكٌ ۞ ومن عندِ الخليفةِ بالنَّجاح

قال : أتاك النجاح . وأمر له بعشرة آلاف درهم . ثم قال : حدّثنى حديثاً ترويه عن أبى مهديّة مُستطرَفا . قلت : يا أمير المؤمنين ، حدثنى الأصمعى قال :

قال لى أبو مهدية : بلغنى أن الأعراب والأعزاب سواء فى الهجاء . قلت : نعم . قال : فاقرأ : ﴿ الأعزابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفاقا ﴾ ولا تقرأ : الأعراب ، ولا يغرَّنَّكَ العَزَب وإن صام وصلى ! فضحك الواثق حتى شغر برجله ، وقال : لقد لقى أبو مهدية من العزْبة شرا . وأمر لى بخمسمائة دينار .

الوافدات على معاوية

وفود سودة ابنة عمارة على معاوية

عامر الشعبيّ قال : وفدت سودةُ بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية ابن أبى سفيان ، فاستأذنت عليه فأذِن لها ، فلما دخلت عليه سلّمت عليه ، فقال لها : كيف أنتِ يابنةَ الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شَمِّرْ كفعْـلِ أبيك يابن عِمارةٍ ۞ يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ
وانصُر عليًّا والحسيْن ورَهطَه ۞ واقصِدْ لِهنـدٍ وابنِها بهَوَانِ
إنّ الإمامَ أخا النبيِّ محمـــدٍ ۞ عَلَمُ الهـدَى ومنارة الإيمـانِ
فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائه ۞ قدُماً بأبيَض صارم وسِنانِ

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُتِر الذنب ؛ فدَعْ عنك تَذْكارَ ماقد نُسِى . قال : هيهات ، ليس مثلُ مقامِ أخيـكِ يُنْسى . قالت : صدقتَ والله يا أمير المؤمنين ، ماكان أخى خفيَّ المَقام ، ذليلَ المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإنّ صخراً لَتأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ۞ كأنّه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

وبالله أسألُ يا أميرَ المؤمنين إعفائى مما استعفيتُه . قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتَك . قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم مقلَّد ، والله سائلُك عما افترض عليـك من حقّنا ، ولا تزال تُقْـدِم علينا مَن ينهض بعزِّك ، ويَبسط سلطانَك ، فيحصدنا حِصادَ السُّنبل ، ويدوسنا دِياس البقر ، ويسومنا الخَسيسة ، ويسألنا الجليـلة ؛ هـذا ابنُ أرطاةَ قدم بلادى ، وقتـل رجالى ،

وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ لكان فينا عِزٌّ ومَنَعة ، فإما عزلتَه فشكرناك ، وإما لا فعرّفناك !

فقال معاوية : إياى تُهدِّدين بقومك ؟ والله لقد هممتُ أن أردَّك إليه على قَتَب أشرسَ فينفذَ حُكمَه فيك . فسكتت ، ثم قالت :

صلّى الإلهُ على رُوحٍ تَضَمَّنَهُ ... قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدفونا
قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِى به ثمناً ... فصار بالحقّ والإيمانِ مقرُونا

قال : ومَن ذلك ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب رحمه الله تعالى . قال : ما أرى عليك منه أثراً ! قالت : بلى ، أتيتُه يوما فى رجُل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه مابين الغَثّ والسمين ، فوجدته قائما يصلى ، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل . فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظُلم خلقك ، ولا بتَرْك حقّك . ثم أخرج من جيبه قطعةً من جراب فكتب فيه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ، بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ إن كنتم مُؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك . والسلام ﴾ .

فعزله يا أمير المؤمنين . ما خزَمَه بخِزام ، ولا خَتَمه بخِتام .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها . فقالت : ألِى خاصّةً أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيرك ؟ قالت : هى والله إذاً الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يَسَعنى ما يَسَعُ قومى . قال : هيهات ! لَمَّظكُم ابن أبى طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئا ما تُفْطمون ، وغركم قوله :

فلو كنت بوّاباً على بابِ جَنَّةٍ ... لقُلْت لهَمْدانَ ادخُلوا بسَلامِ

وقوله :

ناديْت هَمْدانَ والأبواب مُغْلَقةٌ ... ومثْلُ هَمْدانَ سَنّى فتحةَ الباب

كالهُنْدُوانىّ لم تُفْلَلْ مضارِبُه ... وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ وجّابِ

اكتبوا لهـا بحاجتها .

وفود بكارة الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخُزاعى عن الشّعبى قال : استأذنتْ بَكّارةُ الهِلاليـةُ على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها ، وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت آمرأة قد أسَنّتْ وعَشِىَ بصَرُها وضعُفت قُوتها ، تَرْعَش بين خادمين لها ؛ فسلّمت وجلست . فردّ عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيّرَكِ الدهر ! قالت . كذلك هو ذو غِيَر ، من عاش كَبِر ومن مات قُبِر . قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونكَ فاستثر (١) مِنْ دارنا ... سيفاً حُساماً فى الـتُّرابِ دفينـا

قد كنتُ أذْخَرُهُ لِيَوْمِ كَرِيهـةٍ ... فاليومَ أبرَزَهُ الزمانُ مَصونا

قال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أتُرى ابن هنْدٍ للخلافةِ مالِكا ... هيهات ذاكَ وإنْ أرادَ بَعيدُ

مَنَّتْكَ نفسُكَ فى الخلاءِ ضلالةً ... أغْراكَ عمْرٌو للشّقا وسعيدُ

قال سعيد بن العاصى : هى والله القائلة :

قد كنتُ أطْمَعُ أنْ أموتَ ولا أرَى ... فوقَ المنـابِرِ مِنْ أُمَيَّةَ خاطِبا

فاللهُ أخّـرَ مُـدّتى فتطاولتْ ... حتى رأيتُ مِنَ الزمانِ عجائبا

فى كلِّ يومٍ للزمانِ خَطِيبُهُمْ ... بينَ الجميعِ لآلِ أحمـدَ عائبا

ثم سكتوا . فقالت : يا معاوية ، كلامك أعشى بصرى وقصّر حُجّتى ، أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خَفِىَ عليك منى أكثر . فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برِّك . اذكرى حاجتك قالت : أمّا الآن فلا .

(١) فى بعض الأصول : « فاحتفر » .

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغسانى عن الشعبي قال : حدثنى جماعة من بنى أمية ممن كان يسمر مع معاوية قالوا : بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد ، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدى بن غالب بن قيس الهمدانية ، وكانت شهدت مع قومها صفين ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : فأشيروا علىّ فى أمرها . فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها . قال : بئس الرأىُ أشرتُم به علىّ : أيحسُنُ بمثلى أن يُتحدَّثَ عنه أنه قتل امرأةً بعد ما ظَفِر بها .

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها وعِدّةٍ من فرسان قومها ، وأن يُمهّد لها وِطاءً لينا ، ويسترَها بستر خَصيف ، ويُوسّع لها فى النفقة ؛ فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيارَ إلىّ فإنى لا آتيه ، وإن كان حَتَم فالطاعة أولى . فحملها وأحسنَ جهازَها على ما أمر به .

فلما دخلت على معاوية قال : مرحباً وأهلا ، قدمتِ خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَه وافد ! كيف حالك ؟

قالت بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .

قال : كيف كنتِ فى مَسيرك ؟ قالت : ربيبةَ بيت أو طفلًا مُمهداً .

قال : بذلك أمرناهم ؛ أتدرين فيم بعثتُ إليك ؟ قالت : أنى لى بعلم مالم أعلم .
قال : ألستِ الراكبةَ الجملَ الأحمر ، والواقفة بين الصفّين يوم صفّين تحضّين على القتال وتُحمّين الحرب ؟ فما حَمَلَكِ على ذلك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُتِر الذنب ، ولم يَعُدْ ماذَهَب ، والدهر ذو غِيَر ، ومن تفكّر أبصر ، والأمر يَحْدُث بعده الأمر .

قال لها معاوية : صدقت ، أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أُنْسِيتُه .

قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين : أيها الناس ، ارْعَوُوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جلابيبَ الظُّلَم ، وجارتْ بكم عن قصد المَحَجَّة ، فيالها فتنةً عمياء ، صماء بكماء ، لا تَسمع لناعقِها ، ولا تنساق لقائدِها ، إن المصباح لا يُضيء فى الشمس ، ولا تُنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد ، ألَا مَن استرشدَنا أرشدناه ، ومن سألَنا أخبرْناه . أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص ، فكأنْ قد اندملَ شَعْبُ الشتات ، والتأمت كلمةُ العدل ، ودمَغ الحقُّ باطله ؛ فلا يجهلنَّ أحدٌ فيقول : كيف العدل وأنى ؟ ليقْضِ الله أمراً كان مفعولا . ألَا وإنّ خضابَ النساءِ الحِنّاء ، وخضابَ الرجالِ الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده :

« والصبرُ خيرٌ فى الأمورِ عواقباً »

إيهاً فى الحرب قُدُماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شَركْت عليّا فى كل دمٍ سَفكَهُ .

قالت : أحسنَ اللهُ بشارتَك ، وأدام سلامتَك ؛ فمثلُك بَشَّر بخيرٍ وسَرَّ جليسَه .

قال أو يَسُرُّك ذلك ؟ قالت : نعم والله ، لقد سُررت بالخبر فأنَّى لى بتصديق الفعل .

فضحك معاوية وقال : والله لوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ من حُبكم له فى حياته . اذكرى حاجتك .

قالت يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسى ألّا أسألَ أميرا أعَنْتُ عليه أبدا ، ومثلُكَ أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طِلْبة .

قال : صدقت ! وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وفود أم سنان بنت خيثمة

على معاوية رحمه الله

سعيد بن حُذافة قال : حبَس مروانُ بن الحكم وهو والى المدينة غلاما من بنى ليث فى جِناية جناها ، فأتته جدةُ الغلام أمُّ أبيه ، وهى أم سنان بنت خَيثمة ابن خرشة المذحِجية ، فكلّمته فى الغلام فأغلظ لها مروان . فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرْحبا يا بنة خيثمة ، ما أقْدَمك أرضنا وقد عهدتُك تشتمينا وتَحُضِّين علينا عدوّنا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة وأعلاما ظاهرة وأحلاما وافرة ، لا يجْهلون بعد علم ، ولا يسفَهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ماسنّ آباؤه لأنت . قال : صدقت ! نحن كذلك ، فكيف قولك :

عزبَ الرُّقادُ فَمُقْلتى لا تَرْقُدُ * والليْلُ يصْدِرُ بالهُمومِ ويُورِدُ
يا آلَ مَذْحِجَ لامُقَامَ فشَمِّرُوا * إنّ العدُوَّ لآلِ أحْمدَ يقْصِد
هـذا عَلِى كالهِلالِ تَحُفُّـهُ * وسطَ السّماءِمِنَ الكواكِبِ أسْعُدُ
خيْرُ الخلائقِ وابنُ عمِّ مُحَمّدٍ * إنْ يَهدِكم بِالنُّورِ منهُ تَهتَدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِدَ الحُرُوبَ مُظَفَّرًا * والنَّصْرُ فوْق لِوائِه ما يفْقَدُ

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلَفا بعده فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين وهى القائلة :

إمّا هَلكْت أبَا الحُسَيْنِ فلم تَزلْ * بالحقّ تُعْرَفُ هادِياً مهْدِيا
فاذْهبْ عليْك صلاةُ ربِّك مادعتْ * فوقَ الغُصُونِ حمامةٌ قُمْرِيّا
قدكُنْتَ بعْدَ مُحَمّدٍ خلفاً كَمَا * أوْصَى إليكَ بِنَا فكنْتَ وفِيّا
فاليومَ لا خَلفٌ يُؤَمّلُ بعْدَهُ * هيْهات نأْمُلُ بعـدَهُ إنْسِيّا

قالت : يا أمير المؤمنين ، لسان نطق ، وقول صدَق ؛ ولئن تحقق فيك ماظننّا لحظك الأوفر . والله ما ورثك الشّنآن فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء . فأدْحِضْ

مقالتَهُم ، وأبعِد منزلتهم ، فإنك إن فعلتَ ذلك تزددْ من الله قُربا ، ومن المؤمنين حُبا . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت سبحان الله ! والله ما مِثلُك مُدِح بباطل ، ولا اعتُذِر إليه بكذب ؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضميرِ قلوبنا . كان والله علىٌّ أحبَّ إلينا منك ، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبمَ استحققْتُ ذلك عندك ؟ قالت : بسعَةِ حلمك وكريم عفوك . قال : فإنهما يطمعان فى ذلك . قالت : هما والله من الرأى على ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله . قال : والله لقد قاربْتِ ، فما حاجتك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، إن مروان تَبَنَّكَ بالمدينة تبنكَ مَن لا يريد منها البَراح ؛ لا يحكم بعدل ، ولا يقضى بسُنّة ، يتتبع عثَراتِ المسلمين ، ويكشف عوراتِ المؤمنين ، حبس ابنَ ابنى ، فأتيته ، فقال كيت وكيت فألقَمْتُهُ أخشَنَ من الحجر ، وألعقتُه أمرَّ من الصَّاب ثم رجعتُ إلى نفسى باللائمة ، وقلت : لِمَ لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ؟ فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين ، لتكون فى أمرى ناظراً ، وعليه مُعْدِياً .

قال : صدقت ! لا أسألكِ عن ذنبه والقيام بحجته . اكتبوا لها بإطلاقه .

قالت : يا أمير المؤمنين ؛ وأنّى لى بالرجعة وقد نفِد زادي ، وكلَّت راحلتى ؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم .

وفود عكرشة بنت الأطرش

على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكرُ الهذلى عن عِكرمة قال : دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكِّئة على عُكاز لها ، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست ؛ فقال لها معاوية : الآن يا عكرشةُ صرتُ عندك أميرَ المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إذ لا علىٌّ حىّ قال : ألست المقلّدة حمائل السيوف بصِفِّين ، وأنت واقفة بين الصّفين تقولين :

أيها الناس، عليْكُمْ أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتمْ. إن الجنةَ لا يرحل عنها من أوطنها، ولا يَهرَم من سَكنها، ولا يموت من دخلها؛ فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمُها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلفَ إليكم بعُجم العرب غُلفِ القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يَدْرُون ما الحكمة؛ دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فالله اللهَ عبادَ اللهِ فى دين الله؛ إياكم والتواكلَ، فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام، ويطفئُ نور الحق هذه بَدْرٌ الصغرى، والعقبةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنى بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة تَصْقَع صَقْعَ البقر، وتَرُوث رَوْثَ العتاق.

فكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة. فإن كدتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدَر الله، وكان أمرُ الله قدرا مقدورا، فما حَمَلَكِ على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤْكم) وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يحب إعادته، قال: صدقت، فاذكرى حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تُؤخذ من أغنيائنا فتردُّ على فقرائنا؛ وإنّا قد فقدنا ذلك، فما يُجبر لنا كسير؛ ولا يُنْعَش لنا فقير؛ فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبّه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلُك استعان بالخونة ولا استعمل الظَّلَمَة.

قال معاوية: يا هذه، إنه ينُوبُنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق. قالت: يا سبحان الله. والله ما فرض اللهُ لنا حقا فجعلَ فيه ضررا على غيرنا، وهو علام الغيوب.

قال معاوية: يأهل العراق، نبّهكم علىُّ بن أبى طالب فلم تُطاقوا! ثم أمر بردِّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

قصة دارمية الحَجونية

مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبى سهل التيمى عن أبيه قال : حج معاوية ، فسأله عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحَجُون ، يقال لها دارِمِيّة الحجونية ؛ وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأُخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجىء بها ؛ فقال : ماحالكِ يابنةَ حلم ؟ فقالت : لست لِحَامٍ إن عِبْتَنى ؛ أنا امرأة من بنى كِنانة . قال : صدقت . أتدرين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك : عَلامَ أحببت عَلِيًّا وأبغضتِنى ؛ وواليتِهِ وعاديتِنى ؟ قالت : أو تُعفِينى . قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإنى أحببتُ عليّا على عدله فى الرعية ، وقَسْمه بالسويّة ؛ وأبغضتُك على قتالِ مَن هو أولى منك بالأمر ، وطِلْبَتِك ما ليس لك بحق . وواليت عليّا على ما عَقَدَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الولاء ، وحبّه المساكين . وإعظامِهِ لأهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورِك فى القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بَطْنُك ، وعظُم ثَدْياك ، ورَبَتْ عجيزتُك ، قالت : ياهذا ، بهند واللهِ كان يُضرب المثلُ فى ذلك لا بى . قال معاوية : يا هذه اربَعى ، فإنا لم نقل إلا خيرا ؛ إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدِها ، وإذا عظم ثدياها تَرَوَّى رَضيعُها . وإذا عظمت عجيزتُها رَزُن مجلسها . فرجعتْ وسكنتْ . قال لها : ياهذه ، هل رأيتِ عليا ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملكُ الذى فتنك ، ولم تشغله النعمةُ التى شغلتْك . قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله ، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيتُ صدأ الطَّسْت . قال : صدقتِ ! فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعلُ إذا سألتُك ؟ قال : نعم . قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟

قالت : أغذو بألبانها الصِّغار ، وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأُصلح بها بين العشائر .

قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أُحلُّ عندك محل على بن أبى طالب ؟

قالت : ماء ولا كَصَدَاء ، ومَرْعًى ولا كالسَّعْدان ، وفتًى ولا كمالِك ، يا سبحان الله ، أوَ دُونَه ؟ فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحِلْمِ منّى عليكم ٭ فمَنْ ذا الذى بَعدى يُؤَمَّلُ للحِلْمِ
خُذِيها هنيئاً واذكرى فِعل ماجِدٍ ٭ جَزاكِ على حَرْبِ العداوةِ بالسِّلْمِ

ثم قال : أما والله لو كان علىٌّ حيا ما أعطاك منها شيئا .

قالت : لا والله ، ولا وَبَرَةً واحدةً من مال المسلمين .

وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عُبيد الله بن عمر الغَسانى عن الشعبى ، قال : كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحُريش بن سُراقة البارق برحْلها ، وأعلمه أنه مُجازيه بالخير خيرا وبالشر شرًّا بقولها فيه ، فلما ورد عليه كتابُه ركب إليها فأقرأها كتابَه ؛ فقالت : أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعة ، ولا معتلّة بكذب ، ولقد كنت أُحبّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تَختلج فى صدرى .

فلما شيّعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أنه مُجازينى بالخير خيراً وبالشر شرًّا ؛ فمالى عندك ؟ قالت : يا هذا لا يُطْمِعَنْك برُّك بى أن أسُرّك بباطل . ولا تُؤْيِسنْك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق .

فسارت خيرَ مَسير حتى قدمت على معاوية . فأنزلها مع الحَرَم ؛ ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه ؛ فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، بحقّ ما دعوتِنى بهذا الاسم . قالت : يا أمير المؤمنين ، مَهْ ، فإن بديهة السلطان مَدْحَضَةٌ لما يُحب عِلمه ، ولكلّ أجل كتاب . قال : صدقتِ ! فكيف حالُكِ يا خالة ؟ وكيف كنتِ فى مَسيرك ؟ قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين فى خيرٍ وعافيةٍ حتى صرتُ إليك ؛ فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق . قال معاوية : بِحُسْنِ نِيتى ظَفِرتُ بكم . قالت :

يا أمير المؤمنين ، يُعيذك الله من دَحْض المقال وما تُرْدِى عاقبته . قال : ليس هذا أردنا . أخبِرينا كيف كان كلامُك إذ قُتل عمارُ بن ياسر ؟ قالت : لم أكن زَوَّرْتُهُ قبل ، ولا روّيتُه بعد ؛ وإنما كانت كلمات نَفَثها لسانى عند الصدمة ؛ فإن أحببتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فَعَلْت . فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامَها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعضَ كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات . قال : كأنى بها وعليها بُرد زَبيدىّ كثيف بين النسج ، وهى على جمل أرمَك وقد أُحيط حولها ، وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدر فى شِقْشِقته ، تقول :

يأيها النّاس اتّقوا ربَّكُم ، إنّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ! إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبانَ الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العَلَم ، ولم يَدَعْكم فى عماء مُدْلَهِمَّة : فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفِراراً عن أمير المؤمنين ، أم فِراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عِيلَ الصبر ، وضَعُف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يارب أزِمّة القلوب ، فاجمع اللهم بها الكلمةَ على التقوى ، وألِّف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هَلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضىّ التقىّ ، والصديق الأكبر ؛ إنها إحَنٌ بَدْرية ، وأحقادٌ جاهلية ، وضغائن أُحُدية وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : ﴿ قَاتِلوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعلهُمْ يَنْتَهُون ﴾ . صبراً يا معشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرةٍ من ربكم ، وثباتٍ من دينكم ؛ فكأنى بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كحُمُر مستنفِرة ، فرّتْ من قَسْوَرة ، لاتدرى أين يُسْلَك بها من فِجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشترَوُا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرةَ بالعَمَى وعما قليلٍ ليُصْبِحُنّ نادمين ، حتى تَحُلَّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه من ضلّ والله عن الحق وَقَعَ فى الباطل .

ألا إن أولياء الله استصغروا عمرَ الدنيا فرفضُوها ، واستطابوا الآخرة فسَعَوْا لها ، فاللهَ الله أيها الناس ، قبل أن تبطلَ الحقوق ، وتعطَّلَ الحدود ، ويظهر الظالمون ، و تقوى كلمةُ الشيطان ؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبي سِبْطيه ، خُلِق من طينته ، وتفرع من نبعته ، وخصَّه بسرِّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين : هاهو ذا مُفَلِّق الهام ، ومكسِّر الأصنام ؛ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مُبارِزى بدر ، وأفنى أهلَ أُحد ، وهزم الأحزاب ، وقَتل الله به أهلَ خيبر ، وفرّق به جمع هوازن ؛ فيالها من وقائع زرعت فى قلوبٍ نفاقا ، ورِدّة وشقاقا ، وزادت المؤمنين إيمانا ، وقد اجتهدتُ فى القول ؛ وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ فى ذلك .

قالت : والله مايسوءنى أن يَجْرِىَ قتلى على يَدَىْ من يُسعِدُنى الله بشقائه .

قال : هيهات ياكثيرةَ الفُضول . ماتقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟

قالت : وما عسيتُ أن أقول فى عثمان ، استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون .

قال معاوية : يا أم الخير ؛ هذا أصلك الذى تَبنين [1] .

قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ؛ ما أردتُ بعثمان نَقصا ، ولكن كان سابقاً إلى الخير ، وإنه لرفيع الدرجة غدا .

قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اُغتيلَ من مأمنِه ، وأُتى من حيث لم يحْذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة .

(١) فى بعض الأصول : « تناؤك الذى تثنين » يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الأصل الذى بنت عليه .

قال : فما تقولين فى الزبير ؟ قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وقد كان سبّاقا إلى كل مكرمة فى الإسلام ، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية ، فإنّ قريشاً تحدّثت أنك أحلمُها : أن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تُعفينى من هـذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها .

قال نَعَم ونِعمَةَ عَيْن ، قد أعفيتُك منهـا . ثم أمر لهـا بجائزة رفيعة وردّها مكرمة .

وفود أروى بنت عبد المطلب

على معاوية رحمه الله

العباس بن بكار قال : حدّثنى عبد الله بن سليمان المَدنى وأبو بكر الهُذَلى ، أن أَرْوَى بنتَ الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهى عجوز كبيرة ؛ فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلا ياعمة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟

فقالت : يابن أخى ، لقد كفرتَ يدَ النعمة ، وأسأتَ لابن عمك الصحبة ، وتسمَّيت بغير آسمك ، وأخذتَ غيرَ حقك ، مِن غير دين [1] كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقةٍ فى الإسلام ، بعد أن كفرتُم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتعسَ اللهُ منكم الجدود ، وأضرَعَ منكم الخدود ، وردَّ الحقَّ إلى أهله ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوُلِّيتُم علينا من بعـده ، تحتجون بقرابتكمْ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقربُ إليـه منكم وأولى بهذا الأمر ؛ فكُنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيـل فى آل فرعون ، وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى ؛ فغايتُنا الجنة وغايتكم النار .

فقال لها عمرو بن العاص : كُفِّى أيتُها العجوز الضالة ، وأقصِرِى عن قولك

(١) فى بلاغات النساء : « من غير بلاء . . . »

مع ذهاب عقلك ، إذ لا تجوز شهادتك وحدك .

فقالت له وأنت يابن النابغة تتكلم ! وأمُّك كانت أشهرَ امرأة تُغَنِّى بمكة ، وآخذَهن لأجرة ! اربَعْ على ظَلْعِك ، واعْنَ بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم مَنْصِبها ؛ ولقد ادعاك خمسةُ نفر من قريش ، [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلتْ أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبهَهُم به فألْحِقوه به ، فغلب عليك شَبَهُ العاص بن وائل فلحِقْتَ به .

فقال مروان : كفِّى أيتها العجوز ، واقصدى لما جئتِ له . فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم !

ثم التفتت إلى معاوية فقالت : والله ماجرّأ علىّ هؤلاء غيرُك ، وإن أمك القائلةُ فى قتل حمزة :

نحن جَزَيْناكم بيوم بدرِ * والحرب بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ماكان لى عن عُتْبةٍ من صَبْرِ * فشُكرُ وحْشِىّ علىّ دَهرِى
* حتى تَرِمّ أعظُمِى فى قبرى *

فأجابتها بنتُ عمى وهى تقول :

خَزِيتِ فى بدرٍ وبعدَ بدرِ * يابنةَ جبّارٍ عظيمِ الكفر

فقال : معاوية عفا الله عما سلف ياعمة ! هاتِ حاجتَك .

قالت : مالى إليك حاجة ، وخرجت عنه .

تم الجزء الأول بعون الله وتوفيقه

ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثانى

وأوله : « كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك »

فهرس

موضوعات الجزء الاول

من العقد الفريد